مطبوعات دار المأمون

الوقت من ذهب

الدكتور احمد فريد رفاعي
مدير مصلحة الصحافة والنشر والثقافة العامة المصرية

مكتبة القراءة والثقافة الأدبية

سلسلة الموسوعات العربية

معجم الأدباء

في عشرين جزءاً

لياقوت

راجعته وزارة المعارف العمومية

الجزء الثاني عشر

الطبعة الأخيرة

منقحة ومضبوطة وفيها زيادات

طبع بمطبعة دار المأمون ويباع في المكاتب الشهيرة

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

بحمدك اللهم نستعين، وبالصلاة على نبيك نستلهم التوفيق لما يقتضيه الدين. أما بعد فقد قال العماد الأصفهاني:

إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غُيّر هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يُستحسن ولو قُدّم هذا لكان أفضل، ولو تُرك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر.

العماد الأصفهاني

﴿ ١ – عَلِىُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْعَبَّاسِ أَبُو حَيَّانَ * ﴾

أبو حيان التوحيدى

التَّوْحِيدِىُّ ، شِيرَازِىُّ الْأَصْلِ وَقِيلَ نَيْسَابُورِىٌّ ، وَوَجَدْتُ بَعْضَ الْفُضَلَاءِ يَقُولُ لَهُ الْوَاسِطِىُّ ، صُوفِىُّ السَّمْتِ وَالْهَيْئَةِ ، وَكَانَ يَتَأَلَّهُ وَالنَّاسُ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ دِينِهِ ، قَدِمَ بَغْدَادَ فَأَقَامَ بِهَا مُدَّةً وَمَضَى إِلَى الرَّىِّ ، وَصَحِبَ الصَّاحِبَ أَبَا الْقَاسِمِ إِسْمَاعِيلَ بْنَ عَبَّادٍ وَقَبْلَهُ أَبَا الْفَضْلِ بْنَ الْعَمِيدِ فَلَمْ يَحْمَدْهُمَا وَعَمِلَ فِى مَثَالِبِهِمَا كِتَابًا ، وَكَانَ مُتَفَنِّنًا فِى جَمِيعِ الْعُلُومِ مِنَ النَّحْوِ وَاللُّغَةِ وَالشِّعْرِ وَالْأَدَبِ وَالْفِقْهِ وَالْكَلَامِ عَلَى رَأْىِ الْمُعْتَزِلَةِ ، وَكَانَ جَاحِظِيًّا يَسْلُكُ فِى تَصَانِيفِهِ مَسْلَكَهُ وَيَشْتَهِى أَنْ يَنْتَظِمَ فِى سِلْكِهِ ، فَهُوَ شَيْخٌ فِى الصُّوفِيَّةِ وَفَيْلَسُوفُ الْأُدَبَاءِ وَأَدِيبُ الْفَلَاسِفَةِ ، وَمُحَقِّقُ الْكَلَامِ وَمُتَكَلِّمُ الْمُحَقِّقِينَ ، وَإِمَامُ الْبُلَغَاءِ ، وَعُمْدَةٌ لِبَنِى سَاسَانَ ، سَخِيفُ اللِّسَانِ ، قَلِيلُ الرِّضَا عِنْدَ الْإِسَاءَةِ إِلَيْهِ وَالْإِحْسَانِ ، الذَّمُّ

(*) ترجم له فى كتاب بغية الوعاة بترجمة جاء فيها ما يأتى قال :

أبو حيان التوحيدى بالحاء المهملة نسبة إلى نوع من التمر يسمى التوحيدى ، وقال شيخ الاسلام ابن حجر : يحتمل أن يكون إلى التوحيد الذى هو الدين ، فان المعتزلة يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد. وقال ابن الجوزى : زنادقة الاسلام ثلاثة : ابن الراوندى والتوحيدى ، وأبو العلاء المعرى ، وشرهم على الاسلام التوحيدى ، لأنهما صرحا ولم يصرح . مات فى حدود الثمانين والثلاثمائة

شَأْنُهُ ، وَالثَّلْبُ دُكَّانُهُ (١) ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ فَرْدُ الدُّنْيَا الَّذِى لَا نَظِيرَ لَهُ ذَكَاءً وَفِطْنَةً ، وَفَصَاحَةً وَمُكْنَةً ، كَثِيرُ التَّحْصِيلِ لِلْعُلُومِ فِى كُلِّ فَنٍّ حَفِظَهُ ، وَاسِعُ الدِّرَايَةِ وَالرِّوَايَةِ ، وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ مَحْدُودًا (٢) مُحَارَفًا يَتَشَكَّى صَرْفَ زَمَانِهِ ، وَيَبْكِي فِى تَصَانِيفِهِ عَلَى حِرْمَانِهِ .

وَلَمْ أَرَ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ذَكَرَهُ فِى كِتَابٍ ، وَلَا دَمَجَهُ فِى ضِمْنِ خِطَابٍ ، وَهَذَا مِنَ الْعَجَبِ الْعُجَابِ ، غَيْرَ أَنَّ أَبَا حَيَّانَ ذَكَرَ نَفْسَهُ فِى كِتَابِ الصَّدِيقِ وَالصَّدَاقَةِ وَهُوَ كِتَابٌ حَسَنٌ نَفِيسٌ بِمَا قَالَ فِيهِ :

كَانَ سَبَبُ إِنْشَاءِ هَذَا الْكِتَابِ الرِّسَالَةِ فِى الصَّدِيقِ وَالصَّدَاقَةِ : أَنِّى ذَكَرْتُ مِنْهَا شَيْئًا لِزَيْدِ بْنِ رِفَاعَةَ أَبِى الْخَيْرِ ، فَنَمَاهُ إِلَى ابْنِ سَعْدَانَ أَبِى عَبْدِ اللهِ سَنَةَ إِحْدَى وَسَبْعِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ قَبْلَ تَحَمُّلِهِ أَعْبَاءَ الدَّوْلَةِ وَتَدْبِيرِهِ أَمْرَ الْوِزَارَةِ فَقَالَ لِى ابْنُ سَعْدَانَ : قَالَ لِى عَنْكَ زَيْدٌ كَذَا وَكَذَا ، قُلْتُ : قَدْ كَانَ ذَاكَ . فَقَالَ لِى : دَوِّنْ هَذَا الْكَلَامَ وَصِلْهُ

---

(١) الدكان : الحانوت ، والكلام على المجاز ، يريد أن بضاعته المثالب

(٢) المحارف : المحدود المحروم

بِصلاتِهِ مِمَّا يَصِحُّ عِنْدَكَ لِمَنْ تَقدَّمَ ، فَإِنَّ حَدِيثَ الصَّدِيقِ حُلْوٌ ، وَوَصْفَ الصَّاحِبِ الْمُسَاعِدِ مُطْرِبٌ ، فَجَمَعْتُ مَا فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ وَشُغِلَ عَنْ رَدِّ الْقَوْلِ فِيهَا ، وَبَطُؤْتُ أَنَا عَنْ تَحْرِيرِهَا إِلَى أَنْ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ ، فَلَمَّا كَانَ هَذَا الْوَقْتُ وَهُوَ رَجَبٌ سَنَةَ أَرْبَعِمِائَةٍ ، عَثَرْتُ عَلَى الْمُسَوَّدَةِ وَبَيَّضْتُهَا ، « وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى بَقَائِهِ إِلَى مَا بَعْدَ الْأَرْبَعِمِائَةِ » .

وَفِي كِتَابِ الْهَفَوَاتِ لِابْنِ الصَّابِئِ : وَحَكَى أَبُو حَيَّانَ قَالَ : حَضَرْتُ مَائِدَةَ الصَّاحِبِ بْنِ عَبَّادٍ فَقُدِّمَتْ مَضِيرَةٌ(١) فَأَمْعَنْتُ فِيهَا فَقَالَ لِي : يَا أَبَا حَيَّانَ ، إِنَّهَا تَضُرُّ بِالْمَشَايِخِ . فَقُلْتُ : إِنْ رَأَى الصَّاحِبُ أَنْ يَدَعَ التَّطَبُّبَ عَلَى طَعَامِهِ فَعَلَ ، فَكَأَنِّي أَلْقَمْتُهُ حَجَراً وَخَجِلَ وَاسْتَحْيَا وَلَمْ يَنْطِقْ إِلَى أَنْ فَرَغْنَا ،

وَلِأَبِي حَيَّانَ تَصَانِيفُ كَثِيرَةٌ مِنْهَا : كِتَابُ رِسَالَةِ الصَّدِيقِ وَالصَّدَاقَةِ ، كِتَابُ الرَّدِّ عَلَى ابْنِ جِنِّيٍّ فِي شِعْرِ الْمُتَنَبِّي ، كِتَابُ الْإِمْتَاعِ وَالْمُؤَانَسَةِ جُزْءَانِ ، كِتَابُ الْإِشَارَاتِ الْإِلَهِيَّةِ جُزْءَانِ ، كِتَابُ الزُّلْفَةِ جُزْءٌ ، كِتَابُ الْمُقَابَسَةِ ، كِتَابُ رِيَاضِ الْعَارِفِينَ ، كِتَابُ تَقْرِيظِ الْجَاحِظِ ، كِتَابُ

(١) المضيرة : مريقة تطبخ باللبن المضير أو الحليب ، واللبن المضير : الحامض منه

ذَمّ الوَزِيرَيْنِ ، كِتَابُ الحَجّ العَقْلِيّ إِذَا ضَاقَ الفَضَاءُ عَنِ الحَجّ الشَّرْعِيّ ، كِتَابُ الرِّسَالَةِ فِي صِلاتِ الفُقَهَاءِ فِي المُنَاظَرَةِ ، كِتَابُ الرِّسَالَةِ البَغْدَادِيَّةِ ، كِتَابُ الرِّسَالَةِ فِي أَخْبَارِ الصُّوفِيَّةِ ، كِتَابُ الرِّسَالَةِ الصُّوفِيَّةِ أَيْضاً ، كِتَابُ الرِّسَالَةِ فِي الحَنِينِ إِلَى الأَوْطَانِ ، كِتَابُ البَصَائِرِ وَهُوَ عَشْرُ مُجَلَّدَاتٍ كُلُّ مُجَلَّدٍ لَهُ فَاتِحَةٌ وَخَاتِمَةٌ ، كِتَابُ المُحَاضَرَاتِ وَالمُنَاظَرَاتِ .

قَالَ أَبُو حَيَّانَ فِي كِتَابِ المُحَاضَرَاتِ : كُنْتُ بِحَضْرَةِ أَبِي سَعِيدٍ السِّيرَافِيّ فَوَجَدْتُ بِخَطِّهِ عَلَى ظَهْرِ كِتَابِ اللُّمَعِ فِي شَوَاذّ التَّفْسِيرِ ـ وَكَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَأَخَذْتُهُ وَنَظَرْتُ ـ قَالَ : ذَمّ أَعْرَابِيّ رَجُلاً فَقَالَ : لَيْسَ لَهُ أَوَّلٌ يُحْمَلُ عَلَيْهِ ، وَلَا آخِرٌ يُرْجَعُ إِلَيْهِ ، وَلَا عَقْلٌ يَزْكُو بِهِ عَاقِلٌ لَدَيْهِ ، وَأَنْشَدَ :

حَسِبْتُكَ إِنْسَاناً عَلَى غَيْرِ خِبْرَةٍ
فَكَشَفْتَ عَنْ كَلْبٍ أَكَبَّ عَلَى عَظْمِ
لَحَى اللهُ رَأْياً قَادَ نَحْوَكَ هِمَّتِي
فَأَعْقَبَنِي طُولَ المُقَامِ عَلَى الذَّمّ

فَقَالَ لِي : يَا أَبَا حَيَّانَ ، مَا الَّذِي كُنْتَ تَكْتُبُ ؟

قُلْتُ: الحِكَايَةَ الَّتِي عَلَى ظَهْرِ هَذَا الْكِتَابِ، فَأَخَذَهَا وَتَأَمَّلَهَا وَقَالَ: تَأْبَى إِلَّا الاشْتِغَالَ بِالقَدْحِ وَالذَّمِّ وَثَلْبِ النَّاسِ. فَقُلْتُ: أَدَامَ اللهُ الإِمْتَاعَ، شُغِلَ كُلُّ نَاسٍ بِمَا هُوَ مُبْتَلًى بِهِ مَدْفُوعٌ إِلَيْهِ.

قَالَ أَبُو حَيَّانَ: وَقَصَدْتُ مَعَ أَبِي زَيْدٍ الْمَرْوَزِيِّ دَارَ أَبِي الْفَتْحِ ذِي الْكِفَايَتَيْنِ فَمُنِعْنَا مِنَ الدُّخُولِ عَلَيْهِ أَشَدَّ مَنْعٍ، وَذَكَرَ حَاجِبُهُ أَنَّهُ يَأْكُلُ الْخُبْزَ فَرَجَعْنَا بَعْدَ أَنْ قَالَ أَبُو زَيْدٍ لِلْحَاجِبِ: أَجْلِسْنَا فِي الدِّهْلِيزِ إِلَى أَنْ يَفْرُغَ مِنَ الأَكْلِ فَلَمْ يَفْعَلْ، فَلَمَّا انْصَرَفْنَا خَزَايَا أَنْشَأَ يَقُولُ مُتَمَثِّلًا:

عَلَى خُبْزِ إِسْمَاعِيلَ وَاقِيَةُ الْبُخْلِ
فَقَدْ حَلَّ فِي دَارِ الأَمَانِ مِنَ الأَكْلِ
وَمَا خُبْزُهُ إِلَّا كَآوَى (١) يُرَى ابْنُهُ
وَلَمْ يُرَ آوَى فِي الْحُزُونِ وَلَا السَّهْلِ
وَمَا خُبْزُهُ إِلَّا كَعَنْقَاءِ مُغْرِبٍ
تُصَوَّرُ فِي بُسْطِ الْمُلُوكِ وَفِي الْمُثْلِ

(١) سمي ابن آوى بهذه الكنية من غير وجود لآوى، فإذا أردت أن تضرب مثلا لرؤية المحال قلت: « رأيت آوى أو عنقاء مغرب ».

يُحَدِّثُ عَنْهَا النَّاسُ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ
سِوَى صُورَةٍ مَا إِنْ تُمِرُّ[١] وَلَا تُحْلِى

قَالَ أَبُو حَيَّانَ : وَأَنْشَدَنَا أَبُو بَكْرٍ الْقُومِسِيُّ الْفَيْلَسُوفُ وَكَانَ بَحْراً عَجَّاجاً ، وَسِرَاجاً وَهَّاجاً ، وَكَانَ مِنَ الضُّرِّ وَالْفَاقَةِ ، وَمُقَاسَاةِ الشِّدَّةِ وَالْإِضَاقَةِ بِمَنْزِلَةٍ عَظِيمَةٍ ، عَظِيمَ الْقَدْرِ عِنْدَ ذَوِى الْأَخْطَارِ ، مَنْحُوسَ الْحَظِّ مِنْهُمْ ، مُتَّهَماً فِى دِينِهِ عِنْدَ الْعَوَامِّ مَقْصُوداً[٢] مِنْ جِهَتِهِمْ . فَقَالَ لِى يَوْماً : مَا ظَنَنْتُ أَنَّ الدُّنْيَا وَنَكَدَهَا تَبْلُغُ مِنْ إِنْسَانٍ مَا بَلَغَ مِنِّى ، إِنْ قَصَدْتُ دِجْلَةَ لِأَغْتَسِلَ مِنْهَا نَضَبَ مَاؤُهَا ، وَإِنْ خَرَجْتُ إِلَى الْقِفَارِ لِأَتَيَمَّمَ بِالصَّعِيدِ عَادَ صَلْداً أَمْلَسَ ، وَكَأَنَّ الْعَطَوِىَّ مَا أَرَادَ بِقَصِيدَتِهِ غَيْرِى ، وَمَا عَنَى بِهَا سِوَاىَ ، ثُمَّ أَنْشَدَنَا لِلْعَطَوِىِّ :

مَنْ رَمَاهُ الْإِلَهُ بِالْإِقْتَارِ ... وَطِلَابِ الْغِنَى مِنَ الْأَسْفَارِ
هُوَ فِى حَيْرَةٍ وَضَنْكٍ وَإِفْلَا ... سٍ وَبُؤْسٍ وَمِحْنَةٍ وَصَغَارِ
يَا أَبَا الْقَاسِمِ الَّذِى أَوْضَحَ الْجُو ... دُ إِلَيْهِ مَقَاصِدَ الْأَحْرَارِ

(١) يقال للشىء لا قيمة له ، وللرجل كذلك ما يمر وما يحلى : أى لا مرارة فيه فتحس ، ولا حلاوة فتذاق . (٢) متهما ومقصودا بالنصب ، وكانتا فى الأصل : « بالرفع » « عبد الخالق »

خُذْ حَدِيثِى فَإِنَّ وَجْهِى مُذْ بَا ‍ رَزَ هَذَا الْأَنَامَ فِى ثَوْبِ قَارِ
وَهُوَ لِلسَّامِعِينَ أَطْيَبُ مِنْ نَفْـ ‍ ـحِ نَسِيمِ الرِّيَاضِ غِبَّ الْقِطَارِ
هَجَمَ الْبَرْدُ[١] مُسْرِعًا وَيَدِى صِفْـ ‍ ـرٌ وَجِسْمِى عَارٍ بِغَيْرِ دِثَارِ
فَتَسَتَّرْتُ مِنْهُ طُولَ التَّشَارِيـ[٢] ‍ ـنِ إِلَى أَنْ تَهَتَّكَتْ أَسْتَارِى
وَنَسَجْتُ الْأَطْمَارَ بِالْخَيْطِ وَالْإِبْـ ‍ ـرَةِ حَتَّى عَرِيتُ مِنْ أَطْمَارِى
وَسَعَى الْقَمْلُ مِنْ دُرُوزِ[٣] قَمِيصِى ‍ مِنْ صِغَارٍ مَا بَيْنَهُمْ وَكِبَارِ
يَتَسَاعَوْنَ فِى ثِيَابِى إِلَى رَأْ ‍ ـسِى قِطَارًا تَجُولُ بَعْدَ قِطَارِ
ثُمَّ وَافَى كَانُونُ وَاسْوَدَّ وَجْهِى ‍ وَأَتَانِى مَا كَانَ مِنْهُ حِذَارِى
لَوْ تَأَمَّلْتَ صُورَتِى وَرُجُوعِى ‍ حِينَ أُمْسِى إِلَى رُبُوعٍ قِفَارِ
أَنَا وَحْدِى فِيهِ وَهَلْ فِيهِ فَضْلٌ ‍ لِجُلُوسِ الْأَنِيسِ وَالزُّوَّارِ؟
وَالْخَلَا لَا يُرَادُ فِيهِ فَمَالِى ‍ أَبَدًا حَاجَةٌ إِلَى الْحَفَّارِ

(١) كانت هذه الكلمة فى الأصل : « الرد » (٢) جمع تشرين من أسماء الشهور (٣) الدروز : كل ارتفاع يحصل فى الثوب عند جمع طرفيه « الغرز » أو الدروز : الخياطة

بَلْ يُرَادُ الْخَلَا لِمُنْحَدِرِ النَّجْـ ـوِ وَمَا ذُقْتُ لُقْمَةً فِي الدَّارِ

وَإِذَا لَمْ تَدُرْ عَلَى الْمُطْعِمِ الْأَفْـ
ـوَاهُ سُدَّتْ مَثَاعِبُ [1] الْأَحْجَارِ

وَقُلْتُ لَهُ يَوْماً: لَوْ قَصَدْتَ ابْنَ الْعَمِيدِ وَابْنَ عَبَّادٍ عَسَى تَكُونُ مِنْ جُمْلَةِ مَنْ يَنْفُقُ عَلَيْهِمَا وَتَحْظَى لَدَيْهِمَا، فَأَجَابَنِي بِكَلَامٍ مِنْهُ: مُعَانَاةُ الضُّرِّ وَالْبُؤْسِ أَوْلَى مِنْ مُقَاسَاةِ الْجُهَّالِ وَالتُّيُوسِ، وَالصَّبْرُ عَلَى الْوَخَمِ الْوَبِيلِ أَوْلَى مِنَ النَّظَرِ إِلَى مُحَيَّا كُلِّ ثَقِيلٍ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

بَيْنِي وَبَيْنَ لِئَامِ النَّاسِ مَعْتَبَةٌ
مَا تَنْقَضِي وَكِرَامُ النَّاسِ إِخْوَانِي

إِذَا لَقِيتُ لَئِيمَ الْقَوْمِ عَنَّفَنِي وَإِنْ لَقِيتُ كَرِيمَ الْقَوْمِ حَيَّانِي

وَقُلْتُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُ فِي مَعْنَى قَصِيدَةِ الْعَطَوِيِّ أُخْرَى؟ قَالَ نَعَمْ، قَصِيدَةُ الْحَرَّانِيِّ صَاحِبِ الْمَأْمُونِ. فَقُلْتُ: لَوْ تَفَضَّلْتَ بِإِنْشَادِهَا، فَقَالَ: خُذْ فِي حَدِيثِ مَنْ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ دُنْيَاهُ وَتَمَكَّنَ فِيهَا مِنْ مُنَاهُ، وَدَعْ حَدِيثَ الْحُرْفِ [2] وَالْعُسْرِ

(١) المثعب: سيل الماء، يريد من أين ينحدر النجو وسببه وهو الطعام مفقود؟ وكذلك المثاعب مقفلة إذ ليس لفتحها سبب

(٢) الحرف: الحرمان «عبد الخالق»

وَالشُّؤْمِ وَالْخُسْرِ تَطَيُّراً إِنْ لَمْ تَرْفُضْهُ تَأَدُّباً. فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَعْرِفُ لَكَ شَرِيكاً فِيمَا أَنْتَ عَلَيْهِ وَتَتَقَلَّبُ فِيهِ وَتُقَاسِيهِ سِوَاىَ، وَلَقَدِ اسْتَوْلَى عَلَىَّ الْحُرْفُ وَتَمَكَّنَ مِنِّى نَكَدُ الزَّمَانِ إِلَى الْحَدِّ الَّذِى لَا أَسْتَرْزِقُ مَعَ صِحَّةِ نَقْلِى وَتَقْيِيدِ خَطِّى وَتَزْوِيقِ نَسْخِى وَسَلَامَتِهِ مِنَ التَّصْحِيفِ وَالتَّحْرِيفِ بِمِثْلِ مَا يَسْتَرْزِقُ الْبَلِيدُ الَّذِى يَنْسَخُ[1] النَّسْخَ، وَيَمْسَخُ[2] الْأَصْلَ وَالْفَرْعَ، وَقَصَدْتُ ابْنَ عَبَّادٍ بِأَمَلٍ فَسِيحٍ وَصَدْرٍ رَحِيبٍ، فَقَدَّمَ إِلَىَّ رَسَائِلَهُ فِى ثَلَاثِينَ مُجَلَّدَةً عَلَى أَنْ أَنْسَخَهَا لَهُ، فَقُلْتُ: نَسْخُ مِثْلِهِ يَأْتِى عَلَى الْعُمُرِ وَالْبَصَرِ، ـ وَالْوِرَاقَةُ[3] كَانَتْ مَوْجُودَةً بِبَغْدَادَ ـ فَأَخَذَ فِى نَفْسِهِ عَلَىَّ مِنْ ذَلِكَ، وَمَا فُزْتُ بِطَائِلٍ مِنْ جِهَتِهِ. فَقَالَ: بَلَغَنِى ذَلِكَ فَقُلْتُ لَهُ: وَلَوْ كَانَ شَيْئاً يَنْتَفِعُ مِنَ الْيَدِ بِمُدَّةٍ قَرِيبَةٍ لَكُنْتُ لَا أَتَعَطَّلُ وَأَتَوَفَّرُ عَلَيْهِ، وَلَوْ قَرَّرَ مَعِى أُجْرَةَ مِثْلِهِ لَكُنْتُ أَصْبِرُ عَلَيْهِ، فَلَيْسَ لِمَنْ وَقَعَ فِى شَرِّ الشِّبَاكِ وَعَيْنِ الْهَلَاكِ إِلَّا الصَّبْرُ.

(١) ينسخ: يزيل، والنسخ: المنسوخ بمعنى المكتوب، وكانت هذه الكلمة فى الأصل: «يمسخ»

(٢) كانت هذه الكلمة فى الأصل: «يفسخ»

(٣) هذه الجملة «معترضة»

قَالَ أَبُو حَيَّانَ : وَدَخلتُ عَلَى الدَّلَجِيِّ(١) بِشِيرَازَ وَكُنْتُ قَدْ تَأَخَّرْتُ عنهُ أَيَّاماً ، وَهذَا الْكِتَابُ يَعْنِي كِتَابَ الْمُحَاضَرَاتِ جَمَعْتُهُ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَلِأَجْلِهِ أَتعبْتُ نفسِي . فَقَالَ لِي : يَا أَبَا حيَّانَ ، منْ أَيْنَ ؟ فَقُلْتُ :

إِذَا شئْتَ أَنْ تُقلَى فَزُرْ متوَاتِراً
وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَزْدَادَ حُبًّا فَزُرْ غِبًّا

وَهذَا لِمَلَالٍ ظهرَ لِي مِنْهُ ، وَقَلِيلِ إِعْرَاضٍ عَنِّي فِي يَوْمٍ . فقَالَ لِي : مَا هذَا الْبَيْتُ إِلَّا بيتٌ جيدٌ يَعرِفُهُ الْخَاصُّ وَالْعَامُّ ، وَهُوَ مُوَافِقٌ لِمَا يُذْ كَرُ مِنْ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسلَّمَ قَالَ : « زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حبًّا » . فَلَوْ كَانَ لِهَذَا الْبَيْتِ أَخَوَاتٌ كَانَ أَحْسَنَ مِنْ أَنْ يَكُونَ فَرْداً . قُلْتُ : فَلَهُ أَخَوَاتٌ . قَالَ : فَأَنْشِدْنِي . قُلْتُ لَا أَحفَظُهَا ، قَالَ : فَأَخرِجْهَا ، قُلْتُ : لَا أَهتَدِي إِلَيْهَا . قَالَ : فَمِنْ أَيْنَ عرفْتهَا ؟ قُلْتُ : مَرَّتْ بِي فِي جُمْلَةِ تَعلِيقَاتٍ . قَالَ : فَاطْلُبْهَا لِأُقدِّمَ رَسْمَكَ . قُلْتُ : فقدِّمْهُ الْآنَ عَلَى شَرِيطَةِ أَنهُ إِذَا جَاءَ الْوَقْتُ الْمُعْتَادُ إِطْلَاقُهُ فِيهِ كُلَّ سَنَةٍ أَطْلَقتُ أَيْضاً . قَالَ : أَفْعَلُ . قُلْتُ : نَخُذْهَا الْآنَ .

(١) نسبة إلى دلجة : قرية بصعيد مصر ، قلت : ولعله منسوب إلى الدلجة واحدة الدلج : وهي السير وقت الظلام «عبد الخالق»

سَمِعْتُ الْعَرُوضِيَّ أَبَا مُحَمَّدٍ يَقُولُ : دَخَلَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ عَلَى عِيسَى بْنِ مُوسَى الرَّافِقِيِّ وَبَيْنَ يَدَيْهِ جَارِيَةٌ يُقَالُ لَهَا خَلُوبٌ فَقَالَ لَهَا اُقْتَرِحِي عَلَيْهِ ، فَقَالَتْ :

إِذَا شِئْتَ أَنْ تُقْلَى فَزُرْ مُتَوَاتِراً
وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَزْدَادَ حبًّا فَزُرْ غِبًّا

أَجِزْهُ بِأَبْيَاتٍ تَلِيقُ بِهِ فَأَنْشَدَ :

بَقِيتُ بِلَا قَلْبٍ فَإِنِّي هَائِمٌ (١)
فَهَلْ مِنْ مُعِيرٍ يَا خَلُوبُ لَكُمْ قَلْبَا ؟
حَلَفْتُ بِرَبِّ الْبَيْتِ أَنَّكِ مُنْيَتِي
فَكُونِي لِعَيْنِي مَا نَظَرْتُ لَهَا نُصْبَا (٢)
عَسَى اللهُ يَوْماً أَنْ يُرِيَنِيكِ خَالِياً
فَيَزْدَادَ لَحْظِي مِنْ مَحَاسِنِكُمْ عُجْبَا
إِذَا شِئْتَ أَنْ تُقْلَى فَزُرْ مُتَوَاتِراً
وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَزْدَادَ حُبًّا فَزُرْ غِبًّا

(١) هى صفوح فيتمنى من طريق الاستفهام أن تعار قلبا لتهيم به

(٢) لها بدل من لعينى ، ونصبا خبر كان ، يريد كونى معبودة لعينى ، إذ النصب كقفل : ما عبد من دون الله ، أو أن النصب كمفتتح : العلم ، أى فكونى موضع نظرها دائما كالعلم إذ يرى دائما « عبد الخالق »

فَأَنجزَ لِي مَا وَعَدَ، وَوَفَّى بِمَا شَرَطَ، وَكَانَ يَنفُقُ عَلَيْهِ سُوقُ الْعِلْمِ مَعَ جُنُونٍ كَانَ يَعْتَرِيهِ، وَيَتَخَبَّطُ فِي أَكْثَرِ أَوْقَاتِهِ فِيهِ، وَلَيْتَ مَعَ هَذِهِ الْحَالَةِ خَلَفَ لِنَفْسِهِ شَكْلاً، أَوْ نَرَى لَهُ فِي وَقْتِنَا هَذَا مِثْلاً، بَارَتِ الْبَضَائِعُ، وَغَارَتِ[1] الْبَدَائِعُ، وَكَسَدَ سُوقُ الْعِلْمِ، وَخَمَدَ ذِكْرُ الْكَرَمِ، وَصَارَ النَّاسُ عَبِيدَ الدِّرْهَمِ بَعْدَ الدِّرْهَمِ. وَكَانَ أَبُو حَيَّانَ قَدْ أَحْرَقَ كُتُبَهُ فِي آخِرِ عُمْرِهِ لِقِلَّةِ جَدْوَاهَا، وَضَنًّا بِهَا عَلَى مَنْ لَا يَعْرِفُ قَدْرَهَا بَعْدَ مَوْتِهِ.

وَكَتَبَ إِلَيْهِ الْقَاضِي أَبُو سَهْلٍ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ يَعْذُلُهُ عَلَى صَنِيعِهِ، وَيُعَرِّفُهُ قُبْحَ مَا اعْتَمَدَ مِنَ الْفِعْلِ وَشَنِيعِهِ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ أَبُو حَيَّانَ يَعْتَذِرُ مِنْ ذَلِكَ: حَرَسَكَ اللَّهُ أَيُّهَا الشَّيْخُ مِنْ سُوءِ ظَنِّي بِمَوَدَّتِكَ وَطُولِ جَفَائِكَ، وَأَعَاذَنِي مِنْ مُكَافَأَتِكَ عَلَى ذَلِكَ، وَأَجَارَنَا جَمِيعاً مِمَّا يُسَوِّدُ وَجْهَ عَهْدٍ إِنْ رَعَيْنَاهُ كُنَّا مُسْتَأْنِسِينَ بِهِ، وَإِنْ أَهْمَلْنَاهُ كُنَّا مُسْتَوْحِشِينَ مِنْ أَجْلِهِ، وَأَدَامَ اللَّهُ نِعْمَتَهُ عِنْدَكَ، وَجَعَلَنِي عَلَى الْحَالَاتِ كُلِّهَا فِدَاكَ.

---

(١) كانت هذه الكلمة في الأصل: «ثارت»

وَافَانِي كِتَابُكَ غَيْرَ مُحْتَسَبٍ وَلَا مُتَوَقَّعٍ عَلَى ظَمَأٍ بَرَّحَ بِي إِلَيْهِ، وَشَكَرْتُ اللهَ تَعَالَى عَلَى النِّعْمَةِ بِهِ عَلَيَّ، وَسَأَلْتُهُ الْمَزِيدَ مِنْ أَمْثَالِهِ، الَّذِي وَصَفْتَ فِيهِ بَعْدَ ذِكْرِ الشَّوْقِ إِلَيَّ، وَالصَّبَابَةِ نَحْوِي مَانَالَ قَلْبَكَ وَالْتَهَبَ فِي صَدْرِكَ مِنَ الْخَبَرِ الَّذِي نَمَى إِلَيْكَ فِيمَا كَانَ مِنِّي مِنْ إِحْرَاقِ كُتُبِي النَّفِيسَةِ بِالنَّارِ وَغَسْلِهَا بِالْمَاءِ، فَعَجِبْتُ مِنِ انْزِوَاءِ وَجْهِ الْعُذْرِ عَنْكَ فِي ذَلِكَ، كَأَنَّكَ لَمْ تَقْرَأْ قَوْلَهُ جَلَّ وَعَزَّ: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ، لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ». وَكَأَنَّكَ لَمْ تَأْبَهْ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ». وَكَأَنَّكَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ لَا ثَبَاتَ لِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِنْ كَانَ شَرِيفَ الْجَوْهَرِ كَرِيمَ الْعُنْصُرِ، مَا دَامَ مُقَلَّباً بِيَدِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، مَعْرُوضاً عَلَى أَحْدَاثِ الدَّهْرِ وَتَعَاوُدِ الْأَيَّامِ، ثُمَّ إِنِّي أَقُولُ: إِنْ كَانَ — أَيَّدَكَ اللهُ — قَدْ نَقَبَ خُفَّكَ مَا سَمِعْتَ، فَقَدْ أَدْمَى أَظَلِي[1] مَا فَعَلْتُ، فَلْيَهُنْ عَلَيْكَ ذَلِكَ، فَمَا انْبَرَيْتُ لَهُ وَلَا اجْتَرَأْتُ عَلَيْهِ حَتَّى اسْتَخَرْتُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ أَيَّاماً وَلَيَالِيَ، وَحَتَّى أَوْحَى

(١) أى باطن الأصبع

إِلَىَّ فِى الْمَنَامِ بِمَا بَعَثَ رَاقِدَ الْعَزْمِ ، وَأَجَدَّ فَاتِرَ النِّيَّةِ ، وَأَحْيَا مَيِّتَ الرَّأْىِ ، وَحَثَّ عَلَى تَنْفِيذِ مَا وَقَعَ فِى الرَّوْعِ وَتَرَيَّعَ (١) فِى الْخَاطِرِ ، وَأَنَا أَجُودُ عَلَيْكَ الْآنَ بِالْحُجَّةِ فِى ذَلِكَ إِنْ طَالَبْتَ ، أَوْ بِالْعُذْرِ إِنِ اسْتَوْضَحْتَ ، لِتَثِقَ بِى فِيمَا كَانَ مِنِّى ، وَتَعْرِفَ صُنْعَ اللهِ تَعَالَى فِى ثَنْيِهِ لِى (٢) : إِنَّ الْعِلْمَ — حَاطَكَ اللهُ — يُرَادُ لِلْعَمَلِ ، كَمَا أَنَّ الْعَمَلَ يُرَادُ لِلنَّجَاةِ ، فَإِذَا كَانَ الْعَمَلُ قَاصِرًا عَنِ الْعِلْمِ ، كَانَ الْعِلْمُ كَلًّا عَلَى الْعَالِمِ ، وَأَنَا أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ عِلْمٍ عَادَ كَلًّا وَأَوْرَثَ ذُلًّا ، وَصَارَ فِى رَقَبَةِ صَاحِبِهِ غُلًّا ، — وَهَذَا ضَرْبٌ مِنَ الِاحْتِجَاجِ الْمَخْلُوطِ بِالِاعْتِذَارِ — .

ثُمَّ اعْلَمْ عَلَّمَكَ اللهُ الْخَيْرَ أَنَّ هَذِهِ الْكُتُبَ حَوَتْ مِنْ أَصْنَافِ الْعِلْمِ سِرَّهُ وَعَلَانِيَتَهُ ، فَأَمَّا مَا كَانَ سِرًّا فَلَمْ أَجِدْ لَهُ مَنْ يَتَحَلَّى بِحَقِيقَتِهِ رَاغِبًا ، وَأَمَّا مَا كَانَ عَلَانِيَةً فَلَمْ أُصِبْ مَنْ يَحْرِصُ عَلَيْهِ طَالِبًا ، عَلَى أَنِّى جَمَعْتُ أَكْثَرَهَا لِلنَّاسِ وَلِطَلَبِ الْمَثَالَةِ مِنْهُمْ وَلِعَقْدِ الرِّيَاسَةِ بَيْنَهُمْ وَلِمَدِّ الْجَاهِ عِنْدَهُمْ فَحُرِمْتُ ذَلِكَ كُلَّهُ ، — وَلَا شَكَّ فِى حُسْنِ مَا اخْتَارَهُ اللهُ لِى وَنَاطَهُ بِنَاصِيَتِى ، وَرَبَطَهُ بِأَمْرِى — ،

(١) أى تحير (٢) من ثنى الشىء : رد بعضه على بعض

وَكَرِهْتُ مَعَ هَذَا وَغَيْرِهِ أَنْ تَكُونَ حُجَّةً عَلَيَّ لَا لِي، وَمِمَّا شَحَذَ الْعَزْمَ عَلَى ذَلِكَ وَرَفَعَ الْحِجَابَ عَنْهُ، أَنِّى فَقَدْتُ وَلَدًا نَجِيبًا، وَصَدِيقًا حَبِيبًا، وَصَاحِبًا قَرِيبًا، وَتَابِعًا أَدِيبًا، وَرَئِيسًا مُنِيبًا[1]، فَشَقَّ عَلَيَّ أَنْ أَدَعَهَا لِقَوْمٍ يَتَلَاعَبُونَ بِهَا، وَيُدَنِّسُونَ عِرْضِي إِذَا نَظَرُوا فِيهَا، وَيَشْمَتُونَ[2] بِسَهْوِي وَغَلَطِي إِذَا تَصَفَّحُوهَا، وَيَتَرَاءَوْنَ نَقْصِي وَعَيْبِي مِنْ أَجْلِهَا، فَإِنْ قُلْتَ وَلِمَ تَسِمُهُمْ بِسُوءِ الظَّنِّ، وَتَقْرَعُ جَمَاعَتَهُمْ بِهَذَا الْعَيْبِ ؟ فَجَوَابِي لَكَ أَنَّ عِيَانِي مِنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ هُوَ الَّذِي يُحَقِّقُ ظَنِّي بِهِمْ بَعْدَ الْمَمَاتِ، وَكَيْفَ أَتْرُكُهَا لِأُنَاسٍ جَاوَرْتُهُمْ عِشْرِينَ سَنَةً فَمَا صَحَّ لِي مِنْ أَحَدِهِمْ وِدَادٌ ؟ وَلَا ظَهَرَ لِي مِنْ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ حِفَاظٌ، وَلَقَدِ اضْطُرِرْتُ بَيْنَهُمْ بَعْدَ الشُّهْرَةِ وَالْمَعْرِفَةِ فِي أَوْقَاتٍ كَثِيرَةٍ إِلَى أَكْلِ الْخُضَرِ فِي الصَّحْرَاءِ، وَإِلَى التَّكَفُّفِ الْفَاضِحِ عِنْدَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ، وَإِلَى بَيْعِ الدِّينِ وَالْمُرُوءَةِ، وَإِلَى تَعَاطِي الرِّيَاءِ بِالسُّمْعَةِ وَالنِّفَاقِ، وَإِلَى مَا لَا يَحْسُنُ بِالْحُرِّ أَنْ يَرْسُمَهُ بِالْقَلَمِ، وَيَطْرَحَ فِي قَلْبِ صَاحِبِهِ

(١) يكنى بذلك عن أن المستحقين للبقيا على الكتب لا وجود لهم « عبد الخالق »

(٢) كانت هذه الكلمة فى الأصل : « يشتمون ».

الْأَلَمَ ، وَأَحْوَالُ الزَّمَانِ بَادِيَةٌ لِعَيْنِكَ ، بَارِزَةٌ بَيْنَ مَسَائِكَ وَصَبَاحِكَ ، وَلَيْسَ مَا قُلْتُهُ بِخَافٍ عَلَيْكَ مَعَ مَعْرِفَتِكَ وَفِطْنَتِكَ ، وَشِدَّةِ تَتَبُّعِكَ وَتَفَرُّغِكَ ، وَمَا كَانَ يَجِبُ أَنْ تَرْتَابَ فِي صَوَابِ مَا فَعَلْتُهُ وَأَتَيْتُهُ بِمَا قَدَّمْتُهُ وَوَصَفْتُهُ ، وَبِمَا أَمْسَكْتُ عَنْهُ وَطَوَيْتُهُ إِمَّا هَرَبًا مِنَ التَّطْوِيلِ ، وَإِمَّا خَوْفًا مِنَ الْقَالِ وَالْقِيلِ . وَبَعْدُ فَقَدْ أَصْبَحْتُ هَامَةَ الْيَوْمِ أَوْ غَدٍ فَإِنِّى فِى عَشْرِ التِّسْعِينَ ، وَهَلْ لِى بَعْدَ الْكَبْرَةِ وَالْعَجْزِ أَمَلٌ فِى حَيَاةٍ لَذِيذَةٍ ؟ أَوْ رَجَاءٌ لِحَالٍ جَدِيدَةٍ ، أَلَسْتُ مِنْ زُمْرَةِ مَنْ قَالَ الْقَائِلُ فِيهِمْ :

نَرُوحُ وَنَغْدُو كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ
وَعَمَّا قَلِيلٍ لَا نَرُوحُ وَلَا نَغْدُو

وَكَمَا قَالَ الْآخَرُ :

تَفَوَّقْتُ دَرَّاتِ الصِّبَا فِى ظِلَالِهِ
إِلَى أَنْ أَتَانِى بِالْفِطَامِ مَشِيبُ

وَهَذَا الْبَيْتُ لِلْوَرْدِ الْجَعْدِىِّ وَتَمَامُهُ يَضِيقُ عَنْهُ هَذَا الْمَكَانُ ، وَاللهِ يَا سَيِّدِى لَوْ لَمْ أَتَّعِظْ إِلَّا بِمَنْ فَقَدْتُهُ مِنَ الْإِخْوَانِ وَالْأَخْدَانِ فِى هَذَا الصُّقْعِ مِنَ الْغُرَبَاءِ وَالْأُدَبَاءِ وَالْأَحِبَّاءِ

لكفى ، فكيف بمن كانت العين تقر بهم ، والنفس تستنير بقربهم ، فقدتهم بالعراق والحجاز والجبل والرى ، وما والى هذه المواضع ، وتواتر إلى نعيهم ، واستدت الواعية[1] بهم ، فهل أنا إلا من عنصرهم ؟ وهل لى محيد عن مصيرهم ؟ أسأل الله تعالى رب الأولين أن يجعل اعترافى بما أعرفه موصولا بنزوعى عما أقترفه ، إنه قريب مجيب .

وبعد ، فلى فى إحراق هذه الكتب أسوة بأئمة يقتدى بهم ، ويؤخذ بهديهم ، ويعشى إلى نارهم ، منهم : أبو عمرو بن العلاء ، وكان من كبار العلماء مع زهد ظاهر وورع معروف ، دفن كتبه فى بطن الأرض فلم يوجد لها أثر .

وهذا داود الطائى ، وكان من خيار عباد الله زهداً وفقهاً وعبادة ، ويقال له تاج الأمة ، طرح كتبه فى البحر وقال يناجيها : نعم الدليل كنت ، والوقوف مع الدليل بعد الوصول عناء وذهول ، وبلاء وخمول .

وهذا يوسف بن أسباط : حمل كتبه إلى غار فى

(١) الواعية : اسم الصراخ

جَبَلٍ وَطَرَحَهُ فِيهِ وَسَدَّ بَابَهُ، فَلَمَّا عُوتِبَ عَلَى ذَلِكَ قَالَ: دَلَّنَا الْعِلْمُ فِي الْأَوَّلِ ثُمَّ كَادَ يُضِلُّنَا فِي الثَّانِي، فَهَجَرْنَاهُ لِوَجْهِ مَنْ وَصَلْنَاهُ، وَكَرِهْنَاهُ مِنْ أَجْلِ مَا أَرَدْنَاهُ.

وَهَذَا أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ جَمَعَ كُتُبَهُ فِي تَنُّورٍ وَسَجَرَهَا(١) بِالنَّارِ ثُمَّ قَالَ: وَاللهِ مَا أَحْرَقْتُكِ حَتَّى كِدْتُ أَحْتَرِقُ بِكِ.

وَهَذَا سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: مَزَّقَ أَلْفَ جُزْءٍ وَطَيَّرَهَا فِي الرِّيحِ وَقَالَ: لَيْتَ يَدِي قُطِعَتْ مِنْ هَا هُنَا بَلْ مِنْ هَا هُنَا وَلَمْ أَكْتُبْ حَرْفًا.

وَهَذَا شَيْخُنَا أَبُو سَعِيدٍ السِّيرَافِيُّ سَيِّدُ الْعُلَمَاءِ قَالَ لِوَلَدِهِ مُحَمَّدٍ: قَدْ تَرَكْتُ لَكَ هَذِهِ الْكُتُبَ تَكْتَسِبُ بِهَا خَيْرَ الْأَجَلِ، فَإِذَا رَأَيْتَهَا تَخُونُكَ فَاجْعَلْهَا طُعْمَةً لِلنَّارِ.

وَمَاذَا أَقُولُ وَسَامِعِي يُصَدِّقُ أَنَّ زَمَانًا أَحْوَجَ مِثْلِي إِلَى مَا بَلَغَكَ، لَزَمَانٌ تَدْمَعُ لَهُ الْعَيْنُ حُزْنًا وَأَسًى، وَيَتَقَطَّعُ عَلَيْهِ الْقَلْبُ غَيْظًا وَجَوًى وَضَنًى وَشَجًى، وَمَا يَصْنَعُ بِمَا كَانَ وَحَدَثَ وَبَانَ، إِنِ احْتَجْتُ إِلَى الْعِلْمِ فِي خَاصَّةِ نَفْسِي فَقَلِيلٌ، وَاللهُ تَعَالَى شَافٍ كَافٍ، وَإِنِ احْتَجْتُ إِلَيْهِ لِلنَّاسِ فَفِي الصَّدْرِ مِنْهُ

(١) سجرها: أحماها في النار

مَا يَمْلأُ القِرْطَاسَ بَعْدَ القِرْطَاسِ، إِلَى أَنْ تَفْنَى الأَنْفَاسُ بَعْدَ الأَنْفَاسِ، «ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ». فَلِمَ تُعَنِّي عَيْنِي أَيَّدَكَ اللهُ بَعْدَ هَذَا بِالْحِبْرِ وَالْوَرَقِ وَالْجِلْدِ وَالْقِرَاءَةِ وَالْمُقَابَلَةِ وَالتَّصْحِيحِ وَبِالسَّوَادِ وَالْبَيَاضِ، وَهَلْ أَدْرَكَ السَّلَفُ الصَّالِحُ فِي الدِّينِ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى إِلَّا بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَإِخْلَاصِ الْمُعْتَقَدِ وَالزُّهْدِ الْغَالِبِ فِي كُلِّ مَارَاقَ مِنَ الدُّنْيَا وَخَدَعَ بِالزِّبْرِجِ، وَهَوَى بِصَاحِبِهِ إِلَى الْهُبُوطِ؟ وَهَلْ وَصَلَ الْحُكَمَاءُ الْقُدَمَاءُ إِلَى السَّعَادَةِ الْعُظْمَى إِلَّا بِالاقْتِصَادِ فِي السَّعْيِ، وَإِلَّا بِالرِّضَا بِالْمَيْسُورِ، وَإِلَّا بِبَذْلِ مَا فَضَلَ عَنِ الْحَاجَةِ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ؟ فَأَيْنَ يُذْهَبُ بِنَا وَعَلَى أَيِّ بَابٍ نَحُطُّ رِحَالَنَا؟؟ وَهَلْ جَامِعُ الْكُتُبِ إِلَّا كَجَامِعِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ؟ وَهَلِ الْمَنْهُومُ بِهَا إِلَّا كَالْحَرِيصِ الْجَشِعِ عَلَيْهِمَا؟ وَهَلِ الْمُغْرَمُ بِحُبِّهَا إِلَّا كَمُكَاثِرِهِمَا؟ هَيْهَاتَ، الرَّحِيلُ وَاللهُ قَرِيبٌ، وَالثَّوَاءُ(١) قَلِيلٌ، وَالْمَضْجَعُ مُقِضٌّ وَالْمُقَامُ مُمِضٌّ، وَالطَّرِيقُ مَخُوفٌ وَالْمُعِينُ ضَعِيفٌ، وَالاغْتِرَارُ غَالِبٌ، وَاللهُ مِنْ وَرَاءِ هَذَا كُلِّهِ طَالِبٌ، نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى رَحْمَةً

---

(١) أي الاقامة

يُظِلُّنا جناحها، وَيُسهِّلُ علينا فى هذهِ العاجلةِ غُدُوَّها ورواحها، فالويلُ كُلُّ الويلِ لِمَنْ بَعُدَ عَنْ رَحمتِهِ بَعْدَ أَنْ حصلَ تحتَ قَدَرِه، فهذا هذا، ثُمَّ إِنِّى - أيدكَ اللهُ - ما أَرَدْتُ أَنْ أُجيبكَ عَنْ كِتابِكَ لِطُولِ جفائِكَ، وَشِدَّةِ التوائِكَ عَمَّنْ لَمْ يَزَلْ عَلى رأيِكَ مُجْتهِداً وَفى مَحبَّتِكَ عَلَى قُرْبِكَ وَنأيِكَ، مَعَ مَا أَجِدُهُ مِنَ انْكِسَارِ النَّشاطِ وَانْطِواءِ الانْبِساطِ لِتَعاوُدِ العِلَلِ عَلَىَّ وَتَخاذُلِ الأَعْضاءِ مِنِّى، فَقَدْ كَلَّ البَصَرُ وَانْعَقَدَ اللِّسانُ وَجَمَدَ الخاطِرُ وَذَهَبَ البَيانُ، وَمَلَكَ الوَسْواسُ وَغَلَبَ اليأْسُ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ، وَلَكِنِّى حَرَسْتُ مِنْكَ مَا أَضَعْتَهُ مِنِّى، وَوَفَّيتُ لَكَ بِمَا لَمْ تَفِ بِهِ لِى، وَيَعِزُّ عَلَىَّ أَنْ يَكُونَ لِىَ الفَضْلُ عَلَيْكَ، أَوْ أُحْرِزَ المَزِيَّةَ دُونَكَ، وَمَا حَدَانِى عَلَى مُكاتَبَتِكَ إِلَّا مَا أَتَمَثَّلُهُ مِنْ تَشَوُّقِكَ إِلَىَّ وَتَحَرُّقِكَ عَلَىَّ، وَأَنَّ الحَدِيثَ الَّذِى بَلَغَكَ قَدْ بَدَّدَ فِكْرَكَ، وَأَعْظَمَ تَعَجُّبَكَ، وَحَشَدَ عَلَيْكَ جَزَعَكَ، وَالأَوَّلُ يَقُولُ:

وَقَدْ يَجْزَعُ المَرْءُ الجَلِيدُ وَيَبْتَلِى
عَزِيمَةَ رَأْىِ المَرْءِ نَائِبَةُ الدَّهْرِ

تُعَاوِدُهُ الأَيَّامُ فِيمَا يَنُوبُهُ

فَيَقْوَى عَلَى أَمْرٍ وَيَضْعُفُ عَنْ أَمْرِ

عَلَى أَنِّى لَوْ عَلِمْتَ فِى أَىِّ حَالٍ غَلَبَ عَلَىَّ مَافَعَلْتُهُ، وَعِنْدَ أَىِّ مَرَضٍ وَعَلَى أَيَّةِ عُسْرَةٍ وَفَاقَةٍ لَعَرَفْتَ مِنْ عُذْرِى أَضْعَافَ مَا أَبْدَيْتُهُ، وَاحْتَجَجْتَ لِى بِأَكْثَرَ مِمَّا نَشَرْتُهُ وَطَوَيْتُهُ، وَإِذَا أَنْعَمْتَ النَّظَرَ تَيَقَّنْتَ أَنَّ لِلَّهِ جَلَّ وَعَزَّ فِى خَلْقِهِ أَحْكَامًا لَا يُعَازُّ[1] عَلَيْهَا وَلَا يُغَالَبُ فِيهَا، لِأَنَّهُ لَا يُبْلَغُ كُنْهُهَا وَلَا يُنَالُ غَيْبُهَا، وَلَا يُعْرَفُ قَابُهَا[2] وَلَا يُقْرَعُ بَابُهَا، وَهُوَ تَعَالَى أَمْلَكُ لِنَوَاصِينَا، وَأَطْلَعُ عَلَى أَدَانِينَا وَأَقَاصِينَا، لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، وَبِيَدِهِ الْكَسْرُ وَالْجَبْرُ، وَعَلَيْنَا الصَّمْتُ وَالصَّبْرُ إِلَى أَنْ يُوَارِيَنَا اللَّحْدُ وَالْقَبْرُ، وَالسَّلَامُ. إِنْ سَرَّكَ جَعَلَنِى اللهُ فِدَاكَ أَنْ تُوَاصِلَنِى بِخَبَرِكَ، وَتُعَرِّفَنِى مَقَرَّ خِطَابِى هَذَا مِنْ نَفْسِكَ فَافْعَلْ، فَإِنِّى لَا أَدَعُ جَوَابَكَ إِلَى أَنْ يَقْضِىَ اللهُ تَعَالَى تَلَاقِيًا يَسُرُّ النَّفْسَ، وَيُذَكِّرُ حَدِيثَنَا بِالْأَمْسِ، أَوْ بِفِرَاقٍ نَصِيرُ بِهِ إِلَى الرَّمْسِ، وَنَفْقِدُ مَعَهُ رُؤْيَةَ هَذِهِ الشَّمْسِ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ خَاصًّا بِحَقِّ الصَّفَاءِ الَّذِى بَيْنِى وَبَيْنَكَ، وَعَلَى جَمِيعِ إِخْوَانِكَ

---

(١) يعاز معناها ما بعدها (٢) ألقاب : القدر « عبد الخالق »

عَامًّا بِحَقِّ الْوَفَاءِ الَّذِي يَجِبُ عَلَيَّ وَعَلَيْكَ، وَالسَّلَامُ.

وَكُتِبَ هَذَا الْكِتَابُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةَ أَرْبَعِمِائَةٍ.

قَالَ أَبُوحَيَّانَ فِي كِتَابِ أَخْلَاقِ الْوَزِيرَيْنِ مِنْ تَصْنِيفِهِ: طَلَعَ ابْنُ عَبَّادٍ عَلَيَّ يَوْمًا فِي دَارِهِ وَأَنَا قَاعِدٌ فِي كِسْرِ إِيوَانٍ أَكْتُبُ شَيْئًا قَدْ كَانَ كَأَدَنِي (١) بِهِ، فَلَمَّا أَبْصَرْتُهُ قُمْتُ قَائِمًا فَصَاحَ بِحَلْقٍ مَشْقُوقٍ: اُقْعُدْ فَالْوَرَّاقُونَ أَخَسُّ مِنْ أَنْ يَقُومُوا لَنَا، فَهَمَمْتُ بِكَلَامٍ فَقَالَ لِي الزَّعْفَرَانِيُّ الشَّاعِرُ: اُسْكُتْ فَالرَّجُلُ رَقِيعٌ، فَغَلَبَ عَلَيَّ الضَّحِكُ وَاسْتَحَالَ الْغَيْظُ تَعَجُّبًا مِنْ خِفَّتِهِ وَسُخْفِهِ، لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ قَالَ هَذَا وَقَدْ لَوَى شِدْقَهُ، وَشَنَّجَ أَنْفَهُ وَأَمَالَ عُنُقَهُ، وَاعْتَرَضَ فِي انْتِصَابِهِ وَانْتَصَبَ فِي اعْتِرَاضِهِ، وَخَرَجَ فِي تَفَكُّكٍ مَجْنُونٍ قَدْ أُفْلِتَ مِنْ دَيْرِ جُنُونٍ، وَالْوَصْفُ لَا يَأْتِي عَلَى كُنْهِ هَذِهِ الْحَالِ، لِأَنَّ حَقَائِقَهَا لَا تُدْرَكُ إِلَّا بِاللَّحْظِ، وَلَا يُؤْتَى عَلَيْهَا بِاللَّفْظِ، فَهَذَا كُلُّهُ مِنْ شَمَائِلِ الرُّؤَسَاءِ وَكَلَامِ الْكُبَرَاءِ، وَسِيرَةِ أَهْلِ الْعَقْلِ وَالرَّزَانَةِ لَا وَاللَّهِ، وَتَرَبًا (٢) لِمَنْ يَقُولُ غَيْرَ هَذَا.

وَحَدَّثَ أَبُوحَيَّانَ قَالَ: قَالَ الصَّاحِبُ يَوْمًا فَعَلٌ وَأَفْعَالٌ

(١) كأده بالشيء: كلفه به (٢) الترب: الخسران

قَلِيلٌ ، وَزَعَمَ النَّحْوِيُّونَ أَنَّهُ مَاجَاءَ إِلَّا زَنْدٌ وَأَزْنَادٌ ، وَفَرْخٌ وَأَفْرَاخٌ ، وَفَرْدٌ وَأَفْرَادٌ . فَقُلْتُ لَهُ : أَنَا أَحفظُ ثَلَاثِينَ حَرْفاً كُلُّهَا فَعلٌ وَأَفعَالٌ ، فَقَالَ : هَاتِ يَامُدَّعِى ، فَسَرَدْتُ الْحُرُوفَ وَدَلَلْتُ عَلَى مَوَاضِعِهَا مِنَ الْكُتُبِ ثُمَّ قُلْتُ : لَيْسَ لِلنَّحْوِىِّ أَنْ يَلْزَمَ مِثْلَ هَذَا الْحُكْمِ إِلَّا بَعْدَ التَبَحُّرِ وَالسَّمَاعِ الْوَاسِعِ ، وَلَيْسَ لِلتَّقْلِيدِ وَجْهٌ إِذَا كَانَتِ الرِّوَايَةُ شَائِعَةً وَالْقِيَاسُ مُطَّرِداً وَهٰذَا كَقَوْلِهِمْ : فَعِيلٌ عَلَى عَشْرَةِ أَوْجُهٍ ، وَقَدْ وَجَدْتُهُ أَنَا يَزِيدُ عَلَى أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ وَجْهاً وَمَا انْتَهَيْتُ فِى التَّتَبُّعِ إِلَى أَقْصَاهُ . فَقَالَ : خُرُوجُكَ مِنْ دَعْوَاكَ فِى فَعْلٍ يَدُلُّنَا عَلَى قِيَامِكَ فِى فَعِيلٍ وَلَكِنْ لَا نَأْذَنُ لَكَ فِى اقْتِصَاصِكَ [1] ، وَلَا نَهَبُ آذَانَنَا لِكَلَامِكَ ، وَلَمْ يَفِ مَا أَتَيْتَ بِهِ بِجُرْأَتِكَ فِى مَجْلِسِنَا ، وَتَبَسُّطِكَ فِى حَضْرَتِنَا ، فَهٰذَا كَمَا تَرَى .

قَالَ أَبُو حَيَّانَ : وَأَمَّا حَدِيثِى مَعَهُ يَعْنِى مَعَ ابْنِ عَبَّادٍ ، فَإِنِّى حِينَ وَصَلْتُ إِلَيْهِ قَالَ لِى : أَبُو مَنْ ؟ قُلْتُ أَبُو حَيَّانَ . فَقَالَ : بَلَغَنِى أَنَّكَ تَتَأَدَّبُ ، فَقُلْتُ : تَأَدُّبَ أَهْلِ الزَّمَانِ . فَقَالَ : أَبُو حَيَّانَ يَنْصَرِفُ أَوْ لَا يَنْصَرِفُ ؟ قُلْتُ : إِنْ قَبِلَهُ

(١) أى ما تقصه علينا

مَوْلَانَا لَا يَنْصَرِفُ ، فَلَمَّا سَمِعَ هَذَا تَنَمَّرَ وَكَأَنَّهُ لَمْ يُعْجِبْهُ ، وَأَقْبَلَ عَلَى وَاحِدٍ إِلَى جَانِبِهِ وَقَالَ لَهُ بِالْفَارِسِيَّةِ سَفَهاً عَلَى مَا قِيلَ لِي ثُمَّ قَالَ : اُلْزَمْ دَارَنَا وَانْسَخْ هَذَا الْكِتَابَ . فَقُلْتُ : أَنَا سَامِعٌ مُطِيعٌ ، ثُمَّ إِنِّي قُلْتُ لِبَعْضِ النَّاسِ فِي الدَّارِ مُسْتَرْسِلًا : إِنَّمَا تَوَجَّهْتُ مِنَ الْعِرَاقِ إِلَى هَذَا الْبَابِ وَزَاحَمْتُ مُنْتَجِعِي هَذَا الرَّبِيعِ لِأَتَخَلَّصَ مِنْ حِرْفَةِ الشُّؤْمِ ، فَإِنَّ الْوِرَاقَةَ لَمْ تَكُنْ بِبَغْدَادَ كَاسِدَةً ، فَنَمَى إِلَيْهِ هَذَا أَوْ بَعْضُهُ أَوْ عَلَى غَيْرِ وَجْهِهِ فَزَادَهُ تَنَكُّراً .

قَالَ أَبُو حَيَّانَ : وَقَالَ لِي ابْنُ عَبَّادٍ يَوْماً يَا أَبَا حَيَّانَ : مَنْ كَنَّاكَ بِأَبِي حَيَّانَ ؟ قُلْتُ : أَجَلُّ النَّاسِ فِي زَمَانِهِ ، وَأَكْرَمُهُمْ فِي وَقْتِهِ ، قَالَ : وَمَنْ هُوَ وَيْلَكَ ؟ قُلْتُ أَنْتَ ، قَالَ : وَمَتَى كَانَ ذَلِكَ ؟ قُلْتُ : حِينَ قُلْتَ يَا أَبَا حَيَّانَ مَنْ كَنَّاكَ أَبَا حَيَّانَ ، فَأَضْرَبَ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ وَأَخَذَ فِي غَيْرِهِ عَلَى كَرَاهَةٍ ظَهَرَتْ عَلَيْهِ .

قَالَ : وَقَالَ لِي يَوْماً آخَرَ — وَهُوَ قَائِمٌ فِي صَحْنِ دَارِهِ وَالْجَمَاعَةُ قِيَامٌ مِنْهُمُ الزَّعْفَرَانِيُّ وَكَانَ شَيْخاً كَثِيرَ الْفَضْلِ جَيِّدَ الشِّعْرِ مُمْتِعَ الْحَدِيثِ ، وَالتَّمِيمِيُّ الْمَعْرُوفُ بِسَطْلٍ وَكَانَ

مِنْ مِصْرَ، وَالْأَقْطَعُ وَصَالِحٌ الْوَرَّاقُ وَابْنُ ثَابِتٍ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْكُتَّابِ وَالنُّدَمَاءِ — : يَا أَبَا حَيَّانَ : هَلْ تَعْرِفُ فِيمَنْ تَقَدَّمَ مَنْ يُكْنَى بِهَذِهِ الْكُنْيَةِ ؟ قُلْتُ نَعَمْ : مِنْ أَقْرَبِ ذَلِكَ أَبُو حَيَّانَ الدَّارِمِيُّ .

حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَاضِي الدَّقَّاقُ قَالَ : حَدَّثَنَا ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا ابْنُ نَاصِحٍ قَالَ : دَخَلَ أَبُو الْهُذَيْلِ الْعَلَّافُ عَلَى الْوَاثِقِ فَقَالَ لَهُ الْوَاثِقُ : لِمَنْ تَعْرِفُ هَذَا الشِّعْرَ ؟

سَبَاكَ (١) مِنْ هَاشِمٍ سَلِيلُ ... لَيْسَ إِلَى وَصْلِهِ سَبِيلُ
مَنْ (٢) يَتَعَاطَ الصِّفَاتِ فِيهِ ... فَالْقَوْلُ فِي وَصْفِهِ فُضُولُ
لِلْحُسْنِ فِي وَجْهِهِ هِلَالٌ ... لِأَعْيُنِ الْخَلْقِ لَا يَزُولُ
وَطُرَّةٌ مَا يَزَالُ فِيهَا ... لِنُورِ بَدْرِ الدُّجَى مَقِيلُ
مَا اخْتَالَ فِي صَحْنِ قَصْرِ أَوْسٍ ... إِلَّا لِيُسْجَى (٣) لَهُ قَتِيلُ
فَإِنْ يَقِفْ فَالْعُيُونُ نُصْبٌ ... وَإِنْ تَوَلَّى فَهُنَّ حُولُ (٤)

(١) يريد أن الذى تيم قلبك من سلالة هاشم (٢) أى من يحاول وصفه فلن يصل ، فان القول فى هذا فضول (٣) أى ينطى ، فهو ما اختال فى الناس إلا وكانوا صرعاه . (٤) حول جمع أحول ، والمراد أنه قبلة النظر متى وقف ، فان تولى تحولت العيون .

« عبد الخالق »

فَقَالَ أَبُو الْهُذَيْلِ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هَذَا لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ يُعْرَفُ بِأَبِي حَيَّانَ الدَّارِمِيِّ، وَكَانَ يَقُولُ بِإِمَامَةِ الْمَفْضُولِ، وَلَهُ مِنْ كَلِمَةٍ يَقُولُ فِيهَا :

أُفَضِّلُهُ وَاللهُ قَدَّمَهُ عَلَى صَحَابَتِهِ بَعْدَ النَّبِيِّ الْمُكَرَّمِ
بِلَا بِغْضَةٍ وَاللهِ مِنِّي لِغَيْرِهِ وَلَكِنَّهُ أَوْلَاهُمُ بِالتَّقَدُّمِ

وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِنَا قَالُوا : أَنْشَدَ أَبُو قِلَابَةَ عَبْدُ اللهِ ابْنُ مُحَمَّدٍ الرَّقَاشِيُّ لِأَبِي حَيَّانَ الْبَصْرِيِّ :

يَاصَاحِبِيَّ دَعَا الْمَلَامَ وَأَقْصِرَا
تَرْكُ الْهَوَى يَاصَاحِبَيَّ خَسَارَهْ
كَمْ لُمْتُ قَلْبِي كَيْ يُفِيقَ فَقَالَ لِي
لَجَّتْ[1] يَمِينٌ مَالَهَا كَفَّارَهْ
أَلَّا أُفِيقَ وَلَا أُفَتِّرَ[2] لَحْظَةً
إِنْ أَنْتَ لَمْ تَعْشَقْ فَأَنْتَ حِجَارَهْ
أَلْحُبُّ أَوَّلُ مَايَكُونُ بِنَظْرَةٍ
وَكَذَا الْحَرِيقُ بَدَاؤُهُ بِشَرَارَهْ

(١) لجت يمين : تمادى فيها ولم يكفرها زاعما أنه صادق (٢) فتر : سكن بعد حدة ، ولان بعد شدة

يَامَنْ أُحِبُّ وَلَا أُسَمِّى بِاسْمِهَا إِيَّاكِ أَعْنِى فَاسْمَعِى يَاجَارَهْ

فَلَمَّا وَفَّيْتُ الشِّعْرَ وَرَوَيْتُ الْإِسْنَادَ وَرِيقِى (١) بَلِيلٌ وَلِسَانِى طَلْقٌ وَوَجْهِى مُتَهَلِّلٌ ، وَقَدْ تَكَلَّفْتُ هَذَا وَأَنَا فِى بَقِيَّةٍ مِنْ غَرْبِ (٢) الشَّبَابِ وَبَعْضِ رَيْعَانِهِ ، وَمَلَأْتُ الدَّارَ صِيَاحاً بِالرِّوَايَةِ وَالْقَافِيَةِ ، فَحِينَ انْتَهَيْتُ أَنْكَرْتُ (٣) طَرْفَهُ ، وَعَلِمْتُ سُوءَ مَوْقِعِ مَا رَوَيْتُ عِنْدَهُ ، قَالَ : وَمَنْ تَعْرِفُ أَيْضاً ؟ قُلْتُ ابْنَ الْجِعَابِىِّ الْحَافِظَ ، يُكْنَى بِأَبِى حَيَّانَ ، رَجُلٌ صِدْقٌ وَهُوَ يَرْوِى عَنِ التَّابِعِينَ . قَالَ : وَمَنْ تَعْرِفُ أَيْضاً ؟ قُلْتُ : رَوَى الصُّولِىُّ فِيمَا حَدَّثَنَا عَنْهُ الْمَرْزُبَانِىُّ أَنَّ مُعَاوِيَةَ لَمَّا احْتُضِرَ أَنْشَدَ يَزِيدُ عِنْدَ رَأْسِهِ مُتَمَثِّلاً :

لَوْ أَنَّ حَيًّا نَجَا لَفَاتَ أَبُو حَيَّانَ لَاعَاجِزٌ وَلَا وَكِلُ (٤)
الْحُوَّلُ الْقُلَّبُ الْأَرِيبُ (٥) وَهَلْ يَدْفَعُ صَرْفَ الْمَنِيَّةِ الْحِيَلُ ؟

قَالَ الصُّولِىُّ : وَهَذَا كَانَ مِنَ الْمُعَمَّرِينَ الْمُغَفَّلِينَ ، وَانْتَهَى الْحَدِيثُ مِنْ غَيْرِ هَشَاشَةٍ وَلَا هِزَّةٍ وَلَا أَرْيَحِيَّةٍ ، بَلْ عَلَى

---

(١) ريقى بليل : ندى (٢) غرب الشباب : حدته ونشاطه . (٣) أى رأيت فى نظره مالا يروق الناظر إليه (٤) الوكل : البليد الجبان العاجز ، وفاعل فات : أبو حيان ، وعاجز خبر لمحذوف (٥) الحول : ذو القوة والقدرة على التصرف ، والأريب : البصير بالأمور

أ كُفهِرَارِ وَجْهٍ وَنُبُوِّ طَرْفٍ وَقِلَّةِ تَقَبُّلٍ ، وَجَرَتْ أَشْيَاءُ أُخَرُ كَانَ عُقْبَاهَا أَنِّى فَارَقْتُ بَابَهُ سَنَةَ سَبْعِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ رَاجِعاً إِلَى مَدِينَةِ السَّلَامِ بِغَيْرِ زَادٍ وَلَا رَاحِلَةٍ ، وَلَمْ يُعْطِنِى فِى مُدَّةِ ثَلَاثِ سِنِينَ دِرْهَماً وَاحِداً وَلَا مَا قِيمَتُهُ دِرْهَمٌ وَاحِدٌ ، أُحْمِلْ هَذَا عَلَى مَا أَرَدْتَ ، وَلَمَّا نَالَ مِنِّى هَذَا الْحِرْمَانُ الَّذِى قَصَدَنِى بِهِ وَأَحْفَظَنِى عَلَيْهِ ، وَجَعَلَنِى مِنْ جَمِيعِ غَاشِيَتِهِ فَرْداً أَخَذْتُ أُمْلِى فِى ذَلِكَ بِصِدْقِ الْقَوْلِ عَنْهُ وَسُوءِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ ، وَالْبَادِىءُ أَظْلَمُ ، وَلِلْأُمُورِ أَسْبَابٌ ، وَالْأَسْبَابُ أَسْرَارٌ ، وَالْغَيْبُ لَا يُطَّلَعُ عَلَيْهِ وَلَا قَارِعَ لِبَابِهِ .

قَالَ أَبُو حَيَّانَ : قَالَ لِى الصَّاحِبُ يَوْماً — وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ رَجُلٍ أَعْطَاهُ شَيْئاً فَتَلَكَّأَ فِى قَبُولِهِ — : وَلَا بُدَّ مِنْ شَىْءٍ يُعِينُ عَلَى الدَّهْرِ ثُمَّ قَالَ : سَأَلْتُ جَمَاعَةً عَنْ صَدْرِ هَذَا الْبَيْتِ فَمَا كَانَ عِنْدَهُمْ ذَلِكَ . فَقُلْتُ : أَنَا أَحْفَظُ ذَاكَ ، فَنَظَرَ بِغَضَبٍ فَقَالَ : مَا هُوَ ؟ قُلْتُ : نَسِيتُ ، فَقَالَ : مَا أَسْرَعَ ذِكْرَكَ مِنْ نِسْيَانِكَ ! قُلْتُ : ذَكَرْتُهُ وَالْحَالُ سَلِيمَةٌ ، فَلَمَّا اسْتَحَالَتْ عَنِ السَّلَامَةِ نَسِيتُ . قَالَ : وَمَا حَيْلُولَتُهَا ؟ قُلْتُ : نَظَرَ الصَّاحِبُ بِغَضَبٍ فَوَجَبَ فِى حُسْنِ الْأَدَبِ أَلَّا يُقَالَ مَا يُثِيرُ الْغَضَبَ . قَالَ : وَمَنْ تَكُونُ

حَتَّى تغضبَ عليكَ؟ دَعْ هَذَا وهَاتِ، قُلْتُ قَوْلَ الشَّاعِرِ :

أُلامُ عَلَى أَخْذِ القَلِيلِ وَإِنَّمَا أُصَادِفُ أَقواماً أَقلَّ مِنَ الذَّرِّ

فَإِنْ أَنَا لَمْ آخُذْ قَلِيلًا حُرِمْتُهُ

وَلَا بُدَّ مِنْ شَيْءٍ يُعِينُ عَلَى الدَّهْرِ

فَسَكَتَ . قَالَ أَبُو حَيَّانَ عِنْدَ قُرْبِهِ مِنْ فَرَاغِ كِتَابِهِ فِي ثَلْبِ الْوَزِيرَيْنِ وَقَدْ حَكَى عَنِ ابْنِ عَبَّادٍ حِكَايَاتٍ وَأَسْنَدَهَا إِلَى مَنْ أَخْبَرَهُ بِهَا عَنْهُ ثُمَّ قَالَ : فَمَا ذَنبِي أَكْرَمَكَ اللهُ إِذَا سَأَلْتُ عَنْهُ مَشَايِخَ الْوَقْتِ وَأَعْلَامَ الْعَصْرِ؟ فَوَصَفُوهُ بِمَا جَمَعْتُ لَكَ فِي هَذَا الْمَكَانِ، عَلَى أَنِّي قَدْ سَتَرْتُ شَيْئاً كَثِيراً مِنْ مَخَازِيهِ إِمَّا هَرَباً مِنَ الْإِطَالَةِ، أَوْ صِيَانَةً لِلْقَلَمِ عَنْ رَسْمِ الْفَوَاحِشِ وَبَثِّ الْفَضَائِحِ، وَذِكْرِ مَا يَسْمُجُ مَسْمُوعُهُ . وَيُكْرَهُ التَّحَدُّثُ بِهِ، هَذَا سِوَى مَا فَاتَنِي مِنْ حَدِيثِهِ فَإِنِّي فَارَقْتُهُ سَنَةَ سَبْعِينَ وَثَلَاثِمائَةٍ . وَمَا ذَنبِي أَنْ ذَكَرْتُ عَنْهُ مَا جَرَّ عَنِيهِ مِنْ مَرَارَةِ الْخَيْبَةِ بَعْدَ الْأَمَلِ، وَحَمَلَنِي عَلَيْهِ مِنَ الْإِخْفَاقِ بَعْدَ الطَّمَعِ، مَعَ الْخِدْمَةِ الطَّوِيلَةِ وَالْوَعْدِ الْمُتَّصِلِ وَالظَّنِّ الْحَسَنِ، حَتَّى كَأَنِّي خُصِصْتُ

بِخَسَاسَتِهِ [1] وَحِذِي، أَوْ وَجَبَ أَنْ أُعَامِلَ بِهِ دُونَ غَيْرِي، قَدَّمَ إِلَيَّ نَجَاحٌ الْخَادِمُ وَكَانَ يَنْظُرُ فِي خِزَانَةِ كُتُبِهِ ثَلَاثِينَ مُجَلَّدَةً مِنْ رَسَائِلِهِ وَقَالَ: يَقُولُ لَكَ مَوْلَانَا: انْسَخْ هَذَا فَإِنَّهُ قَدْ طُلِبَ مِنْهُ بِخُرَاسَانَ. فَقُلْتُ بَعْدَ ارْتِيَاءٍ [2]: هَذَا طَوِيلٌ، وَلَكِنْ لَوْ أَذِنَ لِي لَخَرَّجْتُ مِنْهُ فِقَراً كَالْغُرَرِ، وَشُذُوراً كَالدُّرَرِ، تَدُورُ فِي الْمَجَالِسِ كَالشَّمَّامَاتِ وَالدَّسْتَنْبُويَهَاتِ [3]، لَوْ رُقِيَ بِهَا مَجْنُونٌ لَأَفَاقَ، أَوْ نُفِثَ عَلَى ذِي عَاهَةٍ لَبَرَأَ، لَا تُمَلُّ وَلَا تُسْتَغَثُّ، وَلَا تُعَابُ وَلَا تُسْتَرَكُّ [4]، فَرَفَعَ ذَلِكَ إِلَيْهِ وَأَنَا لَا أَعْلَمُ فَقَالَ: طَعَنَ فِي رَسَائِلِي وَعَابَهَا، وَرَغِبَ عَنْ نَسْخِهَا وَأَزْرَى بِهَا، وَاللهِ لَيُنْكِرَنَّ مِنِّي مَا عَرَفَ، وَلَيَعْرِفَنَّ حَظَّهُ إِذَا انْصَرَفَ، حَتَّى كَأَنِّي طَعَنْتُ فِي الْقُرْآنِ، أَوْ رَمَيْتُ الْكَعْبَةَ بِخِرَقِ الْحَيْضِ، أَوْ عَقَرْتُ نَاقَةَ صَالِحٍ، أَوْ

(١) الخساسة: الضعة والحطة والدناءة (٢) أي بعد تدبر وإمعان

(٣) قال في القاموس. الشمام كشداد: بطيخ كحنظلة صغيرة مخطط بصفرة وخضرة، وفارسيته الدستنبويهات، رائحته باردة طيبة ملينة جالبة للنوم، وهو ملين للبطن، ولعل أبا حيان يريد من ضرب المثل بها الرغبة فيها والتفكه بها

(٤) أي لا تعد ركيكة «عبد الخالق»

سَلَحْتُ فِي بِئْرِ زَمْزَمٍ ، أَوْ قُلْتُ كَانَ النَّظَّامُ مَأْبُونًا ، أَوْ مَاتَ أَبُو هَاشِمٍ فِي بَيْتِ خَمَّارٍ ، أَوْ كَانَ عَبَّادٌ مُعَلِّمَ صِبْيَانٍ . وَمَاذَنْبِي يَاقَوْمُ إِذَا لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَنْسَخَ ثَلاثِينَ مُجَلَّدَةً مِنْ هَذَا الَّذِي يَسْتَحْسِنُ هَذَا الْكَاتِبُ ؟ حَتَّى أَعْذِرَهُ فِي لَوْمِي عَلَى الامْتِنَاعِ ، أَيَنْسَخُ إِنْسَانٌ هَـذَا الْقَدْرَ وَهُوَ يَرْجُو بَعْدَهَا أَنْ يُمَتِّعَهُ اللَّهُ بِبَصَرِهِ ؟ أَوْ يَنْفَعَهُ بِبَدَنِهِ ؟. ثُمَّ مَا ذَنْبِي إِذَا قَالَ لِي : مِنْ أَيْنَ لَكَ هَـذَا الْكَلَامُ الْمُفَوَّفُ (١) الْمَشُوفُ الَّذِي تَـكْتُبُ بِهِ إِلَيَّ فِي الْوَقْتِ بَعْدَ الْوَقْتِ ؟ فَقُلْتُ : وَكَيْفَ لَا يَـكُونُ كَمَا وَصَفَ مَوْلَانَا (٢) ؟ وَأَنَا أَقْطِفُ ثِمَارَ رَسَائِلِهِ ، وَأَسْتَقِي مِنْ قَلِيبِ (٣) عِلْمِهِ ، وَأَشِيمُ بَارِقَةَ أَدَبِهِ ، وَأَرِدُ سَاحِلَ بَحْرِهِ ، وَأَسْتَوْكِفُ (٤) قَطْرَ مُزْنِهِ ، فَيَقُولُ : كَذَبْتَ وَفَجَرْتَ لَا أُمَّ لَكَ ، وَمِنْ أَيْنَ فِي كَلَامِي الْكُدْيَةُ وَالشَّحْذُ وَالتَّضَرُّعُ وَالِاسْتِرْحَامُ ؟ كَلَامِي فِي السَّمَاءِ ، وَكَلَامُكَ فِي السَّمَادِ ، هَذَا — أَيَّدَكَ اللَّهُ — وَإِنْ كَانَ دَلِيلًا عَلَى سُوءِ جَدِّي ، فَإِنَّهُ دَلِيلٌ أَيْضًا عَلَى

---

(١) المفوف الرقيق ، والمشوف : المجلو (٢) لم تكن هذه الكلمة فى الأصل .
(٣) القليب : البئر (٤) أستوكف : أستمطر وأستدعى جريانه

انْخِلَاعِهِ وَخُرْقِهِ ، وَتَسَرُّعِهِ وَلُؤْمِهِ ، وَانْظُرْ كَيْفَ يَسْتَحِيلُ مَعِي عَنْ مَذْهَبِهِ الَّذِي كَانَ هُوَ عِرْقَهُ النَّابِضَ ، وَسُوسَهُ (١) الثَّابِتَ ، وَدَيْدَنَهُ الْمَأْلُوفَ ، وَهَذَا أَجْرَانِي مَجْرَى التَّاجِرِ الْمِصْرِيِّ وَالشَّاذَبَاشِيِّ (٢) وَفُلَانٍ وَفُلَانٍ ، بَلْ مَا ذَنْبِي إِذَا قَالَ لِي: هَلْ وَصَلْتَ إِلَى ابْنِ الْعَمِيدِ أَبِي الْفَتْحِ ؟ فَأَقُولُ : نَعَمْ ، رَأَيْتُهُ وَحَضَرْتُ مَجْلِسَهُ وَشَاهَدْتُ مَا جَرَى لَهُ ، وَكَانَ مِنْ حَدِيثِهِ فِيمَا مُدِحَ بِهِ كَذَا وَكَذَا ، وَفِيمَا تَقَدَّمَ مِنْهُ كَذَا وَكَذَا ، وَفِيمَا تَكَلَّفَهُ مِنْ تَقْدِيمِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَاخْتِصَاصِ أَرْبَابِ الْأَدَبِ كَذَا وَكَذَا ، وَوَصَلَ أَبَاسَعِيدٍ السِّيرَافِيَّ بِكَذَا وَكَذَا ، وَوَهَبَ لِأَبِي سُلَيْمَانَ الْمَنْطِقِيِّ كَذَا وَكَذَا فَيَنْزَوِي وَجْهُهُ ، وَيُنْكِرُ حَدِيثَهُ ، وَيَنْجَذِبُ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ لَيْسَ مِمَّا شَرَعَ فِيهِ وَلَا مِمَّا حَرَّكَ لَهُ ثُمَّ يَقُولُ : أَعْلَمُ أَنَّكَ إِنَّمَا انْتَجَعْتَهُ مِنَ الْعِرَاقِ ، فَاقْرَأْ عَلَيَّ رِسَالَتَكَ الَّتِي تَوَسَّلْتَ إِلَيْهِ بِهَا وَأَسْهَبْتَ مُقَرِّظًا لَهُ فِيهَا ، فَأَتَمَانَعُ فَيَأْمُرُ وَيُشَدِّدُ فَأَقْرَأُهَا فَيَتَغَيَّرُ وَيَذْهَلُ وَأَنَا أَكْتُبُهَا لَكَ لِيَكُونَ زِيَادَةً فِي الْفَائِدَةِ :

---

(١) السوس : الأصل (٢) الشاذباشي : منسوب الى الشاباش أو الشاذباش وهو فارسي ومعناها : أجرة المغني

« بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ » : اللَّهُمَّ هَيِّئْ لِي مِنْ أَمْرِي رَشَدًا ، وَوَفِّقْنِي لِمَرْضَاتِكَ أَبَدًا ، وَلَا تَجْعَلِ الْحِرْمَانَ عَلَيَّ رَصَدًا ، أَقُولُ وَخَيْرُ الْقَوْلِ مَا انْعَقَدَ بِالصَّوَابِ ، وَخَيْرُ الصَّوَابِ مَا تَضَمَّنَ الصِّدْقَ ، وَخَيْرُ الصِّدْقِ مَا جَلَبَ النَّفْعَ ، وَخَيْرُ النَّفْعِ ، مَا تَعَلَّقَ بِالْمَزِيدِ ، وَخَيْرُ الْمَزِيدِ مَا بَدَا عَنِ الشُّكْرِ ، وَخَيْرُ الشُّكْرِ ، مَا بَدَا عَنْ إِخْلَاصٍ ، وَخَيْرُ الْإِخْلَاصِ مَا نَشَأَ عَنِ اتِّفَاقٍ ، وَخَيْرُ الِاتِّفَاقِ مَاصَدَرَ عَنْ تَوْفِيقٍ ، لَمَّا رَأَيْتُ شَبَابِي هَرِمًا بِالْفَقْرِ ، وَفَقْرِي غِنيًا بِالْقَنَاعَةِ ، وَقَنَاعَتِي عَجْزًا عِنْدَ أَهْلِ التَّحْصِيلِ ، عَدَلْتُ إِلَى الزَّمَانِ أَطْلُبُ إِلَيْهِ مَكَانِي فِيهِ وَمَوْضِعِي مِنْهُ ، فَرَأَيْتُ طَرْفَهُ نَابِيًا ، وَعِنَانَهُ عَنْ رِضَايَ مُنْثَنِيًا ، وَجَانِبَهُ فِي مُرَادِي خَشِنًا ، وَارْتِقَائِي (١) فِي أَسْبَابِهِ نَائِيًا ، وَالشَّامِتَ بِي عَلَى الْحِدْثَانِ مُتَمَادِيًا ، طَمِعْتُ فِي السُّكُوتِ تَجَلُّدًا ، وَانْتَحَلْتُ الْقَنَاعَةَ رِيَاضَةً ، وَتَأَلَّفْتُ شَارِدَ حِرْصِي مُتَوَقِّفًا ، وَطَوَيْتُ مَنْشُورَ أَمَلِي مُتَنَزِّهًا ، وَجَمَعْتُ شَتِيتَ رَجَائِي سَالِيًا ، وَادَّعَيْتُ الصَّبْرَ مُسْتَمِرًّا ، وَلَبِسْتُ الْعَفَافَ ضَنًّا ، وَاتَّخَذْتُ الِانْقِبَاضَ صِنَاعَةً ، وَقُمْتُ

(١) كانت هذه الكلمة فى الأصل : « ارتفاق »

بِالْعَلَاءِ مُجْتَهِداً ، هذَا بَعْدَ أَنْ تَصَفَّحْتُ[١] النَّاسَ فَوَجَدْتُهُمْ أَحَدَ رَجُلَيْنِ : رَجُلٍ[٢] إِنْ نَطَقَ نَطَقَ عَنْ غَيْظٍ وَدِمْنَةٍ[٣] وَإِنْ سَكَتَ سَكَتَ عَنْ ضِغْنٍ وَإِحْنَةٍ ، وَرَجُلٍ إِنْ بَذَلَ كَدَّرَ بِامْتِنَانِهِ بَذْلَهُ ، وَإِنْ مَنَعَ حَسَّنَ بِاحْتِيَالِهِ بُخْلَهُ ، فَلَمْ يَطُلْ دَهْرِي فِي أَثْنَائِهِ ، مُتَبَرِّحاً[٤] بِطُولِ الْغُرْبَةِ وَشَظَفِ الْعَيْشِ ، وَكَلَبِ الزَّمَانِ وَمَحَفِ الْمَالِ ، وَجَفَاءِ الْأَهْلِ وَسُوءِ الْحَالِ ، وَعَادِيَةِ الْعَدُوِّ وَكُسُوفِ الْبَالِ ، مُتَحَرِّقاً[٥] مِنَ الْحَنَقِ عَلَى لَئِيمٍ لَا أَجِدُ مَصْرِفاً عَنْهُ ، مُتَقَطِّعاً مِنَ الشَّوْقِ إِلَى كَرِيمٍ لَا أَجِدُ سَبِيلًا إِلَيْهِ ، حَتَّى لَاحَتْ لِي غُرَّةُ الْأُسْتَاذِ فَقُلْتُ : حَلَّ بِيَ الْوَيْلُ ، وَسَالَ بِيَ السَّيْلُ ، أَيْنَ أَنَا عَنْ مَلِكِ الدُّنْيَا ، وَالْفَلَكِ الدَّائِرِ بِالنُّعْمَى ؟ أَيْنَ أَنَا مِنْ مَشْرِقِ الْخَيْرِ وَمَغْرِبِ الْجَمِيلِ ؟ أَيْنَ أَنَا عَنْ بَدْرِ الْبُدُورِ وَسَعْدِ السُّعُودِ ؟ أَيْنَ أَنَا عَمَّنْ يَرَى الْبُخْلَ كُفْراً صَرِيحاً ، وَالْإِفْضَالَ دِيناً صَحِيحاً ؟ أَيْنَ أَنَا عَنْ سَمَاءٍ لَا تَفْتُرُ عَنِ الْهَطَلَانِ ، وَعَنْ بَحْرٍ لَا يَقْذِفُ إِلَّا بِاللُّؤْلُؤِ وَالْمَرْجَانِ ؟ أَيْنَ أَنَا مِنْ فَضَاءٍ لَا يُشَقُّ غُبَارُهُ ،

(١) تصفحت : اختبرت وقلبت (٢) كانت هذه الكلمة في الأصل : « رجلا » (٣) الدمنة : الحقد القديم (٤) متبرحا : متألما متضجرا
(٥) كانت هذه الكلمة في الأصل : « منحرفاً »

وَعَنْ حَرَمٍ لَا يُضَامُ جَارُهُ ؟ أَيْنَ أَنَا عَنْ مَنْهَلٍ لَا صَدَرَ لِفُرَّاطِهِ [١] ، وَلَا مَنْعَ لِوُرَّادِهِ ؟ أَيْنَ أَنَا عَنْ ذَوْبٍ لَا شَوْبَ فِيهِ ، وَعَنْ صَوْبٍ [٢] لَا جَدَدَ دُونَهُ ؟ بَلْ أَيْنَ أَنَا عَمَّنْ أَتَى بِنُبُوَّةِ الْكَرَمِ ، وَإِمَامَةِ الْإِفْضَالِ ، وَشَرِيعَةِ الْجُودِ ، وَخِلَافَةِ الْبَذْلِ ، وَسِيَاسَةِ الْمَجْدِ ، بِشِيمَةٍ مَشِيمَةِ [٣] الْبَوَارِقِ ، وَنَفْسٍ نَفِيسَةِ الْخَلَائِقِ ؟ أَيْنَ أَنَا عَنِ الْبَاعِ الطَّوِيلِ ، وَالْأَنْفِ الْأَشَمِّ ، وَالْمَشْرَبِ الْعَذْبِ ، وَالطَّرِيقِ الْأَمَمِ [٤] ؟ لِمَ لَا أَقْصِدُ بِلَادَهُ ؟ لِمَ لَا أَقْتَدِحُ زِنَادَهُ ؟ لِمَ لَا أَنْتَجِعُ جَنَابَهُ وَأَرْعَى مَرَادَهُ ؟ لِمَ لَا أَسْكُنُ رَبْعَهُ ؟ لِمَ لَا أَسْتَدْعِى نَفْعَهُ ؟ لِمَ لَا أَخْطُبُ جُودَهُ وَأَهْتَصِرُ عُودَهُ [٥] ؟ لِمَ لَا أَسْتَمْطِرُ سَحَابَهُ ؟ لِمَ لَا أَسْتَسْقِ رَبَابَهُ ؟ لِمَ لَا أَسْتَمِيحُ نَيْلَهُ وَأَسْتَسْحِبُ ذَيْلَهُ ؟ وَلَا أَحُجُّ كَعْبَتَهُ ، وَأَسْتَلِمُ رُكْنَهُ ؟ لِمَ لَا أُصَلِّى إِلَى مَقَامِهِ مُؤْتَمًّا بِإِمَامِهِ ؟ لِمَ لَا أُسَبِّحُ بِبَنَانِهِ مُتَقَدِّسًا ؟

---

(١) الفراط : المتقدمون إلى الماء والكلاء ، لأنهم لا يرون الصدر لوجود ما يكفيهم (٢) كانت فى هذا الأصل : « صددى » . والجدد : الغليظ من الأرض (٣) أى ظاهرة (٤) الطريق الأمم : الواضح المستقيم (٥) كانت فى الأصل : « أعتصر عنقوده »

فَتًى صِيغَ مِنْ مَاءِ الشَّبِيبَةِ وَجْهُهُ
فَأَلْفَاظُهُ جُودٌ وَأَنْفَاسُهُ مَجْدُ

لِمَ لَا أَقْصِدُ فَتًى لِلْجُودِ فِي كَفِّهِ مِنَ الْبَحْرِ عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ[١] ؟ لِمَ لَا أَمْتَرِي[٢] مَعْرُوفَ

فَتًى لَا يُبَالِي أَنْ يَكُونَ بِجِسْمِهِ
إِذَا نَالَ خَلَّاتِ الْكِرَامِ شُحُوبُ

لِمَ لَا أَمْدَحُ

فَتًى يَشْتَرِي حُسْنَ الْمَقَالِ بِرُوحِهِ
وَيَعْلَمُ أَعْقَابَ الْأَحَادِيثِ فِي غَدِ[٣] ؟

نَعَمْ لِمَ لَا أَنْتَهِي فِي تَقْرِيظِ فَتًى لَوْ كَانَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَكَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ، وَلَوْ كَانَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ لَكَانَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، وَلَوْ كَانَ مِنَ الْخُلَفَاءِ لَكَانَ نَعْتُهُ اللَّائِذَ بِاللهِ، أَوِ الْمُنْصِفَ فِي اللهِ، أَوِ الْمُعْتَضِدَ بِاللهِ، أَوِ الْمُنْتَصِبَ للهِ، أَوِ الْغَاضِبَ للهِ أَوِ الْغَالِبَ بِاللهِ، أَوِ الْمُرْضِيَ للهِ، أَوِ الْكَافِيَ بِاللهِ، أَوِ الطَّالِبَ

---

(١) عين نضاخة . فوارة غزيرة (٢) أمترى : أستدر وأستخرج

(٣) لعل الشاعر نحا نحو أبي نواس فى قوله يمدح الخطيب :

فتى يشترى حسن الثناء بماله ** ويعلم أن الدائرات تدور

ولكن قول أبي نواس أمدح «عبد الخالق»

بحقّ الله، أو المُحيي لدين الله. أيها المُنتجع قرن كلئه(١)، المُختبط ورق نعمته، أرْع عريض(٢) البطان، متفيئاً بظله ناعم البال، متعوذاً بعزه، وعش رخيّ الحال، معتصماً بحبله، ولذ بداره آمن(٣) السّرب، وامحض ودّه بآنية القلب، وقِ نفسك من سطوته بحسن الحفاظ، وتخيّر له ألطف المدح، تفز منه بأيمن قدح(٤)، ولا تحرم نفسك بقولك: إنى غريب المثوى نازح الدار، بعيد النسب منسيّ المكان، فإنك قريب الدار بالأمل، دانى النجح بالقصد، رحيب الساحة بالمنى، ملحوظ الحال بالجدّ(٥)، مشهور الحديث بالدرك. واعلم علماً يلتحم باليقين، وتدرأ(٦) من الشك أنه معروف الفخر بالمفاخر، مأثور الأثر بالمآثر، قد أصبح واحد الأنام تاريخ الأيام، أسد الغياض يوم الوغى، نور الرياض يوم الرضا، إن حُرّك عند مكرمة تحرّك غصناً تحت بارح(٧)، وإن دُعى إلى

---

(١) المنتجع: الذى يطلب الكلأ، وقرن الكلأ: خيره، والمختبط من اختبط الشجرة: شد ورقها (٢) عريض البطان: رخى البال (٣) آمن السرب: آمن النفس مطمئن البال (٤) القدح: السهم (٥) كانت هذه الكلمة فى الأصل: «بالجسد» (٦) تدرأ: تبرأ (٧) البارح: الطير كناية عن شدة الاهتزاز

اللقاء دُعِيَ ليثاً فوق سابحٍ ، وقلْ إذا أتيته بلسانِ التحكّمِ : أصلحْ أديمي فقد حلِم (١) ، وجدّدْ شبابي فقد هرِمَ ، وأنطقْ لساني في اصطناعي ، فقد شردت صحائفُ النُّجحِ عند انتجاعي ، وَرِشْ (٢) عظمي فقد براهُ الزمانُ ، واكسُ جلدي فقد عرّاه الحدثانُ ، وإياكَ أن تقولَ : يا مالكَ الدنيا جُدْ لي ببعضِ الدنيا فإنه يحرمك ، ولكن قلْ : يا مالكَ الدنيا هبْ لي الدنيا ، اللهمّ فأحْيِ به بلادَكَ ، وأنعشْ برحمتِه عبادَكَ ، وبلّغْه مرضاتَك ، وأسكنْه فردوسَك ، وأدِمْ له العزَّ النامي ، والكعبَ العالي ، والمجدَ التليدَ (٣) والجدَّ السعيدَ ، والحقَّ الموروثَ ، والخيرَ المبثوثَ ، والوليَّ المنصورَ ، والشانِئَ (٤) المبتورَ ، والدعوةَ الشاملةَ والسجيةَ الفاضلةَ ، والسِّربَ (٥) المحروسَ ، والربعَ المأنوسَ ، والجنابَ الخصيبَ ، والعدوَّ الحريبَ (٦) ، والمنهلَ القريبَ ، واجعلْ أولياءَه بازلين لطاعتِه ، ناصرين لأعزّتِه ، ذابّين عن حُرَمِه ، والقمرَ المنيرَ بالجمالِ ، والنجمَ الثاقبَ بالعلمِ ،

(١) أي فسد ، من حلِم الجلد حلما : فسد في العمل ووقع فيه دود فتثقب ، ومنه : « كدابغة وقد حلم الأديم » مثل يضرب لمن يسعى في إصلاح أمر بعد أن أوصله الفساد إلى حيث لا يرجى إصلاحه (٢) رش عظمي : أنبت له ريشا (٣) التليد : القديم

(٤) الشانئ المبتور : المبغض المقطوع (٥) السرب : الطريق

(٦) العدو الحريب : الذي سلب ماله وترك بلا شيء « عبد الخالق »

وَالْكَوْكَبَ الْوَقَّادَ بِالْجُودِ ، وَالْبَحْرَ الْفَيَّاضَ بِالْمَوَاهِبِ ، سَقَطَ الْعَشَاءُ بِعَبْدِكَ عَلَى سَرْحِكَ (١) ، فَاقْرِهِ مِنْ نِعْمَتِكَ عَمَّا يُضَاهِي قَدْرَكَ وَقُدْرَتَكَ ، وَزَوِّجْ هِبَةَ رَبِّهَا مِنَ الْغِنَى ، فَطَالَمَا خَطَبَ كُفُؤُهَا مِنَ الْمُنَى . ثُمَّ يُقَالُ لِي مِنْ بَعْدُ : جَنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ حِينَ ذَكَرْتَ عَدُوَّهُ عِنْدَهُ بِخَيْرٍ ، وَأَثْنَيْتَ عَلَيْهِ وَجَعَلْتَهُ سَيِّدَ النَّاسِ . فَأَقُولُ : كَرِهْتُ أَنْ تَرَانِي مُتَذَرِّبًا (٢) عَلَى عِرْضِ رَجُلٍ عَظِيمِ الْخَطْبِ ، غَيْرَ مُكْتَرِثٍ بِالْوَقِيعَةِ (٣) فِيهِ وَالْإِنْحَاءِ (٤) عَلَيْهِ ، وَقَدْ كَانَ يَجُوزُ أَنْ أُشَعِّثَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ، وَأَبْرِيَ مِنْ أَثْلَتِهِ (٥) جَانِبًا ، وَأُطِيرَ إِلَى جَنْبِهِ شَرَارَةً ، فَيُقَالُ أَيْضًا : جَنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ ، وَتَرَكْتَ الِاحْتِيَاطَ فِي أَمْرِكَ ، فَإِنَّهُ مَقَتَكَ وَعَافَكَ ، وَرَأَى أَنَّكَ فِي قَوْلِكَ عَدَوْتَ طَوْرَكَ ، وَجَهِلْتَ قَدْرَكَ ، وَنَسِيتَ وِزْرَكَ ، وَلَيْسَ مِثْلُكَ مَنْ هَجَمَ عَلَى ثَلْبِ مَنْ بَلَغَ رُتْبَةَ ذَلِكَ الرَّجُلِ ، وَإِنَّكَ مَتَى جَسَرْتَ عَلَى هَذَا وُزِنْتَ بِهِ ، وَجَعَلْتَ غَيْرَهُ فِي قِرْنِهِ ، فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْحَالَاتُ مُلْتَبِسَةً ، وَهَذِهِ الْعَوَاقِبُ

(١) السرح : فناء الدار (٢) أى سليط اللسان متسلطا عليه .

(٣) الوقيعة : السب والشتم (٤) كانت فى هذا الأصل : « والانحاء عليه »

(٥) أبرى من أثلته : أى أظهر من عيبه ، وهذا المعنى من قبيل المجاز

مَجْهُولَةً ، فَهَلْ يَدُورُ الْعَمَلُ بَعْدَهَا إِلَّا عَلَى الْإِحْسَانِ الَّذِي هُوَ عِلَّةُ الْمَحَبَّةِ ؟ وَالْمَحَبَّةِ الَّتِي هِيَ عِلَّةُ الْحَمْدِ ، وَالْإِسَاءَةِ الَّتِي هِيَ عِلَّةُ الْبُغْضِ ، وَالْبُغْضِ الَّذِي هُوَ عِلَّةُ الذَّمِّ ، فَهَذَا هَذَا .

قَالَ : وَكَانَ ابْنُ عَبَّادٍ شَدِيدَ الْحَسَدِ لِمَنْ أَحْسَنَ الْقَوْلَ وَأَجَادَ اللَّفْظَ ، وَكَانَ الصَّوَابُ غَالِباً عَلَيْهِ ، وَلَهُ رِفْقٌ فِي سَرْدِ حَدِيثٍ ، وَنِيقَةٌ (١) فِي رِوَايَةٍ ، وَلَهُ شَمَائِلُ مَخْلُوطَةٌ بِالدَّمَاثَةِ بَيْنَ الْإِشَارَةِ وَالْعِبَارَةِ ، وَهَذَا شَيْءٌ عَامٌّ فِي الْبَغْدَادِيِّينَ ، وَكَالْخَاصِّ فِي غَيْرِهِمْ .

حَدَّثْتُ لَيْلَةً بِحَدِيثٍ فَلَمْ يَمْلِكْ نَفْسَهُ حَتَّى ضَحِكَ وَاسْتَعَادَهُ ثُمَّ قِيلَ لِي بَعْدَهُ إِنَّهُ كَانَ يَقُولُ : قَاتَلَ اللهُ ابْنَ حَيَّانَ فَإِنَّهُ نَكِدٌ ، وَإِنَّهُ وَإِنَّهُ وَإِنَّهُ — وَأَكْرَهُ أَنْ أَرْوِيَ ذَمِّي بِقَلَمِي — وَكَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ حَسَداً وَغَيْظاً بَحْتاً ، وَأَنَا أَرْوِي لَكَ الْحَدِيثَ فَإِنَّهُ فِي نِهَايَةِ الطِّيبِ ، وَفِيهِ فُكَاهَةٌ ظَاهِرَةٌ وَعِيٌّ عَجِيبٌ ، فِي مَعْرِضِ بَلَاغَةٍ ظَرِيفَةٍ فِي مَلْبَسِ فَهَاهَةٍ .

حَدَّثَنِي الْقَاضِي أَبُو الْحَسَنِ الْجَرَّاحِيُّ قَالَ : لَحِقَنِي مَرَّةً عِلَّةٌ صَعْبَةٌ فَمِنْ طَرِيفِ مَا مَرَّ عَلَى رَأْسِي ، وَدَخَلَ فِي جُمْلَةِ مَنْ

---

(١) النيقة : التوضيح والتحسين

عَادَنِي ، شَيْخُ الشُّونِيزِيَّةِ ، وَدُوَّارَةِ الْحِمَارِ ، وَالتُّوثَةِ [١] ، وَفَقِيهُهَا أَبُو الْجَعْدِ الْأَنْبَارِيُّ ، وَكَانَ مِنْ كِبَارِ أَصْحَابِ الزُّنْهَارِيِّ فَقَالَ أَوَّلَ مَاقَعَدَ : « يقع لى فيما لا يقع لغيرى ، أو لمثلى فيمن كان كأنه منى ، أو كأنه كان على سنى ، أو كان معروفاً بما لا يعرف به إلاى ، إلا أنى أرى أنك لا تحتمى إلا حمية [٢] فوق ما يجب ، ودون مالا يجب ، وبين فوق مالا يجب ، وبين دون ما لا يجب ، فرق ، الله يعلم أنه لا يعلم أحد ممن يعلم ، أو لا يعلم الطب كله أن يحتمى حمية ، بين حميتين : حميـة كلا حمية ، ولا حميـة كحمية ، وهذا هو الاعتدال والتعديل ، والتعادل والمعادلة ، قال الله تعالى : « وكان بين ذلك قواماً [٣] » وقال النبي صلى الله عليه وسلم : «خير الأمور أوسطها ، وشرها إطرافها » . والعلة فى الجملة والتفصيل إذا أدبرت لم تقبل ، وإذا أقبلت لم تدبر ، وأنت من إقبالها فى خوف ومن إدبارها فى التعجب ، وما يصنع هذا كله ؟ لا تنظر إلى اضطراب الحمية عليك ، ولـكن انظر إلى

(١) اسماء مقابر ببغداد (٢) الحمية : عدم الأكل ، أو القصد فى تناول الطعام
(٣) القوام : الاعتدال

جهل هؤلاء الأطباء الألباء الذين يشقون الشعر شقا، ويدقون البعر دقا، ويقولون مايدرون ومالا يدرون زرقاً وحمقاً، وإلى قلة نصحهم مع جهلهم، ولو لم يجهلوا إذا لم ينصحوا كان أحسن عند الله والملائكة، ولو نصحوا إذا جهلوا كان أولى عند الناس وأشباه الناس والله المستعان، وأنت فى عافية ولكن عدوك ينظر إليك بعين الاست فيقول: وجهه وجه من قد رجع من القبر بعد غدو على كل حال، فالرجوع من القبر خير من الرجوع إلى القبر، لعن الله القبر، لا خباز ولا بزاز ولا رزاز ولا كواز «إنا لله وإنا إليه راجعون» عن قريب إن شاء الله «وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت» وقال جل شأنه «ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله، وهو على جمعهم إذا يشاء قدير، ومن الجبال جدد بيض وحمر» تأمر بشىء السنة فى العيادة خاصة، عيادة الكبار والسادة التخفيف والتطفيف، وإنا إن شاء الله عندك بالعشي والحق، والحق أقوام ما يجب على مثلك لمثلى، كان ليس لك مثل ولا مثلى أيضاً مثل هكذا إلى باب الشام وإلى قنطرة

الشوك وإلى المندفة أقول لك المستوى ، لا أنا ولا أنت اليوم كمثل كمثراتين إذا علقتا على رأس شجرة ، وكدلوين إذا خلقا على رأس بئر ، ودع ذا القارورة ، اليوم لا أله إلا الله ، وأمس كان سبحان الله ، وغداً يكون شيئاً آخر ، وبعد غد ترى من ربك العجب . والموت والحياة بعون الله ، ليس هذا مما يباع فى السوق ، أو يوجد مطروحاً فى الطريق ، وذاك أن الإنسان ـ ولا قوة إلا بالله ـ طريف أعمى كأنه ما صح له منام قط ، ولا خرج من السمارية إلى الشط ، وكأنه ما رأى قدرة الله فى البط ، إذا لفظ كيف يقول قط قط ، والكلام فى الإنسان وعمى قلبه وسخنة عينه قل غفر له ، ولا يسلم فى هذه الدار إلا من عصر نفسه عصرة ينشق منها فيموت كأنه شهيد ، وهذا صعب لا يكون إلا بتوفيق الله وبعض خذلانه الغريب ، على الله توكلنا وإليه التفتنا ورضينا ، وبه استجرنا ، إن شاء أخذلنا ، وإن شاء أطعمنا [1] . »

(١) هذا كلام لا تحاول أن تفهمه ، وإلا فأنت فى عناء ، وقد اخبرت المطبعة ألا تضبطه فليس فى ذلك من فائدة «عبد الخالق»

قَالَ القَاضِي : فَكِدْتُ أَمُوتُ مِنَ الضَّحِكِ عَلَى ضَعْفِي وما زَالَ كَلامُهُ بِهَذَا إِلَى أَنْ خَرَجْتُ عَلَى النَّاسِ وَكَانَ مَعَ هذَا لَا يَعْيَا وَلَا يَقِفُ وَلَا يَكِلُّ وَكَانَ مِنْ عَجَائِبِ الزَّمَانِ.

وَخَتَمَ أَبُو حَيَّانَ كِتَابَهُ فِي أَخْلَاقِ الْوَزِيرَيْنِ بَعْدَ أَنِ اعْتَذَرَ عَنْ فِعْلِهِ ثُمَّ قَالَ : وَإِنِّي لَأَحْسُدُ الَّذِي يَقُولُ :

أَعُدُّ خَمْسِينَ حَوْلًا مَا عَلَيَّ يَدٌ
لِأَجْنَبِيٍّ وَلَا فَضْلٌ لِذِي رَحِمِ
أَلْحَمْدُ لِلَّهِ شُكْرًا قَدْ قَنِعْتُ فَلَا
أَشْكُو لَئِيمًا وَلَا أُطْرِي أَخَا كَرَمِ

لِأَنِّي كُنْتُ أَتَمَنَّى أَنْ أَكُونَهُ، وَلَكِنَّ الْعَجْزَ غَالِبٌ لِأَنَّهُ مَبْذُورٌ فِي الطِّينَةِ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْآخَرُ حِينَ قَالَ :

ضَيِّقُ الْعُذْرِ (١) فِي الضَّرَاعَةِ إِنَّا لَوْ قَنِعْنَا بِقَسْمِنَا لَكَفَانَا
مَا لَنَا نَعْبُدُ الْعِبَادَ إِذَا كَا نَ إِلَى اللَّهِ فَقْرُنَا وَغِنَانَا ؟

وَأَدْعُو هَهُنَا بِمَا دَعَا بِهِ بَعْضُ النُّسَّاكِ : « اللَّهُمَّ صُنْ وُجُوهَنَا بِالْيَسَارِ، وَلَا تَبْذُلْهَا بِالْإِقْتَارِ، فَنَسْتَرْزِقَ أَهْلَ رِزْقِكَ، وَنَسْأَلَ شَرَّ خَلْقِكَ، وَنُبْتَلَى بِحَمْدِ مَنْ أَعْطَى، وَذَمِّ مَنْ مَنَعَ،

(١) العذر : الضيق الذى لا يكاد يقبل ، فالضراعة : عذر ضيق .

وَأَنْتَ مِنْ دُونِهِمْ وَلِيُّ الإِعْطَاءِ ، وَبِيَدِكَ خَزَائِنُ الأَرْضِ وَالسَّماءِ يَاذَا الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ »

وَمِنْ كِتَابِ الْمُحَاضَرَاتِ لِأَبِي حَيَّانَ قَالَ : قَصَدْتُ أَنَا وَالنَّصِيبِيُّ رَجُلًا مِنْ أَبْنَاءِ النِّعَمِ وَالْمَوْصُوفِينَ بِالْكَرَمِ ، لَا يَرُدُّ سَائِلِيهِ ، وَلَا يُخَيِّبُ آمِلِيهِ ، وَالأَلْسُنُ مُتَّفِقَةٌ عَلَى جُودِهِ وَتَطَوُّلِهِ ، وَالْعُيُونُ شَاخِصَةٌ إِلَى عَطَايَاهُ وَفَضْلِهِ ، لَهُ فِي السَّنَةِ مَبَارٌّ كَثِيرَةٌ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ وَأَهْلِ الْبُيُوتَاتِ ، وَمَنْ قَعَدَ بِهِ الزَّمَانُ وَجَفَاهُ الإِخْوَانُ ، فَلَمْ نُصَادِفْهُ فِي مَنْزِلِهِ ، وَقَصَدْنَاهُ ثَانِيًا فَمُنِعْنَا مِنَ الدُّخُولِ إِلَيْهِ ، وَقَصَدْنَاهُ ثَالِثًا فَذُكِرَ أَنَّهُ رَكِبَ ، وَقَصَدْنَاهُ رَابِعًا فَقِيلَ هُوَ فِي الْحَمَّامِ ، وَقَصَدْنَاهُ خَامِسًا فَقِيلَ هُوَ نَائِمٌ ، وَقَصَدْنَاهُ سَادِسًا فَقِيلَ عِنْدَهُ صَاحِبُ الْبَرِيدِ وَهُوَ مَشْغُولٌ مَعَهُ بِمُهِمٍّ ، وَقَصَدْنَاهُ سَابِعًا فَذُكِرَ أَنَّهُ رَسَمَ أَلَّا يُؤْذَنَ لِأَحَدٍ ، وَقَصَدْنَاهُ ثَامِنًا فَذُكِرَ أَنَّهُ يَأْكُلُ وَلَا يَجُوزُ الدُّخُولُ إِلَيْهِ بِوَجْهٍ وَلَا سَبَبٍ ، وَقَصَدْنَاهُ تَاسِعًا فَذُكِرَ أَنَّ أَحَدَ أَوْلَادِهِ سَقَطَ مِنَ الدَّرَجَةِ وَهُوَ مَشْغُولٌ بِهِ عِنْدَ رَأْسِهِ مَا يُفَارِقُهُ ، وَقَصَدْنَاهُ الْعَاشِرَ فَذُكِرَ أَنَّهُ مُسْتَعِدٌّ لِشُرْبِ الدَّوَاءِ ، وَقَصَدْنَاهُ الْحَادِيَ عَشَرَ فَذُكِرَ أَنَّهُ تَنَاوَلَ الدَّوَاءَ مِنْ يَوْمَيْنِ ، وَمَا عَمِلَ عَمَلًا وَقَدْ

قَوَّاهُ الْيَوْمَ بِمَا يُحَرِّكُ الطَّبِيعَةَ ، وَقَصَدْنَاهُ الثَّانِيَ عَشَرَ فَقِيلَ إِلَى الْآنِ كَانَ جَالِساً وَنَهَضَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ وَدَخَلَ إِلَى الْحُجْرَةِ ، وَقَصَدْنَاهُ الثَّالِثَ عَشَرَ فَقِيلَ دُعِيَ إِلَى الدَّارِ لِمُهِمٍّ ، وَقَصَدْنَاهُ الرَّابِعَ عَشَرَ فَأَلْفَيْنَاهُ فِي الطَّرِيقِ يَمْضِي إِلَى دَارِ الْإِمَارَةِ ، وَقَصَدْنَاهُ الْخَامِسَ عَشَرَ فَسَهُلَ لَنَا الْإِذْنُ وَدَخَلْنَا فِي غِمَارِ النَّاسِ ، وَالنَّاسُ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ جُلُوسٌ وَجَمَاعَةٌ قِيَامٌ يُرَتِّبُونَ النَّاسَ وَيَخْدُمُونَهُمْ وَقَدِ اتَّفَقَ لَهُ عَزَاءٌ ، وَشُغِلَ بِغَيْرِنَا وَبَقِينَا فِي صُورَةٍ مِنِ احْتِقَانِ الْبَوْلِ وَالْجُوعِ وَالْعَطَشِ وَمَا أَقَمْنَا فِي جُمْلَةِ مَنْ يُقَامُ . فَقَالَ لِي النَّصِيبِيُّ : هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي قَدْ ظَفِرْنَا بِهِ وَتَمَكَّنَّا مِنْ دُخُولِ دَارِهِ صَارَ عَظِيمَ الْمُصِيبَةِ عَلَيْنَا ، لَيْسَ لَنَا إِلَّا مُهَاجَرَةُ بَابِهِ وَالْإِعْرَاضُ عَنْهُ ، وَقَمْعُ النَّفْسِ الدَّنِيَّةِ بِالطَّمَعِ فِي غَيْرِهِ . فَقُلْتُ لَهُ : قَدْ تَعِبْنَا وَتَبَذَّلْنَا عَلَى بَابِهِ ، وَالْأَسْبَابُ الَّتِي قَدِ اتَّفَقَتْ فَمَنَعَتْ مِنْ رُؤْيَتِهِ كَانَتْ عُذْراً وَاضِحاً وَيَتَّفِقُ مِثْلُ هَذَا ، فَإِذَا انْقَضَتْ أَيَّامُ التَّعْزِيَةِ قَصَدْنَاهُ ، وَرُبَّمَا نِلْنَا مِنْ جِهَتِهِ مَا نَأْمُلُهُ ، فَقَصَدْنَاهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ مَرَّةً ، وَقَلَّمَا اتَّفَقَ فِيهَا رُؤْيَتُهُ وَخِطَابُهُ حَتَّى مَلَّ النَّصِيبِيُّ فَقَالَ : لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ دَارَهُ الْفِرْدَوْسُ ، وَالْحُصُولَ

عِنْدَهُ الْخُلُودُ فِيهَا ، وَكَلَامَهُ رِضَا اللهِ تَعَالَى وَفَوْزُ الْأَبَدِ لَمَا قَصَدْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

طَلَبُ الْكَرِيمِ نَدَى يَدِ الْمَنْكُودِ
كَالْغَيْثِ يُسْتَنْسَقَ مِنَ الْجُلْمُودِ
فَافْزَعْ إِلَى عِزِّ الْفَرَاغِ وَلُذْ بِهِ
إِنَّ السُّؤَالَ يُرِيدُ وَجْهَ حَدِيدِ

فَأَجَبْتُهُ أَنَا وَعَيْنَايَ بِالدُّمُوعِ تَتَرَقْرَقُ لِمَا بَانَ لِي مِنْ حِرَفَتِي ، وَنُبُوِّ الدَّهْرِ بِي وَضَيَاعِ سَعْيِي ، وَخَيْبَةِ أَمَلِي فِي كُلِّ مَنْ أَرْتَجِيهِ لِمُلِمٍّ أَوْ مُهِمٍّ ، أَوْ حَادِثَةٍ أَوْ نَائِبَةٍ :

دُنْيَا دَنَتْ مِنْ عَاجِزٍ وَتَبَاعَدَتْ
عَنْ كُلِّ ذِي لُبٍّ لَهُ خَطَرُ(١)
سَلِمَتْ عَلَى أَرْبَابِهَا حَتَّى إِذَا وَصَلَتْ إِلَيَّ أَصَابَهَا الْحَصَرُ

قَالَ أَبُو حَيَّانَ فِي كِتَابِ الْوَزِيرَيْنِ : جَرَى بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي عَلِيٍّ مَسْكَوَيْهِ شَيْءٌ ، قَالَ لِي مَرَّةً : أَمَا تَرَى إِلَى خَطَإِ صَاحِبِنَا ـ وَهُوَ يَعْنِي ابْنَ الْعَمِيدِ فِي إِعْطَائِهِ فُلَانًا أَلْفَ دِينَارٍ ضَرْبَةً وَاحِدَةً ـ لَقَدْ أَضَاعَ هَذَا الْمَالَ الْخَطِيرَ فِيمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ ، فَقُلْتُ

(١) كانت فى الأصل « حجر »

بَعْدَ مَا أَطَالَ الْحَدِيثَ وَتَقَطَّعَ بِالْأَسَفِ. أَيُّهَا الشَّيْخُ، أَسْأَلُكَ عَنْ شَيْءٍ وَاحِدٍ، فَاصْدُقْ فَإِنَّهُ لَا مَدَبَّ لِلْكَذِبِ بَيْنِي وَبَيْنَكَ: لَوْ غَلِطَ صَاحِبُكَ فِيكَ بِهَذَا الْعَطَاءِ وَبِأَضْعَافِهِ وَأَضْعَافِ أَضْعَافِهِ، أَكُنْتَ تَخَيَّلُهُ فِي نَفْسِكَ مُخْطِئًا وَمُبَذِّرًا وَمُفْسِدًا، أَوْ جَاهِلًا بِحَقِّ الْمَالِ؟ أَوْ كُنْتَ تَقُولُ مَا أَحْسَنَ مَا فَعَلَ وَلَيْتَهُ أَرْبَى عَلَيْهِ؟. فَإِنْ كَانَ الَّذِي تَسْمَعُ عَلَى حَقِيقَةٍ، فَاعْلَمْ أَنَّ الَّذِي يَرُدُّ وِرْدَ مَقَالِكَ إِنَّمَا هُوَ الْحَسَدُ أَوْ شَيْءٌ آخَرُ مِنْ جِنْسِهِ، وَأَنْتَ تَدَّعِي الْحِكْمَةَ وَتَتَكَلَّفُ الْأَخْلَاقَ، وَتُزَيِّفُ الزَّائِفَ، وَتَخْتَارُ مِنْهَا الْمُخْتَارَ، فَافْطَنْ لِأَمْرِكَ، وَاطَّلِعْ عَلَى سِرِّكَ وَشَرِّكَ.

﴿ ٢ – عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ حَبِيبٍ* ﴾

الْمَاوَرْدِيُّ الْبَصْرِيُّ، يُكْنَى أَبَا الْحَسَنِ، وَيُلَقَّبُ أَقْضَى الْقُضَاةِ، لُقِّبَ بِهِ فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، وَجَرَى مِنَ الْفُقَهَاءِ كَأَبِي الطَّيِّبِ الطَّبَرِيِّ وَالصَّيْمَرِيِّ إِنْكَارٌ لِهَذِهِ التَّسْمِيَةِ وَقَالُوا: لَا يَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى بِهِ أَحَدٌ، هَذَا بَعْدَ أَنْ كَتَبُوا خُطُوطَهُمْ بِجَوَازِ تَلْقِيبِ جَلَالِ الدَّوْلَةِ بْنِ بَهَاءِ الدَّوْلَةِ بْنِ عَضُدِ الدَّوْلَةِ بِمَلِكِ الْمُلُوكِ علي بن محمد الماوردي

(*) لم نعثر له على ترجمة سوى ترجمته في ياقوت

الأعظم ، فلم يلتفت إليهم ، واستمر له هذا اللقب إلى أن مات ، ثم تلقب به القضاة إلى أيامنا هذه ، وشرط الملقب بهذا اللقب : أن يكون دون منزلة من تلقب بقاضي القضاة إلى أيامنا هذه على سبيل الاصطلاح ، وإلا فالأولى أن يكون أقضى القضاة أعلى منزلة . ومات الماوردي في سنة خمسين وأربعمائة . وكان عالماً بارعاً متفنناً شافعياً في الفروع ، ومعتزلياً في الأصول على ما بلغني والله أعلم .

وكان ذا منزلة من ملوك بني بويه يرسلونه في التوسطات بينهم وبين من يناوئهم ، ويرتضون بوساطته ويقفون بتقريراته . قرأت في كتاب سر السرور لمحمود النيسابوري هذين البيتين منسوبين إلى الماوردي هذا :

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله
فأجسادهم دون القبور قبور
وإن امرأ لم يحي بالعلم صدره
فليس له حتى النشور نشور

حدث محمد بن عبد الملك الهمذاني ، حدثني أبي قال : سمعت الماوردي يقول : بسطت الفقه في أربعة

آلَافِ وَرَقَةٍ ، وَاخْتَصَرْتُهُ فِي أَرْبَعِينَ ، يُرِيدُ بِالْمَبْسُوطِ كِتَابَ الْحَاوِي ، وَبِالْمُخْتَصَرِ كِتَابَ الْإِقْنَاعِ ، وَدَرَسَ مَكَانَهُ خَمْسَ سِنِينَ قَالَ : وَلَمْ أَرَ أَوْقَرَ مِنْهُ ، وَلَمْ أَسْمَعْ مِنْهُ مُضْحِكَةً قَطُّ ، وَلَا رَأَيْتُ ذِرَاعَهُ[1] مُنْذُ صَحِبْتُهُ إِلَى أَنْ فَارَقَ الدُّنْيَا . قُلْتُ : وَلَهُ تَصَانِيفُ حِسَانٌ فِي كُلِّ فَنٍّ، مِنْهَا : كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ ، كِتَابُ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ ، كِتَابٌ فِي النَّحْوِ رَأَيْتُهُ فِي حَجْمِ الْإِيضَاحِ أَوْ أَكْبَرَ ، كِتَابُ قَوَانِينِ الْوَزَارَةِ ، كِتَابُ تَعْجِيلِ النَّصْرِ وَتَسْهِيلِ الظَّفَرِ .

قَرَأْتُ فِي مَجْمُوعٍ لِبَعْضِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ : تَقَدَّمَ الْقَادِرُ بِاللهِ إِلَى أَرْبَعَةٍ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَيَّامِهِ فِي الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ ، أَنْ أَنْ يُصَنِّفَ لَهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مُخْتَصَراً عَلَى مَذْهَبِهِ . فَصَنَّفَ لَهُ الْمَاوَرْدِيُّ الْإِقْنَاعَ ، وَصَنَّفَ لَهُ أَبُو الْحُسَيْنِ الْقُدُورِيُّ مُخْتَصَرَهُ الْمَعْرُوفَ عَلَى مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ ، وَصَنَّفَ لَهُ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الْوَهَّابِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ نَصْرٍ الْمَالِكِيُّ مُخْتَصَراً آخَرَ ، وَلَا أَدْرِي مَنْ صَنَّفَ لَهُ عَلَى مَذْهَبِ أَحْمَدَ ، وَعُرِضَتْ عَلَيْهِ فَخَرَجَ الْخَادِمُ إِلَى أَقْضَى الْقُضَاةِ الْمَاوَرْدِيِّ وَقَالَ لَهُ : يَقُولُ[2] لَكَ أَمِيرُ

(١) يريد أنه لا يدعو أحدا لشيء أي لا يسأل ، أو كأنه اسم من أذرع في الكلام : أفرط (٢) كانت هذه الكلمة في الأصل « قال » « عبد الخالق »

المُؤْمِنِينَ : حَفِظَ اللهُ عَلَيْكَ دِينَكَ ، كَمَا حَفِظْتَ عَلَيْنَا دِينَنَا .

وَمِنْ هَذَا الْمَجْمُوعِ (١) : كَانَ أَقْضَى الْقُضَاةِ — رَحِمَهُ اللهُ — قَدْ سَلَكَ طَرِيقَهُ فِي ذَوِي الْأَرْحَامِ ، يُوَرِّثُ الْقَرِيبَ وَالْبَعِيدَ بِالسَّوِيَّةِ ، وَهُوَ مَذْهَبُ بَعْضِ الْمُتَقَدِّمِينَ ، فَجَاءَهُ يَوْمًا الشَّيْنِيزِيُّ فِي أَصْحَابِ الْقَمَاقِمِ ، فَصَعِدَ إِلَيْهِ الْمَسْجِدَ وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ وَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ : أَيُّهَا الشَّيْخُ ، اتَّبِعْ وَلَا تَبْتَدِعْ ، فَقَالَ : بَلْ أَجْتَهِدُ وَلَا أُقَلِّدُ ، فَلَبِسَ نَعْلَهُ وَانْصَرَفَ

﴿ ٣ — عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ دِينَارٍ الدِّينَارِيُّ * ﴾

علی بن محمد الدیناری

النَّحْوِيُّ أَبُو الْحَسَنِ ، مِنْ وَلَدِ دِينَارِ بْنِ عَبْدِ اللهِ . قَالَ ابْنُ طَاهِرٍ الْمَقْدِسِيُّ : مَاتَ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ، وَأَبُوهُ أَبُو الْفَتْحِ مُحَمَّدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْحَدِيثِ .

﴿ ٤ — عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ أَبُو الْحَسَنِ الْأَهْوَازِيُّ النَّحْوِيُّ الْأَدِيبُ * ﴾

علی بن محمد الأهوازی

رَأَيْتُ لَهُ كِتَابًا فِي عِلَلِ الْعَرُوضِ ، نَحْوَ عَشْرِ كَرَارِيسَ

(١) أی المجموع الذی تقدم ذکره

(*) لم نعثر له علی ترجمة سوی ترجمته فی یاقوت

(*) راجع بغیة الوعاة

ضَيِّقَةِ الْخَطِّ ، جيِّداً في بَابِهِ غَايَةً ، وَلَا أَعْرِفُ مِنْ حَالِهِ غَيْرَ هٰذَا .

﴿ ٥ – عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الْوَزَّانُ النَّحْوِيُّ الْحَلَبِيُّ * ﴾

علي بن محمد الوزان

أَبُو الْحَسَنِ ، سَمِعَ مِنْهُ أَبُو الْقَاسِمِ عَلِيُّ بْنُ الْمُحَسِّنِ التَّنُوخِيُّ ، وَأَظُنُّهُ كَانَ فِي أَيَّامِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ بْنِ حَمْدَانَ ، وَلَهُ كِتَابٌ فِي الْعَرُوضِ .

﴿ ٦ – عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ السِّيدِ النَّحْوِيُّ الْبَطَلْيُوسِيُّ * ﴾

علي بن محمد البطليوسي

أَبُو الْحَسَنِ ، وَيُعْرَفُ بِالْخَيْطَالِ ، وَهُوَ أَخُو أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ ابْنِ السِّيدِ النَّحْوِيِّ . رَوَى عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ الْغُرَابِ ، وَأَبِي عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدِ بْنِ يُونُسَ وَغَيْرِهِمَا ، أَخَذَ عَنْهُ أَخُوهُ أَبُو مُحَمَّدٍ كَثِيراً مِنْ كُتُبِ الْآدَابِ وَغَيْرِهَا ، وَكَانَ مُقَدَّماً فِي عِلْمِ اللُّغَةِ وَحِفْظِهَا وَضَبْطِهَا ، وَمَاتَ بِقَلْعَةِ رَبَاحٍ مُعْتَقَلاً مِنْ قِبَلِ ابْنِ عُكَاشَةَ قَائِدِهَا سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ .

(*) راجع بغية الوعاة

(*) راجع بغية الوعاة

﴿ ٧ – عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الْأَخْفَشُ النَّحْوِيُّ * ﴾

على بن محمد الأخفش

لَمْ أَجِدْ ذِكْرَهُ إِلَّا عَلَى كِتَابِ الْفَصِيحِ بِخَطِّ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللهِ ابْنِ أَخِي الشَّبِيهِ الْعَلَوِيِّ بِمَا صُورَتُه: حَذِقَ عَلَيَّ هٰذَا الْكِتَابَ - وَهُوَ كِتَابُ الْفَصِيحِ - أَبُو الْقَاسِمِ سُلَيْمَانُ بْنُ الْمُبَارَكِ الْخَاصَّةُ الشَّرَفُ - أَدَامَ اللهُ أَيَّامَهُ - مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ قِرَاءَةَ فَهْمٍ وَتَصْحِيحٍ. وَقَرَأْتُ أَنَا عَلَى عَلِيِّ بْنِ عُمَيْرَةَ - رَحِمَهُ اللهُ - فِي مَحَلَّةِ بَابِ الْبَصْرَةِ بِبَغْدَادَ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ الْكَبِيرِ. وَقَرَأَ هُوَ عَلَى أَبِي بَكْرِ بْنِ مِقْسَمٍ النَّحْوِيِّ عَنْ أَبِي الْعَبَّاسِ ثَعْلَبٍ - رَحِمَهُ اللهُ -، وَكَتَبَ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الْأَخْفَشُ النَّحْوِيُّ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَخَمْسِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ.

﴿ ٨ – عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ اللهِ * ﴾

على بن محمد القهندزى

الْقُهُنْدُزِيُّ أَبُو الْحَسَنِ الضَّرِيرُ النَّحْوِيُّ الْأَدِيبُ النَّيْسَابُورِيُّ مِنْ أَصْحَابِ أَبِي عَبْدِ اللهِ، شَيْخٌ فَاضِلٌ مِنَ الْأُدَبَاءِ، سَمِعَ الْحَدِيثَ مِنْ أَبِي الْعَبَّاسِ الْمَنَاسِكِيِّ الْمَحَامِلِيِّ وَغَيْرِهِ، وَسَمِعَ مِنْهُ

(*) ترجم له فى كتاب بغية الوعاة

(*) راجع بغية الوعاة

وترجم له فى كتاب أنباء الرواة ج أول

النَّاسُ وَقَرَأَ عَلَيْهِ الْأَئِمَّةُ وَتَخَرَّجُوا بِهِ . قَالَ ذَلِكَ عَبْدُ الْغَافِرِ فِي السِّيَاقِ ، قَرَأَ عَلَيْهِ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ الْوَاحِدِيُّ وَعَدَّهُ فِي أَعْيَانِ مَشَايِخِهِ . وَقَالَ الْوَاحِدِيُّ : كَانَ مِنْ أَبْرَعِ أَهْلِ زَمَانِهِ .

﴿ ٩ – عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ السَّعِيدِيُّ الْبَيَارِيُّ * ﴾

علي بن محمد البياري

الْأُسْتَاذُ الْأَدِيبُ أَبُو الْحَسَنِ ، رَجُلٌ فَاضِلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ الْفَضْلِ وَالْأَدَبِ ، وَأَمَّا سَمَاعُ الْحَدِيثِ فَقَلَّمَا يَخْلُو عَنْهُ أَهْلُ الْفَضْلِ ، قَالَهُ عَبْدُ الْغَافِرِ .

﴿ ١٠ – عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ مَنْصُورٍ * ﴾

علي بن محمد الحوزي

الْحَوْزِيُّ أَبُو الْحَسَنِ ، الْأَدِيبُ ابْنُ الْأَدِيبِ السَّقَّاءِ ، رَجُلٌ فَاضِلٌ شَاعِرٌ كَاتِبٌ ، وَسَمِعَ الْحَدِيثَ مِنْ مُتَأَخِّرِي الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ ثُمَّ مِنْ مَشَايِخِنَا ، وَمَاتَ كَهْلًا فِي الثَّانِي مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ سَنَةَ سَبْعٍ وَتِسْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ قَالَ ذَلِكَ عَبْدُ الْغَافِرِ .

﴿ ١١ – عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَرْسَلَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْكَاتِبُ * ﴾

علي بن محمد الكاتب

أَبُو الْحَسَنِ بْنُ أَبِي عَلِيٍّ الْمُنْتَجَبُ مِنْ أَهْلِ مَرْوَ ، كَاتِبٌ

(*) راجع أنباء الرواة

(*) راجع أنباء الرواة

(*) راجع بغية الوعاة

مليحُ الخطِّ فصيحُ العبارةِ ، ولهُ شِعرٌ وتَرسُّلٌ وبلاغةٌ في غايةِ الحُسنِ ، سافرَ إلى العراقِ وجالَ في بلادِهِ ، ولعلّهُ ما رأى مثلَ نفسِهِ في فنّهِ ، سمِعَ بمَرْوَ أبا عليٍّ إسماعيلَ بنَ أحمدَ ابنِ الحُسينِ البيهقيِّ وغيرَهُ . قالَ أبو سعْدٍ : اجتمعتُ معهُ ببغدادَ بالمقتديةِ وكتبَ لي شيئاً من شِعرِهِ ، وكانَ حُفظَةً يسمعُ أربعينَ بيتاً فيحفظُها ، اجتمعتْ فيهِ أسبابُ المنادمةِ والكتابةِ وصُحبةِ الملوكِ ، لهُ هذا البيتُ الفردُ :

وأمّا الحشا منّي فإنّي امتحنتُها
وأدنيتُ منها الجمرَ فاحترقَ الجمرُ

ولهُ :

إذا المرءُ لمْ تغنِ العفاةَ صِلاتُهُ
ولمْ يُرغمِ القومَ العِدى سطَواتُهُ
ولمْ يرضَ في الدُّنيا صديقاً ولمْ يكُنْ
شفيعاً لهُ في الحشرِ منهُ نجاتُهُ
فإنْ شاءَ فليَهلِكْ وإنْ شاءَ فليعِشْ
فسيّانِ عندي موتُهُ وحياتُهُ

قُتِلَ في الوقعةِ الخُوارزمشاهيّةِ بمَرْوَ في ربيعٍ الأوّلِ

سَنَةَ سِتٍّ وَثَلَاثِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ، وَلَهُ كِتَابُ تَعِلَّةِ الْمُشْتَاقِ إِلَى سَاكِنِي الْعِرَاقِ . وَكَانَ أَبُوهُ مُحَمَّدُ بْنُ أَرْسَلَانَ أَيْضًا مِنَ الْفُضَلَاءِ النُّبَلَاءِ . وَلَهُ شِعْرٌ وَرَسَائِلُ وَمَدَحَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ وَرَثَاهُ ، وَكَانَ يُلَقَّبُ مُنْتَجَبَ الْمَلِكِ ، فَلَا أَدْرِي أَهَذَا تَلَقَّبَ بِلَقَبِ أَبِيهِ ؟ أَمْ يُعْرَفُ بِابْنِ الْمُنْتَجَبِ . وَذُكِرَ فِي تَارِيخِ خُوَارِزْمَ أَنَّ مُنْتَجَبَ الْمَلِكِ مُحَمَّدَ بْنَ أَرْسَلَانَ مَاتَ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا .

وَذَكَرَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي[1] شَرْحِ مَقَامَاتِهِ : أَنْشَدَنِي الْكَبِيرُ الْمُنْتَجَبُ أَبُو عَلِيٍّ مُحَمَّدُ بْنُ أَرْسَلَانَ لِنَفْسِهِ بَيْتًا لَوْ وَقَعَ فِي شِعْرِ الْمُتَقَدِّمِينَ لَسَيَّرَتْهُ الرُّوَاةُ ، وَخَلَّدَتْهُ الْأَئِمَّةُ فِي كُتُبِهِمْ ، وَكَمْ مِنْ أَخَوَاتٍ لَهُ ضُيِّعَتْ بِضَيَاعِ الْأَدَبِ وَقِلَّةِ النَّقَلَةِ ، وَاتِّضَاعِ الْهِمَمِ ، وَتَرَاجُعِ الْأُمُورِ عَلَى أَعْقَابِهَا .

وَبَرْدَاهُ مَسْجُورَانِ[2] مِثْلُ هَجِيرِهِ
كَأَنْ لَيْسَ فِيهِ بُكْرَةٌ وَأَصِيلُ

قَالَ : وَمَا أَظُنُّ الْبَرْدَيْنِ وَقَعَا مِثْلَ هَذَا الْمَوْقِعِ مُنْذُ نَطَقَ

---

(١) سقط من الأصل كلمة « فى » (٢) البردان والأبردان : الغداة والعشى ، والمسجور : المحمى فى النار

بِهِمَا وَاضِعُ الْعَرَبِيَّةِ، وَمِنْ شِعْرِ مُنْتَجَبِ الْمَلِكِ مُحَمَّدِ بْنِ أَرْسَلَانَ :

قُلْ لِلْمَلِيحَةِ فِي الْخِمَارِ الْأَحْمَرِ لَا تَجْهَرِي بِدِمَائِنَا وَتَسَتَّرِي
مُكِّنْتِ مِنْ حُبِّ الْقُلُوبِ وِلَايَةً فَمَلَكْتِهَا بِتَعَسُّفٍ وَتَجَبُّرِ
إِنْ تُنْصِفِي فَلَكِ الْقُلُوبُ رَعِيَّةٌ أَوْ تَمْنَعِي حَقًّا فَمَنْ ذَا يَجْتَرِي
سَخَّرْتِنِي وَسَحَرْتِنِي بِنَوَافِثٍ فَتَرَفَّقِي بِمُسَخَّرٍ وَمُسَحَّرِ

(١٢ — عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ مَرْوَانَ*)

علی بن محمد العمرانی

الْعِمْرَانِيُّ الْخُوَارِزْمِيُّ أَبُو الْحَسَنِ الْأَدِيبُ، يُلَقَّبُ حُجَّةَ الْأَفَاضِلِ وَفَخْرَ الْمَشَايِخِ، مَاتَ فِيمَا يُقَارِبُ سَنَةَ سِتِّينَ وَخَمْسِمِائَةٍ. ذَكَرَهُ أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ أَرْسَلَانَ فِي تَارِيخِ خُوَارِزْمَ مِنْ خَطِّهِ فَقَالَ: الْعِمْرَانِيُّ حُجَّةُ الْأَفَاضِلِ سَيِّدُ الْأُدَبَاءِ، قُدْوَةُ مَشَايِخِ الْفُضَلَاءِ، الْمُحِيطُ بِأَسْرَارِ الْأَدَبِ، وَالْمُطَّلِعُ عَلَى غَوَامِضِ كَلَامِ الْعَرَبِ، قَرَأَ الْأَدَبَ عَلَى فَخْرِ خُوَارِزْمَ مَحْمُودِ بْنِ عُمَرَ الزَّمَخْشَرِيِّ فَصَارَ أَكْبَرَ أَصْحَابِهِ، وَأَوْفَرَهُمْ حَظًّا مِنْ غَرَائِبِ آدَابِهِ، لَا يُشَقُّ غُبَارُهُ فِي حُسْنِ الْخَطِّ وَاللَّفْظِ، وَلَا يُمْسَحُ عِذَارُهُ فِي كَثْرَةِ

السَّمَاعِ وَالحِفْظِ، سَمِعَ الحَدِيثَ مِنْ فَخْرِ خُوَارِزْمَ وَالإِمَامِ عُمَرَ التَّرْجُمَانِيِّ وَلَدِ الإِمَامِ أَبِي الحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ أَحْمَدَ المُخِيِّ، وَالإِمَامِ الحَسَنِ بْنِ سُلَيْمَانَ الخُجَنْدِيِّ، وَالقَاضِي عَبْدِ الوَاحِدِ البَاقَرْجِيِّ وَغَيْرِهِمْ، وَكَانَ وَلُوعاً بِالسَّمَاعِ كَتُوباً، وَجَعَلَ فِي آخِرِ عُمْرِهِ أَيَّامَهُ مَقْصُورَةً وَأَوْقَاتَهُ مَوْقُوفَةً عَلَى نَشْرِ العِلْمِ وَإِفَادَتِهِ لِطَالِبِيهِ، وَإِفَاضَتِهِ عَلَى الرَّاغِبِينَ فِيهِ. فُحُولُ العُلَمَاءِ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ وَيَقْرَءُونَ عَلَيْهِ، وَيَفْزَعُونَ فِي حَلِّ المُشْكِلَاتِ وَشَرْحِ المُعْضِلَاتِ إِلَيْهِ، وَهُوَ مَعَ العِلْمِ الغَزِيرِ وَالفَضْلِ الكَثِيرِ عَلَمٌ فِي الدِّينِ وَالصَّلَاحِ المَتِينِ، وَإِنَّهُ فِي الزَّهَادَةِ وَالسَّدَادِ وَحُسْنِ الاعْتِقَادِ أَطْهَرُ أَقْرَانِهِ ذَيْلاً مِنَ العُيُوبِ، وَأَنْقَاهُمْ جَيْباً عَنِ اقْتِرَافِ الذُّنُوبِ، وَكَانَ يَذْهَبُ مَذْهَبَ الرَّأْيِ وَالعَدْلِ، وَلَهُ شِعْرٌ حَسَنٌ، فَمِنْ قَوْلِهِ فِي صِبَاهُ فِي مَدْحِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ يُعَارِضُ قَصِيدَةَ كَعْبِ ابْنِ زُهَيْرٍ:

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي اليَوْمَ مَتْبُولُ (١)

أَضَاءَ بَرْقٌ وَسَجْفُ (٢) اللَّيْلِ مَسْدُولُ

كَمَا يُهَزُّ اليَمَانِي (٣) وَهُوَ مَصْقُولُ

---

(١) المتبول : المقطوع (٢) سجف : ستار (٣) اليماني : السيف

فهَاجَ وَجْدِي بِسعْدَى وَهْىَ نَائِيةٌ
عَنِّى وَقَلْبِي بِالْأَشْوَاقِ مَتْبُولُ
لَمْ يبْقَ لِى مُذ توَلَّى الظَّعْنُ بَاكِرَةً
صَبْرٌ، وَلَمْ يبْقَ لِى قَلْبٌ وَمَعْقُولُ
مهْمَا تذَكَّرْتُهَا فَاضَ الْجُمَانُ (١) عَلَى
خدِّى حَتَّى نِجَادُ السيْفِ مَبْلُولُ
مَا أَنْسَ لَا أَنْسَ إِذْ تَجْلُو عوَارِضَهَا
وَالْجَفْنُ بِالْإِثْمِدِ (٢) الْهِنْدِيِّ مَكْحُولُ
ظَمْأَى الْمُوَشَّحِ رَيَّانٌ مُخَلْخَلُهَا
عَبْلٌ مُؤَزَّرُهَا وَالْمَتْنُ مَجْدُولُ
كَأَنَّمَا هِىَ إِذْ تُرْخِى ذَوَائِبَهَا
بَدْرٌ عَلَيْهَا رِوَاقُ (٣) اللَّيْلِ مَسْدُولُ
كَأَنَّمَا ثَغْرُهَا دُرٌّ إِذَا ابْتَسَمَتْ
وَرِيقُهَا سَحَراً بِالرَّاحِ مَعْلُولُ
يَا حَبَّذَا زَمَنٌ فِيهِ نُسَرُّ بِهَا
وَالشَّعْبُ مُلْتَئِمٌ وَالْحَبْلُ مَوْصُولُ

(١) الجان : حب يعمل من الفضة كالدرر يريد دموعه .
(٢) الاثمد : حجر يكتحل به (٣) رواق الليل : ظلامه

وَمِنْهَا فِي مَدْحِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

هَدَى إِلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ أُمَّتَهُ
وَكُلُّهُمْ بِعِقَالِ الشِّرْكِ مَعْقُولُ
وَكُلُّ أَصْحَابِهِ أَهْوَى وَأَمْنَحُهُمْ
وُدِّي ، وَمُبْغِضُهُمْ فِي الدِّينِ مَدْخُولُ
وَصَاحِبُ الْمُصْطَفَى فِي الْغَارِ يَتْبَعُهُ
وَهُوَ الَّذِي مَالُهُ فِي اللهِ مَبْذُولُ
وَتِلْوُهُ عُمَرُ الْفَارُوقُ أَزْهَرَ ، إِنْ
رَآهُ إِبْلِيسُ وَلَّى وَهُوَ مَخْذُولُ
وَأَقْتَدِي بِابْنِ عَفَّانَ الَّذِي فُرِيَتْ
أَوْدَاجُهُ (١) وَهُوَ بِالْقُرْآنِ مَشْغُولُ
وَبِالْوَصِيِّ ابْنِ عَمِّ الْمُصْطَفَى فَلَهُ
مَنَاقِبٌ جَمَّةٌ فِي شَرْحِهَا طُولُ
وَإِنَّ أَقْضَاهُمُ قَدْ كَانَ أَفْضَلَهُمْ
فَانْظُرْ فَذَا عَنْ رَسُولِ اللهِ مَنْقُولُ

(١) الأوداج : عروق الرقبة

مُحِبَّتِي لَهُمُ دِينِي وَمُعْتَقَدِي
فَإِنْ أَزِغْ عَنْهُمُ غَالَتْنِيَ الْغُولُ

وَلِهَذَا الْإِمَامِ أَشْعَارٌ مِنْ هَذَا النَّمَطِ تَرْكُ الْكَاغِدِ أَبْيَضَ خَيْرٌ مِنْ تَسْوِيدِهِ بِهَا ، وَلَهُ تَصَانِيفُ حِسَانٌ مِنْهَا : كِتَابُ الْمَوَاضِعِ وَالْبُلْدَانِ، كِتَابٌ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ ، كِتَابُ اشْتِقَاقِ الْأَسْمَاءِ .

وَمِنْ شِعْرِهِ الَّذِي أَوْرَدَهُ لِنَفْسِهِ فِي كِتَابِ الْبُلْدَانِ :

رَأَيْتُكَ تَدَّعِي عِلْمَ الْعَرُوضِ كَأَنَّكَ لَسْتَ مِنْهَا فِي عَرُوضِ
فَكَمْ تُزْرِى بِشِعْرٍ مُسْتَقِيمٍ صَحِيحٍ فِي مَوَازِينِ الْعَرُوضِ
كَأَنَّكَ لَمْ تُحِطْ مُذْ كُنْتَ عِلْماً
بِمَخْبُونِ(١) الضُّرُوبِ وَلَا الْعَرُوضِ

﴿ ١٣ — عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ أَبُو الْحَسَنِ السَّخَاوِيُّ * ﴾

على بن محمد السخاوى

وَسَخَا قَرْيَةٌ مِنْ قُرَى مِصْرَ ، كَانَ مَبْدَؤُهُ الِاشْتِغَالَ بِالْفِقْهِ عَلَى مَذْهَبِ مَالِكٍ بِمِصْرَ ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ وَسَكَنَ بِمَسْجِدٍ بِالْقَرَافَةِ يَؤُمُّ فِيهِ مُدَّةً طَوِيلَةً ، فَلَمَّا وَصَلَ

(١) الخبن فى الشعر : حذف ثانى الجزء الساكن

(*) راجع بغية الوعاة

الشَّيْخُ أَبُو القَاسِمِ الشَّاطِبِيُّ إِلَى تِلْكَ الدِّيَارِ وَاشْتَهَرَ أَمْرُهُ، لَازَمَهُ مُدَّةً وَقَرَأَ عَلَيْهِ القُرْآنَ بِالرِّوَايَاتِ، وَتَلَقَّنَ مِنْهُ قَصِيدَتَهُ المَشْهُورَةَ فِي القِرَاءَاتِ، وَكَانَ يُعَلِّمُ أَوْلَادَ الأَمِيرِ ابْنِ مُوسَكَ، وَانْتَقَلَ مَعَهُ إِلَى دِمَشْقَ وَاشْتَهَرَ بِهَا بِعِلْمِ القُرْآنِ، وَعَاوَدَ قِرَاءَةَ القُرْآنِ عَلَى تَاجِ الدِّينِ أَبِي اليُمْنِ الكِنْدِيِّ وَلَازَمَهُ، وَقَرَأَ عَلَيْهِ جُمْلَةً وَافِرَةً مِنْ سَمَاعَاتِهِ فِي الأَدَبِ وَغَيْرِهِ، وَصَارَ لَهُ حَلْقَةٌ بِالجَامِعِ بِدِمَشْقَ، وَتَرَدَّدَ إِلَيْهِ النَّاسُ لِلتَّأَدُّبِ وَشَرَعَ فِي التَّصْنِيفِ، فَلَهُ كِتَابُ الوَحِيدِ فِي شَرْحِ القَصِيدِ يُرِيدُ قَصِيدَةَ الشَّاطِبِيِّ، وَبَسَطَ القَوْلَ وَطَوَّلَ فِي مُجَلَّدَتَيْنِ، كِتَابُ شَرْحِ المُفَصَّلِ، كِتَابٌ فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ، وَكُتِبَتْ هَذِهِ التَّرْجَمَةُ فِي سَنَةِ تِسْعَ عَشْرَةَ وَسِتِّمِائَةٍ وَهُوَ بِدِمَشْقَ كَهْلٌ يَحْيَا.

١٤ — عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الفَصِيحِيُّ (١)

أَبُو الحَسَنِ، مِنْ أَهْلِ أَسْتَرَابَاذَ وَهِيَ مَدِينَةٌ مِنْ طَبَرِسْتَانَ وَرَأْسُ قَصَبَتِهَا، قَرَأَ النَّحْوَ عَلَى عَبْدِ القَاهِرِ الجُرْجَانِيِّ، وَأَخَذَ عَنْهُ أَبُو نِزَارٍ النَّحْوِيُّ وَالحَيْصَ بَيْصَ الشَّاعِرُ. على بن محمد الفصيحى

(١) راجع بغية الوعاة

وَمَاتَ فِيما ذَكَرَهُ السِّلَفِيُّ الْحَافِظُ يَوْمَ الأَرْبَعَاءِ ثَالِثَ عَشَرَ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةَ سِتَّ عَشْرَةَ وَخَمْسِمِائَةٍ ، وَقَدِمَ بَغْدَادَ وَاسْتَوْطَنَهَا إِلَى حِينِ وَفَاتِهِ ، وَدَرَّسَ النَّحْوَ بِالنِّظَامِيَّةِ بَعْدَ الشَّيْخِ أَبِي زَكَرِيَّا يَحْيَى بْنِ عَلِيٍّ الْخَطِيبِ التِّبْرِيزِيِّ ، ثُمَّ اتُّهِمَ بِالتَّشَيُّعِ فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ : لَا أَجْحَدُ ، أَنَا مُتَشَيِّعٌ مِنَ الْفَرْقِ إِلَى الْقَدَمِ فَأُخْرِجَ مِنَ النِّظَامِيَّةِ ، وَرُتِّبَ مَكَانَهُ الشَّيْخُ أَبُو مَنْصُورٍ مَوْهُوبُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْخَضِرِ الْجَوَالِيقِيُّ ، فَكَانَ الْمُتَعَلِّمُونَ يَقْصِدُونَ دَارَهُ الَّتِي انْتَقَلَ إِلَيْهَا لِلْقِرَاءَةِ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُمْ يَوْمًا : دَارِي بِكْرًا ، وَخُبْزِي بِشْرًا ، وَقَدْ جِئْتُمْ تَتَدَحْرَجُونَ إِلَيَّ ، اذْهَبُوا إِلَى مَنْ عَزَلَنَا بِهِ .

وَسُمِّيَ بِالْفَصِيحِيِّ لِكَثْرَةِ دِرَاسَتِهِ كِتَابَ الْفَصِيحِ لِثَعْلَبٍ وَصَارَ لَهُ بِهِ أُنْسٌ ، حَتَّى أَنَّهُ دَخَلَ يَوْمًا عَلَى مَرِيضٍ يَعُودُهُ ، فَقَالَ شِفَاهُ ، وَسَبَقَ عَلَى لِسَانِهِ (١) : وَأَرْخَيْتُ السِّتْرَ ، لِاعْتِيَادِهِ كَثْرَةَ إِعَادَتِهِ .

وَقَدْ رَوَى الْفَصِيحِيُّ عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الْخَطِيبِ الأَقْطَعِ إِنْشَادًا سَمِعَهُ مِنْهُ ابْنُ سِلَفَةَ الأَصْفَهَانِيُّ الْحَافِظُ بِبَغْدَادَ وَقَالَ : جَالَسْتُهُ

---

(١) جملة وأرخيت هى التى سبقت على لسانه

وَسَأَلْتُهُ عَنْ أَحْرُفٍ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ . وَرُوِىَ عَنْهُ فِي مَشْيَخَةِ بَغْدَادَ وَهُوَ الَّذِي عَرَّفَنَا أَنَّ اسْمَ أَبِيهِ مُحَمَّدٌ، وَإِلَّا فَلَا يُعْرَفُ إِلَّا بِعَلِيِّ ابْنِ أَبِي زَيْدٍ الْفَصِيحِيِّ فَقَطْ .

قَرَأْتُ فِي كِتَابِ سُرْعَةِ الْجَوَابِ وَمُدَاعَبَةِ الْأَحْبَابِ تَصْنِيفِ الْحَسَنِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ عَبْدِ الصَّمَدِ بْنِ الْمُتَوَكِّلِ بِخَطِّهِ : أَنْشَدَنِي الشَّيْخُ الْإِمَامُ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي زَيْدٍ الْفَصِيحِيُّ وَقَدْ عَاتَبْتُهُ عَلَى الْوَحْدَةِ فَقَالَ :

اللهَ أَحْمَدُ شَاكِراً فَبَلَاؤُهُ حَسَنٌ جَمِيلُ
أَصْبَحْتُ مَسْتُوراً مَعًا فِي بَيْنَ أَنْعُمِهِ أَجُولُ
خِلْواً مِنَ الْأَحْزَانِ خِفْـ ـفَ الظَّهْرِ يُقْنِعُنِي الْقَلِيلُ
حُرًّا فَلَا مَنٌّ لِمَخْـ ـلُوقٍ عَلَيَّ وَلَا سَبِيلُ
لَمْ يُشْقِنِي حِرْصٌ عَلَى الدُّ نْيَا وَلَا أَمَلٌ طَوِيلُ
سِيَّانِ عِنْدِي ذُو الْغِنَى الْـ ـمِتْلَافُ وَالرَّجُلُ الْبَخِيلُ
وَنَفَيْتُ بِالْيَأْسِ الْمُنَى عَنِّي فَطَابَ لِيَ الْمَقِيلُ
وَالنَّاسُ كُلُّهُمُ لِمَنْ خَفَّتْ مَئُونَتُهُ خَلِيلُ

وَمِنْ كِتَابِهِ أَنْشَدَنَا الْإِمَامُ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي زَيْدٍ فِي

الْمُذَاكَرَةِ وقَدْ رُقِيَ[1] إِلَيْهِ كَلَامٌ قَبِيحٌ عَنْ بَعْضِ أَصْدِقَائِهِ فَقَالَ مُسْتَشْهِداً :

إِنِّى إِذَامَا الْخَلِيلُ أَحْدَثَ لِى صَرْماً وَمَلَّ الصَّفَاءَ أَوْ قَطَعَا
لَا أَحْتَسِى مَاءَهُ عَلَى رَنَقٍ وَلَا يَرَانِى لِبَيْنِهِ جَزِعَا
أَهْجُرُهُ ثُمَّ يَنْقَضِى زَمَنُ الْـ ـهِجْرَانِ عَنَّا وَلَمْ أَقُلْ قَذَعَا
إِحْذَرْ وِصَالَ اللَّئِيمِ إِنَّ لَهُ
عَضْهاً[2] إِذَا حَبْلُ ذِكْرِهِ انْقَطَعَا

وَقَرَأْتُ بِخَطِّ الشَّيْخِ أَبِى مُحَمَّدِ بْنِ الْخَشَّابِ ، قَالَ الشَّيْخُ أَبُو مَنْصُورٍ مَوْهُوبُ بْنُ أَحْمَدَ وَقَدْ جَرَى ذِكْرُ الشَّيْخِ أَبِى الْحَسَنِ ابْنِ أَبِى زَيْدٍ الْأَسْتَرَابَاذِىِّ الْمَعْرُوفِ بِالْفَصِيحِىِّ صَاحِبِ عَبْدِ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِىِّ — رَحِمَهُمُ اللهُ — ، قَالَ لِى الشَّيْخُ أَبُو زَكَرِيَّا يَحْيَى بْنُ عَلِىٍّ الْخَطِيبُ التَّبْرِيزِىُّ — رَحِمَهُ اللهُ — : إِنَّهُ حَضَرَ مَعَهُ أَعْنِى الْفَصِيحِىَّ حَلْقَةً يُبَاعُ فِيهَا الْكُتُبُ ، فَنُودِىَ عَلَى كِتَابٍ فِيهِ شَىْءٌ مِنْ مُصَنَّفَاتِ أَبِى طَالِبٍ الْمُفَضَّلِ بْنِ سَلَمَةَ بْنِ عَاصِمٍ وَرَّاقِ الْفَرَّاءِ وَعَلَيْهِ اسْمُ الْمُفَضَّلِ مَنْسُوباً إِلَى النَّحْوِ ، فَقِيلَ النَّحْوِىُّ ، فَأَخَذَهُ الْفَصِيحِىُّ

(١) أى دفع (٢) أى تمزيقا وتفريقا

وَناوِلنيهِ ، « يَقولُهُ أَبو زَكَرِيّا » . وَقالَ لِي كَالمستهزِئِ : النَّحوِيُّ ، أَيْ قَدْ نَسَبْتَهُ إِلَى النَّحْوِ وَهُوَ عِنْدَهُ مُقَصِّرٌ أَيْ لا يَسْتَحِقُّ هٰذَا الوَصْفَ . قالَ : فَقُلْتُ : تَكُونُ أَنْتَ نَحْوِيًّا وَلا يَكُونُ المُفَضَّلُ مَنْسُوبًا إِلَى النَّحْوِ .

قالَ الشَّيْخُ أَبو مُحَمَّدٍ : لا شُبْهَةَ فِي أَنَّ الَّذِي حَمَلَ الفَصِيحِيَّ عَلَى الغَضِّ بِهٰذَا القَوْلِ مِنَ المُفَضَّلِ : أَنَّهُ قَدْ وَقَفَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ كَلامِهِ فِي بَعْضِ مُصَنَّفاتِهِ مِمّا يَتَسَمَّحُ بِهِ أَهْلُ الكُوفَةِ مِمّا يَراهُ أَهْلُ البَصْرَةِ خَطَأً أَوْ كَالخَطَإِ ، وَذاكَ مِمّا لا يَحْتَمِلُهُ الفَصِيحِيُّ وَلا شَيْخُهُ عَبْدُ القاهِرِ ، وَلا شَيْخُهُ ابْنُ عَبْدِ الوارِثِ أَبو الحُسَيْنِ فَيَغُضُّوا عَلَيْهِ ، لِأَنَّ طَرِيقَتَهُمُ الَّتِي يَسْلُكُونَها فِي الصِّناعَةِ مُنْحَرِفَةٌ عَنْ طَرِيقَةِ المُفَضَّلِ وَمَنْ جَرَى فِي أُسْلُوبِهِ كُلَّ الانْحِرافِ .

قالَ الشَّيْخُ أَبو مُحَمَّدِ بْنُ الخَشّابِ : وَعَلَى أَنِّي قَرَأْتُ أَنا بِخَطِّ المُفَضَّلِ فِي كِتابِهِ الَّذِي سَمّاهُ البارِعَ فِي الرَّدِّ عَلَى كِتابِ العَيْنِ فِي اللُّغَةِ أَشْياءَ تَدُلُّ عَلَى قُصُورِهِ فِي الصِّناعَةِ وَضَعْفِهِ فِي قِياسِها ، مِنْها : أَنَّهُ ذَكَرَ الحُرُوفَ الَّتِي جاءَتْ لِمَعانٍ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ أَبْنِيَةَ الكَلامِ فَقالَ : وَالحَدُّ الثّالِثُ مِنَ الكَلامِ الأَحْداثُ ،

وَهِيَ الَّتِي يُسَمِّيهَا أَهْلُ الْبَصْرَةِ حُرُوفَ الْمَعَانِي ، فِيهَا مَاهُوَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحْرُفٍ نَحْوُ إِنَّ وَلَيْتَ وَكَيْفَ وَأَيْنَ ،فَعَدَّ كَمَا تَرَى كَيْفَ وَأَيْنَ فِي حُرُوفِ الْمَعَانِي وَهَذَا سَهْلٌ عِنْدَهُمْ ، ثُمَّ قَالَ : وَمِنْهَا مَاهُوَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَحْرُفٍ نَحْوُ حَاشَا وَلَوْلَا ، وَمِنْهَا مَاهُوَ عَلَى خَمْسَةِ أَحْرُفٍ نَحْوُ مَاخَلَاوَمَاعَدَا. وَجَعْلُهُ الْحَرْفَيْنِ مَعَ مَا وَاحِداً، وَعَدُّهُ لَهُمَا فِيمَا بُنِيَ مِنْ أُصُولِ الْكَلِمِ عَلَى خَمْسَةِ أَحْرُفٍ مِنْ أَفْحَشِ الْخَطَإِ وَأَنْزَلِهِ ، وَلَوْ وُفِّقَ لَذَكَرَ لَكِنَّ وَمَثَّلَ بِهَا ، فَلَيْسَ فِي حُرُوفِ الْمَعَانِي مَاهُوَ عَلَى خَمْسَةِ أَحْرُفٍ سِوَى لَكِنَّ . وَمَرَّتْ بِي فِيمَا قَرَأْتُهُ بِخَطِّهِ أَشْيَاءُ غَيْرُ هَذَا تَجْرِي فِي التَّسَمُّحِ مَجْرَاهُ .

قَرَأْتُ بِخَطِّ الشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدِ بْنِ الْخَشَّابِ : كَانَ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي زَيْدٍ الْأَسْتَرَابَاذِيُّ الْمَعْرُوفُ بِالْفَصِيحِيِّ يَقُولُ فِي الشَّجَّةِ الَّتِي تُعْرَفُ عِنْدَهُمْ بِالْمُنَقِّلَةِ ، وَهِيَ الَّتِي تُنْقَلُ مِنْهَا الْعِظَامُ إِنَّهَا الْمُنْقِلَةُ بِكَسْرِ الْقَافِ ، وَيَرَى كَوْنَهَا عَلَى صِيغَةِ الْفَاعِلِ لَا الْمَفْعُولِ هُوَ الْوَجْهَ ، وَلَا يُجِيزُ غَيْرَهُ وَيَقُولُ :الشِّجَاجُ كُلُّهَا إِنَّمَا جَاءَتْ عَلَى صِيغَةِ الْفَاعِلِ كَالْحَارِصَةِ وَالدَّامِيَةِ وَالدَّامِعَةِ وَالدَّامِغَةِ وَالْبَاضِعَةِ وَالْمُتَلَاحِمَةِ وَالْمُوضِّحَةِ وَالْمُفَرِّشَةِ

وَأَشْبَاهِهِنَّ [١] . قَالَ : وَكَذَا يَنبَغِي أَنْ تَكُونَ الْمُنَقِّلَةُ بِكَسْرِ الْقَافِ وَكَأَنَّهَا عِندَهُ رِوَايَةٌ عَضَدَهَا قِيَاسٌ . قَالَ : وَكَانَ شَيْخُنَا مَوْهُوبُ بْنُ أَحْمَدَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَنْعِي ذَلِكَ عَلَيْهِ وَيَعُدُّهُ تَصْحِيفاً وَيَضْبِطُ اللَّفْظَةَ بِفَتْحِ الْقَافِ عَلَى أَنَّهَا صِيغَةُ مَفْعُولٍ وَيَكْتُبُ فَوْقَ الْقَافِ مَاهَذِهِ صُورَتُهُ « فَتْحٌ » وَيَقُولُ : أَيُّ قِيَاسٍ مَعَ الرِّوَايَةِ هَذَا ؟ وَهِيَ تُنْقَلُ مِنهَا الْعِظَامُ فَيَتَعَلَّقُ أَيْضاً بِالتَّفْسِيرِ ، وَلَعَمْرِي إِنَّ الْأَشْهَرَ فِيهَا الْفَتْحُ وَهَذَا ذَكَرَهُ أَبُو عُبَيْدٍ وَابْنُ السِّكِّيتِ عَنِ الْأَصْمَعِيِّ . قَالَ : ثُمَّ الْمُنَقَّلَةُ وَهِيَ الَّتِي يَخْرُجُ مِنهَا الْعِظَامُ ، وَكَانَ شَيْخُنَا مَوْهُوبٌ رَحِمَهُ اللهُ يَرَى الْكَسْرَ فِي قَافِ الْمُنَقَّلَةِ تَصْحِيفاً مَحْضاً لَاوَجْهَ لَهُ ، عَلَى أَنَّ أَبَا مُحَمَّدِ بْنَ دَرَسْتَوَيْهِ قَدْ حَكَى عَنْهُ الْكَسْرَ كَمَا قَالَ الْفَصِيحِيُّ .

قَالَ : وَقَرَأْتُ بِخَطِّ الْعَبْدَرِيِّ وَأَخْبَرَنِي بِهِ فِي كِتَابِهِ قَالَ :

---

(١) تفسير هذه الكلمات ما يأتى : الحارصة : الشجة تشق الجلد قليلا ، والدامية : شجة تدمى ولاتسيل ، والدامعة : تلى الدامية ، والدامغة : شجة تبلغ الدماغ ، والباضعة : تشق الجلد وتقطع اللحم ، والمتلاحمة . الشجة فى الرأس لم تبلغ السمحاق ، وهو قشرة فوق عظم الرأس ، والموضحة : ما أبدت وضح العظم ، والمفرشة : ما صدعت العظم .

« عبد الخالق »

سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الْعَالِي اللُّغَوِيَّ يَقُولُ : رُوِيتْ بِالْوَجْهَيْنِ جَمِيعاً .
وَحَكَى الْعَبْدَرِيُّ الْكَسْرَ عَنِ ابْنِ دَرَسْتَوَيْهِ أَيْضاً ، وَلَسْتُ
أَدْرِي هَلْ تَعَلَّقَ الْفَصِيحِيُّ فِيمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ بِقَوْلِ ابْنِ دَرَسْتَوَيْهِ
أَوْ غَيْرِهِ مِمَّنْ لَعَلَّهُ حَكَى الْكَسْرَ أَمْ لَا ؟ وَهَلْ رَغِبَ شَيْخُنَا
مَوْهُوبٌ عَنِ الْكَسْرِ بَعْدَ أَنْ عَلِمَ أَنَّهُ قَدْ حُكِيَ وَلَمْ يَعْتَدَّ
بِمَكَانَةِ مَنْ حَكَاهُ أَمْ لَا ؟ وَالْأَشْبَهُ أَنَّهُ لَا يَكُونُ بَلَغَهُ ، فَإِنَّهُ
قَلَّمَا كَانَ يَدْفَعُ قَوْلًا لِمُتَقَدِّمٍ وَلَوْ ضَعُفَ . وَأَنَا أَقُولُ : إِنَّ النِّزَاعَ
فِي هَذِهِ اللَّفْظَةِ وَشِبْهِهَا الْمَرْجِعُ فِيهِ إِلَى مَحْضِ الرِّوَايَةِ عَنْهُمْ ،
وَالْمُعَوَّلُ فِي ذَلِكَ عَلَى مَا يَضْبِطُهُ الْأَثْبَاتُ فِيهَا ، وَقَدْ قَدَّمْتُ أَنَّ
مِنَ الْمَشْهُورِ فِيهَا الْفَتْحَ كَمَا قَالَ شَيْخُنَا مَوْهُوبٌ ، وَلَا حُجَّةَ لَهُ فِي
أَنَّهُمْ فَسَّرُوهَا بِأَنَّهَا تُخْرِجُ مِنْهَا الْعِظَامُ وَتَنْقُلُ ، فَإِنَّا لَوْ خُلِّينَا
وَهَذَا الْحِجَاجَ وَوُكِّلْنَا فِي إِثْبَاتِ لُغَةِ الْفَتْحِ إِلَيْهِ لَكَانَ لِلْخَصْمِ
أَنْ يَقُولَ : إِنَّ الشَّجَّةَ وَهِيَ الضَّرْبَةُ الَّتِي أَدَّتْ إِلَى نَقْلِ الْعِظَامِ
فَهِيَ الْمُنَقِّلَةُ لِأَنَّهَا حُمِلَتْ عَلَى النَّقْلِ ، وَلَا حُجَّةَ لِشَيْخِنَا الْفَصِيحِيِّ
أَيْضاً مَعَ اشْتِهَارِ الْفَتْحِ فِيهَا فِي حَمْلِهِ إِيَّاهَا عَلَى الْفَاعِلِ مِنْ
نَظَائِرِهَا ، لِأَنَّهُمْ قَالُوا فِي الْآمَّةِ : الْمَأْمُومَةُ كَمَا قَالَ يَصِفُ ضَرْبَةً :

يَحُجُّ مَأْمُومَةً فِي قَعْرِهَا لَجَفُ

فَاسْتُ الطَّبِيبِ قَذَاهَا كَالْمَغَارِيدِ (١)

عَلَى أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَتَأَوَّلَ الْمَأْمُومَةَ عَلَى مَعْنَى: يَحُجُّ هَامَةً مَأْمُومَةً، وَقَدْ قَالُوا فِي الْمَشْجُوجِ نَفْسِهِ مَأْمُومٌ وَأَمِيمٌ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ أَرَادَ الشَّجَّةَ، وَقَدْ جَاءَ فِي الشِّجَاجِ مَا لَيْسَ عَلَى صِيغَةِ فَاعِلٍ وَلَا مَفْعُولٍ السِّمْحَاقُ، فَهَلْ هَذِهِ إِلَّا مَحْضُ رِوَايَةٍ فِي التَّسْمِيَةِ؟ وَإِنْ كَانَ مَنْقُولًا، فَاعْرِفْ مَا قَالَ شَيْخَانَا — رَحِمَهُمَا اللهُ — وَقُلْنَاهُ، وَمِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ نَسْتَمِدُّ التَّوْفِيقَ.

وَمِنْ خَطِّ ابْنِ الْمُتَوَكِّلِ: حَدَّثَنِي الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْفَصِيحِيُّ قَالَ: رَأَيْتُ بَعْضَ الْمُوَسْوِسِينَ فِي الْمَارِسْتَانِ وَفِي إِبْهَامِهِ أَثَرُ الْحِنَّاءِ دُونَ أَصَابِعِهِ فَقُلْتُ لَهُ: مَا مَعْنَى الْحِنَّاءِ فِي الْإِبْهَامِ دُونَ سَائِرِ الْأَصَابِعِ؟ فَأَنْشَدَنِي:

وَخَاضِبَةٍ إِبْهَامَهَا دُونَ غَيْرِهِ ... رَأَتْنِي وَقَدْ أَعْيَا عَلَى تَصَبُّرِي

---

(١) قال فى اللسان: ان الحج معالجة المأمومة ووصفها بأن قعرها فيه لجف: وهو الحفرة، وفسر ابن دريد البيت فقال وصف الشاعر «عذار بن درة الطائى» الطبيب فقال: يداوى شجة بعيدة الغور، ولجزعه من هولها يخرج القذى من استه كأنه المغاريد جمع مغرود بضم الميم: الصمغ. وقال غيره: إن است الطبيب: الميل يسبر به الجرح ويشبه مايخرج منها عند سبرها ويعلق بالميل بالمغاريد. وقيل: إن الحج سبر الجرح ليعرف مدى غوره «عبد الخالق»

فَقُلْتُ لَهَا: الْإِبْهَامُ مَا اسْمُ خِضَابِهِ
فَقَالَتْ: يُسَمَّى عَضَّةَ الْمُتَفَكِّرِ

١٥ — عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ السَّكُونِ *

على بن محمد ابن السكون

الْحِلِّيُّ أَبُو الْحَسَنِ، مِنْ حِلَّةِ بَنِي مَزْيَدَ بِأَرْضِ بَابِلَ، كَانَ عَارِفاً بِالنَّحْوِ وَاللُّغَةِ، حَسَنَ الْفَهْمِ جَيِّدَ النَّقْلِ، حَرِيصاً عَلَى تَصْحِيحِ الْكُتُبِ، لَمْ يَضَعْ قَطُّ فِي طِرْسِهِ إِلَّا مَاوَعَاهُ قَلْبُهُ، وَفَهِمَهُ لُبُّهُ، وَكَانَ يُجِيدُ قَوْلَ الشِّعْرِ. وَحَكَى لِي عَنْهُ الْفَصِيحُ ابْنُ عَلِيٍّ الشَّاعِرُ أَنَّهُ كَانَ نُصَيْرِيًّا. قَالَ لِي: وَمَاتَ فِي حُدُودِ سَنَةِ سِتِّمِائَةٍ، وَلَهُ تَصَانِيفُ.

١٦ — عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ بْنِ خَرُوفٍ *

على بن محمد ابن خروف

الْأَنْدَلُسِيُّ الرُّنْدِيُّ النَّحْوِيُّ، مَشْهُورٌ فِي بِلَادِهِ مَذْكُورٌ بِالْعِلْمِ وَالْفَهْمِ، مَاتَ فِيمَا أَخْبَرَنِي بِهِ الْفَقِيهُ شَمْسُ الدِّينِ أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ يُوسُفَ الْغُمَارِيُّ غِيلَةً (١) فِي سَنَةِ سِتٍّ وَسِتِّمِائَةٍ بِإِشْبِيلِيَةَ عَنْ خَمْسٍ وَثَمَانِينَ سَنَةً، وَكَانَ قَدْ تَغَيَّرَ عَقْلُهُ

(١) كانت هذه الكلمة فى الأصل قبيلة . وقد جاء فى بغية الوعاة أنه وقع فى جب ليلا فمات .

(*) ترجم له فى كتاب بغية الوعاة

(*) راجع بغية الوعاة وكتاب أنباه الرواة

حَتَّى مَشَى فِي الْأَسْوَاقِ مَكْشُوفَ الرَّأْسِ وَالْعَوْرَةِ، وَأَخَذَ النَّحْوَ عَنِ الْأُسْتَاذِ أَبِي الْحَسَنِ بْنِ طَاهِرٍ الْمَعْرُوفِ بِالْخِدَبِّ صَاحِبِ الْحَوَاشِي عَلَى كِتَابِ سِيبَوَيْهِ بِمَدِينَةِ فَارِسَ، وَكَانَ ابْنُ خَرُوفٍ خَيَّاطًا إِذَا اكْتَسَبَ مِنْهَا شَيْئًا قَسَمَ مَا يَحْصُلُ لَهُ نِصْفَيْنِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أُسْتَاذِهِ، وَكَانَ فِي خُلُقِهِ زَعَارَّةٌ وَسُوءُ عِشْرَةٍ، وَلَمْ يَتَزَوَّجْ قَطُّ، وَكَانَ يَسْكُنُ الْخَانَاتِ.

قَالَ: وَحَدَّثَنِي بِبَدْءِ اشْتِغَالِهِ أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ يَخْلُفَ السَّلَاوِيُّ «مَدِينَةٌ بِالْعُدْوَةِ مِنَ الْمَغْرِبِ» قَالَ: إِنَّهُ أَوَّلَ يَوْمٍ دَخَلَ عَلَى أَبِي طَاهِرٍ شَكَا إِلَيْهِ الْفَقْرَ وَقَالَ: إِنَّكَ لَتَأْخُذُ مِنِّي أَكْثَرَ مِمَّا تَأْخُذُ مِنَ الْأَعْيَانِ. فَقَالَ: شَرُّكَ أَعْظَمُ مِنْ شَرِّهِمْ عَلَيَّ فِي الْمَجْلِسِ، وَكَانَ يَأْمُرُنِي بِنَقْلِ الْمَاءِ إِلَى الْمَسْجِدِ إِذَا احْتَاجَ إِلَى اسْتِعْمَالِهِ فَأَقُولُ لَهُ فِي ذَلِكَ فَيَقُولُ: لَا أُحِبُّ أَنْ تَجْلِسَ بِغَيْرِ شُغْلٍ، وَلَمْ يَتَّخِذْ بَلَدًا مَوْطِنًا بَلْ كَانَ يَنْتَقِلُ فِي الْبِلَادِ فِي طَلَبِ التِّجَارَةِ، وَلَهُ تَصَانِيفُ مِنْهَا: كِتَابُ شَرْحِ سِيبَوَيْهِ حَمَلَهُ إِلَى صَاحِبِ الْمَغْرِبِ فَأَعْطَاهُ أَلْفَ دِينَارٍ، وَلَهُ كِتَابُ شَرْحِ الْجُمَلِ فِي جِلْدٍ وَاحِدٍ.

﴿١٧ – عَلِيُّ بْنُ مَعْقِلٍ أَبُو الْحَسَنِ *﴾

على بن معقل الأديب

ذَكَرَهُ الْحَبَّالُ فِي كِتَابِ الْوَفَيَاتِ فَقَالَ: أَبُو الْحَسَنِ بْنُ مَعْقِلٍ الْأَدِيبُ الْكَاتِبُ صَاحِبُ أَبِي عَلِيٍّ الْفَارِسِيِّ وَلَمْ يَذْكُرِ اسْمَهُ، فَكَتَبْتُهُ أَنَا كَمَا تَرَى بِالْوَهْمِ إِلَى أَنْ يَصِحَّ، قَالَ: مَاتَ فِي رَبِيعٍ الْآخِرِ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ.

﴿١٨ – عَلِيُّ بْنُ الْمُغِيرَةِ الْأَثْرَمُ أَبُو الْحَسَنِ *﴾

على بن المغيرة الأثرم

كَانَ صَاحِبَ كُتُبٍ مُصَحَّحَةٍ قَدْ لَقِيَ بِهَا الْعُلَمَاءَ وَضَبَطَ مَا ضَمَّنَهَا، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ حِفْظٌ، لَقِيَ أَبَا عُبَيْدَةَ وَالْأَصْمَعِيَّ وَأَخَذَ عَنْهُمَا، مَاتَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَمِائَتَيْنِ، وَهِيَ السَّنَةُ الَّتِي مَاتَ فِيهَا الْوَاثِقُ، وَلَهُ مِنَ الْكُتُبِ: كِتَابُ النَّوَادِرِ، كِتَابُ غَرِيبِ الْحَدِيثِ.

وَحَدَّثَ أَبُو مِسْحَلٍ عَبْدُ الْوَهَّابِ قَالَ: كَانَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ صُبَيْحٍ الْكَاتِبُ قَدْ أَقْدَمَ أَبَا عُبَيْدَةَ مِنَ الْبَصْرَةِ فِي أَيَّامِ الرَّشِيدِ إِلَى بَغْدَادَ، وَأَحْضَرَ الْأَثْرَمَ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ وَرَّاقٌ وَجَعَلَهُ فِي دَارٍ مِنْ

(*) راجع بغية الوعاة

(*) راجع بغية الوعاة

دُورِهِ وأَغلقَ عليهِ الْبابَ ودفعَ إليهِ كُتُبَ أَبي عُبَيْدَةَ وأَمرَهُ بنسخِها ، فَكُنْتُ أَنا وجماعةٌ مِنْ أَصحابِنا نصيرُ إلى الأثرمِ فيدفعُ إلينا الْكتابَ والْورقَ الأَبيضَ منْ عِنْدِهِ ، ويسأَلُنا نسْخَهُ وتعجيلَهُ ويُوافِقُنا على الْوقتِ الّذي نردُّهُ إليهِ فكنّا نفعلُ ذلِكَ ، وكانَ الأثرمُ يقرأُ على أَبِي عُبَيْدَةَ ، وكانَ أَبو عُبَيْدَةَ منْ أَضنِّ النّاسِ بِكُتُبِهِ ، ولوْ عَلِمَ ما فعلَهُ الأثرمُ لَمنعَهُ مِنْ ذَلِكَ ، وكانَ الأثرمُ يقولُ الشِّعْرَ ، فمِنْ قولِهِ :

كَبِرْتُ وجاءَ الشّيْبُ والضَّعفُ والْبِلَى
وكلُّ امْرِىءٍ يَبْلَى إذا عاشَ ما عِشْتُ
أَقولُ وقدْ جاوزْتُ تِسعينَ حِجّةً :
كأَنْ لمْ أَكُنْ فيها وَليداً وقدْ كُنْتُ
وأَنكرْتُ لمّا أَنْ مضَى جُلُّ قُوّتِي
وتزدادُ ضعفاً قُوّتِي كلّما زِدْتُ
كأَنِّي إذا أَسرعْتُ في الْمشْيِ واقِفٌ
لِقُرْبِ خُطًى ما مسَّها قِصَراً وَقْتُ
وصِرْتُ أَخافُ الشّيْءَ كانَ يخافُني
أُعَدُّ مِنَ الْموْتَى لِضَعْفِي وما مِتُّ

وَأَسْهَرُ مِنْ بَرْدِ الْفِرَاشِ وَلِينِهِ
وَإِنْ كُنْتُ بَيْنَ الْقَوْمِ فِى مَجْلِسٍ نِمْتُ

﴿ ١٩ – عَلِيُّ بْنُ مُنْجِبِ بْنِ سُلَيْمَانَ الصَّيْرَفِىُّ أَبُو الْقَاسِمِ * ﴾

على بن منجب الصيرفى

أَحَدُ فُضَلَاءِ الْمِصْرِيِّينَ وَبُلَغَائِهِمْ، مُسَلَّمٌ ذَلِكَ لَهُ غَيْرَ مُنَازَعٍ فِيهِ، وَكَانَ أَبُوهُ صَيْرَفِيًّا وَاشْتَهَى هُوَ الْكِتَابَةَ فَمَهَرَ فِيهَا، مَاتَ فِى أَيَّامِ الصَّالِحِ بْنِ رُزَّيْكَ بَعْدَ خَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ وَقَدِ اشْتَهَرَ ذِكْرُهُ وَعَلَا شَأْنُهُ فِى الْبَلَاغَةِ وَالشِّعْرِ وَالْخَطِّ، فَإِنَّهُ كَتَبَ خَطًّا مَلِيحًا وَسَلَكَ فِيهِ طَرِيقَةً غَرِيبَةً، وَاشْتَغَلَ بِكِتَابَةِ الْجَيْشِ وَالْخَرَاجِ مُدَّةً، ثُمَّ اسْتَخْدَمَهُ الْأَفْضَلُ بْنُ أَمِيرِ الْجُيُوشِ وَزِيرُ الْمِصْرِيِّينَ فِى دِيوَانِ الْمُكَاتَبَاتِ وَرَفَعَ مِنْ قَدْرِهِ وَشُهْرَتِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَعْزِلَ الشَّيْخَ ابْنَ أَبِى أُسَامَةَ عَنْ دِيوَانِ الْإِنْشَاءِ وَيُفْرِدَ ابْنَ الصَّيْرَفِىِّ بِهِ، وَاسْتَشَارَ فِى ذَلِكَ بَعْضَ خَوَاصِّهِ وَمَنْ يَأْنَسُ بِهِ فَقَالَ لَهُ: إِنْ قَدَرْتَ أَنْ تَفْدِىَ ابْنَ أَبِى أُسَامَةَ مِنَ الْمَوْتِ يَوْمًا وَاحِدًا بِنِصْفِ مَمْلَكَتِكَ فَافْعَلْ ذَلِكَ، وَلَا تُخْلِ الدَّوْلَةَ مِنْهُ فَإِنَّهُ جَمَالُهَا، فَأَضْرَبَ عَنِ ابْنِ الصَّيْرَفِىِّ وَمَاتَ الْأَفْضَلُ، وَخَدَمَ الْحَافِظَ الْمُسَمَّى بِالْخِلَافَةِ بِمِصْرَ، وَلِابْنِ

(*) راجع بغية الوعاة

الصَّيْرَفِىُّ مِنَ التَّصَانِيفِ : كِتَابُ الإِشَارَةِ فِيمَنْ نَالَ رُتْبَةَ الْوَزَارَةِ ، كِتَابُ عُمْدَةِ الْمُحَادَثَةِ ، كِتَابُ عَقَائِلِ الْفَضَائِلِ ، كِتَابُ اُسْتِنْزَالِ الرَّحْمَةِ ، كِتَابُ مَنَائِحِ الْقَرَائِحِ ، كِتَابُ رَدِّ الْمَظَالِمِ ، كِتَابُ لُمَحِ الْمُلَحِ ، كِتَابٌ فِى السُّكْرِ ، وَلَهُ غَيْرُ ذَلِكَ مِنَ التَّصَانِيفِ ، وَلَهُ اُخْتِيَارَاتٌ كَثِيرَةٌ لِدَوَاوِينِ الشُّعَرَاء كَدِيوَانِ اُبْنِ السَّرَّاجِ ، وَأَبِى الْعَلَاءِ الْمَعَرِّىِّ وَغَيْرِهِمَا . وَمِنْ شِعْرِهِ قَوْلُهُ :

لَمَّا غَدَوْتَ مَلِيكَ الْأَرْضِ أَفْضَلَ مَنْ
جَلَّتْ مَفَاخِرُهُ عَنْ كُلِّ إِطْرَاءِ
تَغَايَرَتْ أَدَوَاتُ النُّطْقِ فِيكَ عَلَى
مَا يَصْنَعُ النَّاسُ مِنْ نَظْمٍ وَإِنْشَاءِ

وَلَهُ :

لَا يَبْلُغُ الْغَايَةَ الْقُصْوَى بِهِمَّتِهِ
إِلَّا أَخُو الْحَرْبِ وَالْجُرْدِ السَّلَاهِيبِ (١)
يَطْوِى حَشَاهُ إِذَا مَا اللَّيْلُ عَانَقَهُ
عَلَى وَشِيجٍ (٢) مِنَ الْخَطِّىِّ مَخْضُوبِ

(١) السلاهيب : الطوال (٢) يريد أنه ينام مطويا على الرماح المخضبة بالدم ، والوشيج : شجر الرماح

وَلَهُ :

هَذِي مَنَاقِبُ قَدْ أَغْنَاهُ أَيْسَرُهَا

عَنِ الَّذِي شَرَعَتْ آبَاؤُهُ الْأُوَلُ

قَدْ جَاوَزَتْ مَطْلَعَ الْجَوْزَاءِ وَارْتَفَعَتْ

بِحَيْثُ يَنْحَطُّ عَنْهَا الْحُوتُ وَالْحَمَلُ

وَلِابْنِ الصَّيْرَفِيِّ رَسَائِلُ أَنْشَأَهَا عَنْ مُلُوكِ مِصْرَ تَزِيدُ عَلَى أَرْبَعِ مُجَلَّدَاتٍ .

﴿ ٢٠ – عَلِيُّ بْنُ مَنْصُورِ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ الْخَطِيبِيُّ * ﴾

علي بن منصور الخطيبي

الْمَعْرُوفُ بِالْأَجَلِّ اللُّغَوِيِّ. يُكْنَى أَبَا عَلِيٍّ، الْأَصْبَهَانِيُّ الْأَصْلِ بَغْدَادِيُّ الْمَوْلِدِ وَالْمَنْشَإِ، عَالِمٌ فَاضِلٌ لُغَوِيٌّ فَقِيهٌ كَاتِبٌ مُقِيمٌ بِالنِّظَامِيَّةِ، قَرَأَ عَلَى ابْنِ الْقَصَّارِ وَأَبِي الْبَرَكَاتِ الْأَنْبَارِيِّ وَغَيْرِهِمَا، وَتَفَقَّهَ عَلَى مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ بِالنِّظَامِيَّةِ وَلَا أَعْلَمُ لَهُ فِي زَمَانِهِ نَظِيرًا فِي عِلْمِ اللُّغَةِ، فَإِنَّهُ حَدَّثَنِي أَنَّهُ كَانَ فِي صِبَاهُ يَكْتُبُ كُلَّ يَوْمٍ نِصْفَ جُزْءٍ خَمْسَ قَوَائِمَ مِنْ كِتَابِ مُجْمَلِ اللُّغَةِ لِابْنِ فَارِسٍ وَيَحْفَظُهُ وَيَقْرَؤُهُ عَلَى عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ الرَّحِيمِ السُّلَمِيِّ الْمَعْرُوفِ بِابْنِ

(*) راجع أنباء الرواة

القِصَارِ، حتّى أنهى الكتاب حفظاً وكتابةً، وحفظ إصلاح المنطق في أيسرِ مُدّةٍ، وحفظ غير ذلك من كُتُبِ اللغة والفقه والنحو، وطالع أكثر كُتُب الأدب، وهو حفظة لكثيرٍ من الأشعار والأخبار، مُمتِع المحاضرة إلّا أنّه لا يتصدّى للإقراء، ولقد سألته في ذلك وخضعت إليه بكلّ وجهٍ فلم ينقد لذلك، ولا يكاد أحد يراه جالساً وإنّما هو في جميع أوقاته قائم على رجله في النظامية، ولو جلس للإقراء لأحيا علوم الأدب، ولضربت إليه آباط[1] الإبل في الطلب، بلغني أنّ مولده سنة سبعٍ وأربعين وخمسمائة.

أنشدني أبو الحسن عليّ بن الحسين بن عليّ السنجاوي يُعرف بابن ذُنابة قال: أنشدني الأجلّ عليّ بن منصور اللغوي لنفسه:

فؤادٌ مُعنّى بالعيونِ الفواترِ
وصبوةُ بادٍ[2] مُغرمٍ بالحواضرِ

سميرانِ ذادا عن جفونِ مُتيّمٍ
كراها وباتا عنده شرّ سامرِ

(١) ضربت آباط الابل : أي قطعت الأراضي بالسير على ظهور الابل

(٢) أي ساكن بالبادية

وَأَنْشَدَنِي قَالَ أَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ :

لِمَنْ غَزَالٌ بِأَعْلَى رَامَةٍ[١] سَنَحَا ؟
فَعَاوَدَ الْقَلْبَ سُكْرٌ كَانَ مِنْهُ صَحَا
مُقَسَّمٌ بَيْنَ أَضْدَادٍ فَطُرَّتُهُ
جُنْحٌ وَغُرَّتُهُ فِي الْجُنْحِ ضَوْءُ ضُحَا

﴿ ٢١ – عَلِيُّ بْنُ مَنْصُورِ بْنِ طَالِبٍ الْحَلَبِيُّ الْمُلَقَّبُ دَوْخَلَةَ* ﴾

على بن منصور الحلبي

يُعْرَفُ بِابْنِ الْقَارِحِ ، وَهُوَ الَّذِي كَتَبَ إِلَى أَبِي الْعَلَاءِ رِسَالَةً مَشْهُورَةً تُعْرَفُ بِرِسَالَةِ ابْنِ الْقَارِحِ ، وَأَجَابَهُ عَنْهَا أَبُو الْعَلَاءِ بِرِسَالَةِ الْغُفْرَانِ ، يُكْنَى أَبَا الْحَسَنِ . قَالَ ابْنُ عَبْدِ الرَّحِيمِ : هُوَ شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ شَاهَدْنَاهُ بِبَغْدَادَ ، رَاوِيَةٌ لِلْأَخْبَارِ وَحَافِظًا لِقِطْعَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ اللُّغَةِ وَالْأَشْعَارِ قَئُومًا بِالنَّحْوِ ، وَكَانَ مِمَّنْ خَدَمَ أَبَا عَلِيٍّ الْفَارِسِيَّ فِي دَارِهِ وَهُوَ صَبِيٌّ ، ثُمَّ لَازَمَهُ وَقَرَأَ عَلَيْهِ عَلَى زَعْمِهِ جَمِيعَ كُتُبِهِ وَسَمَاعَاتِهِ ، وَكَانَتْ مَعِيشَتُهُ مِنَ التَّعْلِيمِ بِالشَّامِ وَمِصْرَ ، وَكَانَ يَحْكِي أَنَّهُ كَانَ مُؤَدِّبًا لِأَبِي الْقَاسِمِ

(١) الرامة : مكان فى البادية ويذكر فى الشعر كثيرا

(*) راجع بغية الوعاة

المَغْرِبِيِّ الَّذِي وَزَرَ بِبَغْدَادَ ، لَقَّاهُ اللهُ سَيِّءَ أَفْعَالِهِ كَذَا قَالَ .

وَلَهُ فِيهِ هَجْوٌ كَثِيرٌ ، وَكَانَ يَذُمُّهُ وَيُعَدِّدُ مَعَايِبَهُ ، وَشِعْرُهُ يَجْرِي مَجْرَى شِعْرِ المُعَلِّمِينَ ، قَلِيلَ الحَلَاوَةِ خَالِيًا مِنَ الطَّلَاوَةِ ، وَكَانَ آخِرُ عَهْدِي بِهِ بِتَكْرِيتَ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَسِتِّينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ فَإِنَّا كُنَّا مُقِيمِينَ بِهَا ، وَاجْتَازَ بِنَا وَأَقَامَ عِنْدَنَا مُدَّةً ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى المَوْصِلِ ، وَبَلَغَتْنِي وَفَاتُهُ مِنْ بَعْدُ ، وَكَانَ يَذْكُرُ أَنَّ مَوْلِدَهُ بِحَلَبَ سَنَةَ إِحْدَى وَخَمْسِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ . وَلَمْ يَتَزَوَّجْ وَلَا أَعْقَبَ ، وَجَمِيعُ مَا أُورِدُهُ مِنْ شِعْرِهِ مِمَّا أَنْشَدَنِيهِ لِنَفْسِهِ ، فَمِنْهُ فِي الشَّمْعَةِ :

لَقَدْ أَشْبَهَتْنِي شَمْعَةٌ فِي صَبَابَتِي ... وَفِي طُولِ مَا أَلْقَى وَمَا أَتَوَقَّعُ

نُحُولٌ وَحَرْقٌ فِي فَنَاءٍ وَوَحْدَةٍ ... وَتَسْهِيدُ عَيْنٍ وَاصْفِرَارٌ وَأَدْمُعُ

وَمِنْهُ فِي هَجْوِ المَغْرِبِيِّ :

لُقِّبْتَ بِالْكَمَالِ سَتْرًا عَلَى ... نَقْصِكَ كَالْبَانِي عَلَى الخُصِّ

فَصِرْتَ كَالْكُنُفِ إِذَا شُيِّدَتْ ... بُيِّضَ أَعْلَاهُنَّ بِالجِصِّ

يَا عُرَّةَ الدُّنْيَا بِلَا غُرَّةٍ ... وَيَا طُوَيْسَ الشُّؤْمِ وَالحِرْصِ

قَتَلْتَ أَهْلِيكَ وَأَنْهَبْتَ بَيْـ ... ـتَ اللهِ بِالْمَوْصِلِ تَسْتَعْصِي

وَلَهُ فِي الْمُدَاعَبَةِ :

أَيْنَ مَنْ كَانَ مَوْضِعُ الْأَيْرِ إِجْلَا
لًا عَلَى الرَّأْسِ عِنْدَهُ وَيُبَاسُ ؟

أَيْنَ مَنْ كَانَ عَارِفاً بِمَقَادِيـ
ـرِ الْأُيُورِ الْـكِبَارِ مَاتَ النَّاسُ ؟

وَلَهُ :

يَارُمْحَهَا الْعَسَّالَ بَلْ يَاسَيْفَهَا الْـ ـقَصَّالَ نَارُكَ لَيْسَ تَخْبُو
يَا عَاقِدَ الْمِنَنِ الرِّغَا بِ عَلَى الرِّقَابِ لَهُنَّ سُحْبُ
كَفَرُوكَ مَا أَوْلَيْتَهُمْ وَالرَّبُّ يَشْكُرُ مَا يَرُبُّ(١)

وَسُئِلَ أَنْ يُجِيزَ قَوْلَ الشَّاعِرِ :

لَعَلَّ الَّذِي تَخْشَاهُ يَوْماً بِهِ تَنْجُو
وَيَأْتِيكَ مَا تَرْجُوهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرْجُو

فَقَالَ :

فَثِقْ بِحَكِيمٍ لَا مَرَدَّ لِحُكْمِهِ
فَمَا لَكَ فِي الْمَقْدُورِ دَخْلٌ وَلَا خَرْجُ

(١) رب الشيء : جمعه وزاده

وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكِسْرَوِيِّ مُهَاتَرَةٌ (١) وَمُهَاجَاةٌ وَمُمَاظَةٌ (٢) ، فَمِنْ قَوْلِهِ :

إِذَا الْكِسْرَوِيُّ بَدَا مُقْبِلًا ... وَفِي يَدِهِ ذَيْلُ دُرَّاعَتِهْ
وَقَدْ لَبِسَ الْعُجْبَ مُسْتَنْوِكًا ... يَتِيهُ وَيَخْتَالُ فِي مِشْيَتِهْ
فَلَا يَمْنَعَنَّكَ بَأْوَاؤُهُ (٣) ... ضُرَاطًا يُقَعْقِعُ فِي لِحْيَتِهْ

وَلَهُ :

الصَّيْمَرِيُّ دَقِيقُ الْفِكْرِ فِي اللُّقَمِ
يَقُولُ كَمْ عِنْدَكُمْ لَوْنًا وَكَمْ وَكَمِ ؟
يَسْعَى إِلَى مَنْ يَرَى إِكْثَارَهُ وَكَذَا
نَرَاهُ ذَاكَ وَمَا هَاذَاكَ مِنْ عَدَمِ (٤)
يَلْقَى الْوَعِيدَ بِمَا يَلْقَى الْبَشُوشَ بِهِ
وَذَاكَ وَاللهِ بُخْلٌ لَيْسَ بِالْأَمَمِ (٥)

قَالَ : وَحَدَّثَنِي قَالَ : كُنْتُ أُؤَدِّبُ وَلَدَيِ الْحُسَيْنِ بْنِ جَوْهَرٍ الْقَائِدِ بِمِصْرَ ، وَكَانَا مُخْتَصَّيْنِ بِالْحَاكِمِ وَآنِسَيْنِ بِهِ ، فَعَمِلْتُ

---

(١) المهاترة : السب بالباطل (٢) المماظة : المخاصمة والمشاتمة

(٣) بأى بأوا وبأواء : فخر بنفسه (٤) يخيل إلى أن المعنى وصف للمذموم بأنه يسعى إلى من يعرف أنهم يكثرون ألوان الطعام ونراه كذلك أى يسعى الخ . ذاك خبر لمحذوف أى شأنه ذاك ، ثم قال : وما هذا لفقر ولكنه الضن على نفسه .

(٥) الأمم : اليسير ، يريد أنه بخل ليس سهلا على المرء

قَصِيدَةً وَسَأَلْتُ الْمُسَمَّى مِنْهُمَا جَعْفَراً — وَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْهاً وَيُقَالُ: إِنَّ الْحَاكِمَ كَانَ يَمِيلُ إِلَيْهِ — أَنْ يُوَصِّلَهَا فَفَعَلَ وَعَرَضَهَا عَلَيْهِ فَقَالَ: مَنْ هٰذَا؟ فَقَالَ: مُؤَدِّبِي. قَالَ: يُعْطَى أَلْفَ دِينَارٍ. وَاتَّفَقَ أَنَّ الْمَعْرُوفَ بِابْنِ مِقْشَرٍ الطَّبِيبِ كَانَ حَاضِراً فَقَالَ: لَا تُثْقِلُوا عَلَى خَزَائِنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، يَكْفِيهِ النِّصْفُ، فَأُعْطِيتُ خَمْسَمِائَةِ دِينَارٍ. وَحَدَّثَنِي ابْنُ جَوْهَرٍ بِالْحَدِيثِ، وَكَانَتِ الْقَصِيدَةُ عَلَى وَزْنِ مَنْهُوكَةِ[1] أَبِي نُوَاسٍ أَقُولُ فِيهَا:

إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ نَضَرْ   بِالْحَاكِمِ الْمَلْكِ الْأَغَرْ
فِي كَفِّهِ عَضْبٌ ذَكَرْ   فَقَدْ عَدَا عَلَى الْقَصَرْ[2]
مِنْ غَرِّهِ[3] عَلَى الْغُرَرْ   يَمْضِي كَمَا يَمْضِي الْقَدَرْ
فِي سُرْعَةِ الطَّرْفِ نَظَرْ[4]   أَوِ السَّحَابِ الْمُنْهَمِرْ
بَادَرَ إِنْفَاقَ الْبِدَرْ   بَدْرٌ إِذَا لَاحَ بَهَرْ

وَهِيَ طَوِيلَةٌ، وَاتَّفَقَ أَنَّ الطَّبِيبَ الْمَذْكُورَ لَحِقَتْهُ بَعْدَ هٰذَا بِأَيَّامٍ شَقْفَةٌ وَهِيَ الَّتِي تُسَمَّى التَّرَاقِ، وَيُقَالُ لَهَا

(١) للنهوك من الرجز : ماحذف ثلثا تفعيلاته فصار مستفعلن مرتين

(٢) القصر : أعناق الناس والابل (٣) الغر : حد السيف ، وعلى الغرر بدل من على القصر وبيان لها . (٤) نظر فعل ماض ، يريد أنه يمضى كسرعة الطرف إذا نظر «عبد الخالق»

فَمِلَةُ النَّسْرِ أَيْضاً ، فَمَاتَ مِنْهَا وَكَانَ نَصْرَانِيًّا فَقُلْتُ :

لَمَّا غَدَا يَسْتَخِفُّ رَضْوَى ... تِيهاً وَكِبْراً لِجِدِّ رَبِّهْ
أَصْمَاهُ صَرْفُ الرَّدَى بِسَهْمٍ ... عَاجَلَهُ قَبْلَ وَقْتِ نَحْبِهْ
بِشَقْفَةٍ بَيْنَ مَنْكِبَيْهِ ... رِشَاؤُهَا فِي قَلِيبِ قَلْبِهْ

﴿ ٢٢ – عَلِيُّ بْنُ مَهْدِيِّ بْنِ عَلِيِّ بْنِ مَهْدِيٍّ الْكِسْرَوِيُّ ﴾ *

علي بن مهدي الكسروي

أَبُو الْحَسَنِ الْأَصْفَهَانِيُّ ، مُعَلِّمُ وَلَدِ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ يَحْيَى بْنِ الْمُنَجِّمِ وَأَحَدُ الرُّوَاةِ الْعُلَمَاءِ النَّحْوِيِّينَ الشُّعَرَاءِ ، مَاتَ فِي أَيَّامِ بَدْرٍ الْمُعْتَضِدِيِّ عَلَى أَصْبَهَانَ . قَالَ حَمْزَةُ : عَلِيُّ بْنُ مَهْدِيٍّ الْكِسْرَوِيُّ وَهُوَ ابْنُ أُخْتِ عَلِيِّ بْنِ عَاصِمِ بْنِ الْحُرَيْشِ ، وَكَانَ مُتَّصِلاً بِبَدْرٍ الْمُعْتَضِدِيِّ ، وَفِي أَيَّامِهِ مَاتَ يَعْنِي أَيَّامَهُ عَلَى أَصْبَهَانَ ، وَكَانَ قَدْ وَلِيَ أَصْبَهَانَ . سَنَةَ ثَلَاثٍ وَثَمَانِينَ وَمِائَتَيْنِ أَيَّامَ الْمُعْتَضِدِ إِلَى إِلَى أَنْ وَلِيَ ابْنُهُ الْمُكْتَفِي سَنَةَ تِسْعٍ وَثَمَانِينَ وَمِائَتَيْنِ ، قَالَ ابْنُ أَبِي طَاهِرٍ : وَكَانَ الْكِسْرَوِيُّ أَدِيباً ظَرِيفاً حَافِظاً رَاوِيَةً شَاعِراً عَالِماً بِكِتَابِ الْعَيْنِ خَاصَّةً ، وَكَانَ يُؤَدِّبُ هَارُونَ بْنَ عَلِيِّ بْنِ يَحْيَى النَّدِيمِ ، وَاتَّصَلَ بِأَبِي النَّجْمِ الْمُعْتَضِدِيِّ مَوْلَى

(*) راجع بغية الوعاة

الْمُعْتَضِدِ وَتُوُفِّيَ فِي خِلَافَتِهِ، وَذَكَرَهُ الْمَرْزُبَانِيُّ فَقَالَ: حَدَّثَنِي عَلِيُّ ابْنُ هَارُونَ عَنْ أَبِيهِ وَعَمِّهِ قَالَا: كَانَ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ يَحْيَى بْنِ الْمُنَجِّمِ جَالِساً يَوْماً وَبِحَضْرَتِهِ مَنْ لَا يَخْلُو مَجْلِسُهُ مِنْهُ مِنَ الشُّعَرَاءِ كَأَحْمَدَ بْنِ أَبِي طَاهِرٍ، وَأَحْمَدَ بْنِ أَبِي فَنَنٍ وَأَبِي عَلِيٍّ الْبَصِيرِ، وَأَبِي هِفَّانَ الْمِهْزَمِيِّ وَالْهَدَادِيِّ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّهِ أَىْ أَبِي هِفَّانَ، وَابْنِ الْعَلَّافِ، وَأَبِي الطَّرِيفِ، وَأَحْمَدَ بْنِ أَبِي كَامِلٍ خَالِ وَلَدِ أَبِي الْحَسَنِ، وَعَلِيِّ بْنِ مَهْدِيٍّ الْكِسْرَوِيِّ وَكَانَ مُعَلِّمَ وَلَدِهِ، فَأَنْشَدَ الْجَمَاعَةَ بَيْتاً ذَكَرَ أَنَّهُ مَرَّ بِهِ مُفْرَداً فَاسْتَحْسَنَهُ وَأَحَبَّ أَنْ يُضَافَ إِلَيْهِ بَيْتٌ آخَرُ يَصِلُ مَعْنَاهُ وَيَزِيدُ فِي الْإِمْتَاعِ بِهِ وَهُوَ:

لِيَهْنِكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ لَكَ عَائِباً سِوَى حَاسِدٍ وَالْحَاسِدُونَ كَثِيرُ

فَبَدَرَهُ عَلِيُّ بْنُ مَهْدِيٍّ مِنْ بَيْنِ الْجَمَاعَةِ وَقَالَ:

وَإِنَّكَ مِثْلُ الْغَيْثِ أَمَّا وُقُوعُهُ فَخِصْبٌ وَأَمَّا مَاؤُهُ فَطَهُورُ

فَاسْتَحْسَنَهُ أَبُو الْحَسَنِ وَضَمَّهُ إِلَى الْبَيْتِ الْأَوَّلِ، وَكَانَ أَبُو الْعُبَيْسِ بْنُ حَمْدُونَ حَاضِراً فَقَالَ لَهُ: الصَّنْعَةُ فِيهِمَا عَلَيْكَ، فَطَلَبَ عُوداً وَانْفَرَدَ فَصَنَعَ فِيهِ رَمَلَهُ الْمَشْهُورَ. وَحَدَّثَ عَنِ

الصُّولِيّ قالَ: كَتَبَ عبدُ اللهِ بْنُ الْمُعْتَزّ إِلَى عَلِيّ بْنِ مَهْدِيّ الْأَصْبَهَانِيّ:

وَمَا نَازِحٌ بِالصِّينِ أَدْنَى مَحَلِّهِ
يُقَصِّرُ عَنْهُ كُلُّ مَاشٍ وَطَائِرِ
مَحَا اليَأْسُ مِنْهُ كُلَّ ذِكْرٍ فَلَمْ تَكَدْ
تُصَوِّرُهُ لِلقَلْبِ أَيْدِي الْخَوَاطِرِ
بِأَبْعَدَ عِنْدِي مِنْ أُنَاسٍ وَإِنْ دَنَوْا
وَمَا الْبُعْدُ إِلَّا مِثْلُ طُولِ التَّهَاجُرِ
وَيَشْغَلُ عَنِّي الْقَصْفُ وَالرَّاحُ بَعْضَهُمْ
مُبَاكِرَهَا أَوْ مُمْسِيًا كَمُبَاكِرِ
إِذَا طَارَ بَيْنَ الْعُودِ وَالنَّايِ طَيْرَةً
فَلَيْسَ لِإِخْوَانِ الصَّفَاءِ بِذَاكِرِ

قَالَ: فَأَجَابَهُ عَلِيُّ بْنُ مَهْدِيّ:

أَيَا سَيِّدِي عَفْوًا وَحُسْنَ إِقَالَةٍ
فَلَمْ يَحْوِ أَقْطَارَ الْعُلَا مِثْلُ غَافِرِ
لَعَمْرِي لَوَ اَنَّ الصِّينَ أَدْنَى مَحَلِّي
لَمَا كُنْتُ إِلَّا غَائِبًا مِثْلَ حَاضِرِ

ثَنَائِي لَكُمْ عُمْرِي وَمَحْضُ مَوَدَّتِي
تُؤَثِّرُ آثَارَ الغُيُوثِ البَوَاكِرِ
فَوَاللهِ مَا اسْتَبْهَجْتُ بَعْدَكَ مَجْلِساً
وَلَا بَقِيَتْ لَذَّاتُهُ فِي ضَمَائِرِي
وَلَسْتُ كَمَنْ يُنْسِيهِ[1] أَهْلَ صَفَائِهِ
سَمَاعُ الحِسَانِ وَاصْطِحَابُ المَزَاهِرِ
وَكَيْفَ تَنَاسِي سَيِّدٍ لِي ثَنَاؤُهُ
مَنُوطٌ بِأَحْشَائِي وَسَمْعِي وَنَاظِرِي

وَحَدَّثَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ يَحْيَى الْعَسْكَرِيِّ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدٍ الدِّمَشْقِيِّ قَالَ: كَتَبَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُعْتَزِّ إِلَى عَلِيِّ بْنِ مَهْدِيٍّ الْكِسْرَوِيِّ:

يَا بَاخِلاً بِكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ أَأَرَدْتَ تَجْعَلُ فِي الْفِرَاقِ فِرَاقَا؟
إِنَّ الْعُهُودَ تَمُوتُ إِنْ لَمْ تُحْيِهَا وَالنَّأْيُ يُحْدِثُ لِلْفَتَى إِخْلَاقَا

قَالَ: فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ مَهْدِيٍّ:

لَا وَالَّذِي أَنْتَ أَسْنَى مَنْ أُحِبُّ
عِنْدِي وَأَوْفَاهُمْ عَهْداً وَمِيثَاقَا

(١) كانت في هذا الأصل: «ينثنيه»

مَا حُلْتُ عَنْ خَيرٍ مَا قَدْ كُنْتَ تَعْهَدُهُ
وَلَا تَبَدَّلْتُ بَعْدَ النَّأْيِ أَخْلَاقَا

وَحَدَّثَ عَنْ عَلِيٍّ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْمُعْتَزّ قَالَ : كَتَبَ إِلَىَّ عَلِيُّ بْنُ مَهْدِيٍّ الْكِسْرَوِيُّ فِي يَوْمِ مَهْرَجَانٍ :

نَعِمْتَ بِمَا تَهْوَى وَنِلْتَ الَّذِي تَرْضَى
وَلُقِّيتَ مَا تَرْضَى وَوُقِّيتَ مَا تَخْشَى
وَلَسْتُ بِمَا أَلْقَى مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ
أُسَرُّ ، وَأَحْظَى سَيِّدِي بِالَّذِي تَلْقَى (١)
وَيَعْلَمُ عَلَّامُ الْخَفِيَّاتِ أَنَّنِي أُعِدُّكَ ذُخْراً لِلْمَمَاتِ وَلِلْمَحْيَا
وَأَنِّي لَوْ أُهْدِي عَلَى قَدْرِ نِيَّتِي
لَكَانَ الَّذِي أُهْدِيهِ حَظِّي مِنَ الدُّنْيَا

وَحَدَّثَ عَنِ الْعَسْكَرِيِّ عَنِ ابْنِ سَعِيدٍ الدِّمَشْقِيِّ قَالَ : كَتَبَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُعْتَزّ إِلَى عَلِيِّ بْنِ مَهْدِيٍّ :

أَبَا حَسَنٍ أَنْتَ ابْنُ مَهْدِيِّ فَارِسٍ
فَرِفْقاً بِنَا لَسْتَ ابْنَ مَهْدِيِّ هَاشِمِ

(١) يريد لا أسر بما ألقى من الخير ، ولكنى أحظى بما تلقاه أنت
« عبد الخالق »

وَأَنْتَ أَخٌ فِي يَوْمِ لَهْوٍ وَلَذَّةٍ
وَلَسْتَ أَخًا عِنْدَ الْأُمُورِ الْأَعَاظِمِ

فَأَجَابَهُ عَلِيٌّ :

أَيَا سَيِّدِي إِنَّ ٱبْنَ مَهْدِيٍّ فَارِسٍ
فِدَاءٌ وَمَنْ يَهْوَى لِمَهْدِيٍّ هَائِمِ

بَلَوْتَ أَخًا فِي كُلِّ أَمْرٍ تُحِبُّهُ وَلَمْ تَبْلُهُ عِنْدَ الْأُمُورِ الْأَعَاظِمِ

وَإِنَّكَ لَوْ نَبَّهْتَهُ لِمُلِمَّةٍ
لَأَنْسَاكَ صَوْلَاتِ الْأُسُودِ الضَّرَاغِمِ

قَالَ : وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ دَاوُدَ : كَانَ عَلِيُّ بْنُ مَهْدِيٍّ يُؤَدِّبُ وَهُوَ أَحَدُ الرُّوَاةِ لِلْأَخْبَارِ وَهُوَ الْقَائِلُ :

وَلَمَّا أَبَى أَنْ يَسْتَقِيمَ وَصَلْتُهُ عَلَى حَالَتَيْهِ مُكْرَهًا غَيْرَ طَائِعِ

حِذَارًا عَلَيْهِ أَنْ يَمِيلَ بِوُدِّهِ
فَأُبْلَى بِقَلْبٍ . لَسْتُ عَنْهُ(١) بِنَازِعِ

فَأُصْبِحَ كَالظَّمْآنِ يُهْرِيقُ مَاءَهُ
لِضَوْءِ سَرَابٍ فِي الْمَهَامِهِ لَامِعِ

فَلَا الْمَاءَ أَبْقَى لِلْحَيَاةِ وَلَا أَتَى عَلَى مَنْهَلٍ يُجْدِي عَلَيْهِ بِنَافِعِ(٢)

(١) الضمير فى : عنه يعود على فاعل أبى (٢) بنافع متعلق بيجدى

وَلَهُ :

وَمُوَدِّعٍ يَوْمَ الْفِرَاقِ بِلَحْظِهِ شَرِقٍ مِنَ الْعَبَرَاتِ مَا يَتَكَلَّمُ
مُتَقَلِّبٍ نَحْوَ الْحَبِيبِ بِطَرْفِهِ لَا يَسْتَطِيعُ إِشَارَةً فَيُسَلِّمُ
نَطَقَ الضَّمِيرُ بِمَا أَرَادَا عَنْهُمَا
وَكِلَاهُمَا مِمَّا يُعَانِ مُفْحَمُ

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ مَهْدِيٍّ يَصِفُ الْعُودَ :

تَجْرِي أَنَامِلُهَا عَلَى ذِي مَنْطِقٍ أَعْمَى بَصِيرْ
خَرِسٌ أَصَمُّ وَنَحْنُ مِنْ نَجْوَاهُ فِي دَهْرٍ قَصِيرْ
فَدْمٌ(١) صَمُوتٌ لَيْسَ يَعْـ ـرِفُ مَا الْقَبِيلُ مِنَ الدَّبِيرْ
مَيْتٌ وَلَكِنَّ الْأَكُفْـ ـفَ تُذِيقُهُ طَعْمَ النُّشُورْ
وَكَأَنَّهُ فِي حِجْرِهَا(٢) طِفْلٌ تَمَهَّدَ حِجْرَ ظِيرْ(٣)
يُومِي إِلَيْهِ بَنَانُهَا فَتُرِيكَ تَرْجَمَةَ الضَّمِيرْ
فَيَرَى النُّفُوسَ مُعَلَّقَا تٍ مِنْهُ فِي بَمٍّ وَزِيرْ
فَإِذَا لَوَتْ آذَانَهُ جَازَ الْأَنِينَ إِلَى الزَّفِيرْ

---

(١) الفدم : العيى (٢) كانت هذه الكلمة فى الأصل : « فى حجره »
(٣) الظير مسهل ظئر : المرضع

قَالَتْ لَهُ : قُلْ مُطْرِبًا وَعَظَتْكَ وَاعِظَةُ الْقَتِيرِ[١]
فَأَجَابَهَا مِنْ حِجْرِهَا وَعَلَتْكَ أُبَّهَةُ الْكَبِيرِ[٢]

وَلَهُ مِنَ الْكُتُبِ : كِتَابُ الْخِصَالِ وَهُوَ مَجْمُوعٌ يَشْتَمِلُ عَلَى أَخْبَارٍ وَحِكَمٍ وَأَمْثَالٍ وَأَشْعَارٍ ، كِتَابُ مُنَاقَضَاتِ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِى أَنْ يَقْتَدِىَ[٣] الْقُضَاةُ فِى مَطَاعِمِهِمْ بِالْأَئِمَّةِ الْخُلَفَاءِ ، وَقَدْ عُزِىَ هٰذَا الْكِتَابُ إِلَى الْكِسْرَوِىِّ الْكَاتِبِ ، كِتَابُ الْأَعْيَادِ وَالنَّوَارِيزِ ، كِتَابُ مُرَاسَلَاتِ الْإِخْوَانِ وَمُحَاوَرَاتِ الْخِلَّانِ

وَقَالَ الْكِسْرَوِىُّ فِى ضَرْطَةِ وَهْبِ بْنِ سُلَيْمَانَ :

إِنَّ وَهْبَ بْنَ سُلَيْمَا نَ بْنِ وَهْبِ بْنِ سَعِيدِ
حَمَّلَ الضَّرْطَ إِلَى الرَّ دِّ عَلَى ظَهْرِ الْبَرِيدِ
فِى مُهِمَّاتِ أُمُورٍ مِنْهُ بِالرَّكْضِ الشَّدِيدِ
إِسْتُهُ يَنْطِقُ يَوْمَ الْحَفْـ ـلِ بِالْأَمْرِ الرَّشِيدِ

---

(١) جملة محكية ، تريد أطرب الناس بقولك وعظتك ، وهي جملة دعائية يراد منها الدعاء للشخص بأن يتعظ بالقتير : أى أول الشيب (٢) أضف وعلتك إلى وعظتك يأتى البيت هكذا :

وعظتك واعظة القتير *** وعلتك أبهة الكبير

فالشطر الأول حكاية قل الذى قبله ، والشطر الثانى حكاية فأجابها الذى قبله .

(٣) كانت فى هذا الأصل « يقتفى » وأصلحت كما فى فهرست ابن النديم .

« عبد الخالق »

لَمْ يُجِدْ فِي الْقَوْلِ فَاحْتَا جَ إِلَى دُبْرٍ مُجِيدِ

وَمِنْ كِتَابِ أَصْبَهَانَ : قَالَ هَارُونُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ يَحْيَى : اجْتَمَعْنَا مَعَ أَبِي الْفَضْلِ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي طَاهِرٍ عِنْدَ عَلِيِّ بْنِ مَهْدِيٍّ، فَلَمَّا أَرَدْنَا الِانْصِرَافَ أَنْشَأَ أَبُو الْفَضْلِ يَقُولُ

لَوْلَا عَلِيُّ بْنُ مَهْدِيٍّ وَخِلَّتُهُ
لَمَا اهْتَدَيْنَا إِلَى ظَرْفٍ وَلَا أَدَبِ
إِذَا سُقِي مُتْرَعَ الْكَاسَاتِ أَوْهَمَنَا
بِأَنَّ غِلْمَانَنَا خَيْرٌ مِنَ الْعَرَبِ

﴿ ٢٣ — عَلِيُّ بْنُ نَصْرٍ النَّصْرَانِيُّ يُعْرَفُ بِابْنِ الطَّبِيبِ * ﴾

علي بن نصر النصراني

أَبُو الْحَسَنِ الْكَاتِبُ، ذَكَرَهُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ النَّدِيمُ وَقَالَ : كَانَ أَدِيبًا مُصَنِّفًا مَاتَ فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَسَبْعِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ، وَلَهُ عِدَّةُ كُتُبٍ قَالَ : وَكَانَ يُذَاكِرُنِي بِهَا وَأَحْسَبُهُ لَمْ يُتِمَّ أَكْثَرَهَا، فَمِنْ كُتُبِهِ : كِتَابُ الْبَرَاعَةِ، كِتَابُ صُحْبَةِ السُّلْطَانِ أَكْثَرُ مِنْ أَلْفِ وَرَقَةٍ، كِتَابُ إِصْلَاحِ الْأَخْلَاقِ نَحْوٌ مِنْ أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةِ وَرَقَةٍ يَشْتَمِلُ عَلَى حِكَمٍ وَأَمْثَالٍ.

(*) راجع بغية الوعاة

﴿ ٢٤ – عَلِيُّ بْنُ نَصْرِ بْنِ سُلَيْمَانَ الزَّنْبَقِيُّ(١) اللُّغَوِيُّ ﴾

علي بن نصر الزنبقي

أَبُو الْحَسَنِ أَحَدُ الْأُدَبَاءِ، رَأَيْتُ بِخَطِّهِ كُتُبًا أَدَبِيَّةً لُغَوِيَّةً وَنَحْوِيَّةً فَوَجَدْتُهُ حَسَنَ الْخَطِّ مُتْقَنَ الضَّبْطِ، وَكَانَ مُقَامُهُ بِمِصْرَ وَلَعَلَّهُ مِنْ أَهْلِهَا، قُرِئَ عَلَيْهِ كِتَابُ الْهَمْزِ لِأَبِي زَيْدٍ الْأَنْصَارِيِّ بِجَامِعِ مِصْرَ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَمَانِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ.

﴿ ٢٥ – عَلِيُّ بْنُ نَصْرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْكَاتِبُ * ﴾

علي بن نصر الكاتب

أَبُو تُرَابٍ، وُلِدَ بِعُكْبَرَا وَنَشَأَ بِهَا، ثُمَّ انْحَدَرَ بَعْدَ أَنْ بَلَغَ إِلَى بَغْدَادَ، وَقَرَأَ الْأَدَبَ وَالنَّحْوَ عَلَى ابْنِ بُرْهَانٍ النَّحْوِيِّ، ثُمَّ انْحَدَرَ إِلَى الْبَصْرَةِ وَصَارَ كَاتِبًا لِنَقِيبِ الطَّالِبِيِّينَ بِهَا، وَأَقَامَ هُنَاكَ مُدَّةً ثُمَّ رَجَعَ إِلَى بَغْدَادَ فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَأَرْبَعِينَ، وَأَقَامَ بِالْكَرْخِ وَوَلِيَ الْكِتَابَةَ لِنَقِيبِ الطَّالِبِيِّينَ إِلَى أَنْ مَاتَ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ وَالْفَضْلِ، مَوْلِدُهُ فِي مُحَرَّمٍ سَنَةَ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، وَتُوُفِّيَ فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةَ ثَمَانِي عَشْرَةَ

---

(١) يقول المؤلف في معجم البلدان إن زنبق: صقع بالبصرة على جانب الفرات ودجلة، وأظن هذا لا يتنافى مع قوله: وكان مقامه بمصر، ولكنه يقول: ولعله من أهلها. أقول: ولعل النسبة إلى زنبق كجعفر، وهو دهن الياسمين لسبب يتصل بهذا «عبد الخالق»

(*) ترجم له في كتاب أنباه الرواة

(*) راجع بغية الوعاة

وَخَمْسِمِائَةٍ ، وَابْنُهُ عَلِيُّ بْنُ عَلِيِّ بْنِ نَصْرِ بْنِ سَعْدٍ أَبُو الْحَسَنِ بْنُ أَبِي تُرَابٍ ، وَكَانَ كَاتِبَ نَقِيبِ الطَّالِبِيِّينَ أَيْضاً وَكَانَ شَاعِراً ، وُلِدَ بِالْبَصْرَةِ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ، وَمِنْ شِعْرِ أَبِي تُرَابٍ هٰذَا :

حَالِى بِحَمْدِ اللهِ حَالٌ جَيِّدَهْ ... لَكِنَّهُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ عَاطِلُ
مَا قُلْتُ لِلْأَيَّامِ قَوْلَ مُعَاتِبٍ ... وَالرِّزْقُ يَدْفَعُ رَاحَتِي وَيُمَاطِلُ
إِلَّا وَقَالَتْ لِى مَقَالَةَ وَاعِظٍ : ... أَلرِّزْقُ مَقْسُومٌ وَحِرْصُكَ بَاطِلُ

٢٦ – عَلِيُّ بْنُ نَصْرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الصَّمَدِ الْفَنْدُورَجِيُّ *

علی بن نصر الفندورجی

أَبُو الْحَسَنِ الْأَسْفَرَائِينِيُّ ، وَفَنْدُورَجُ قَرْيَةٌ بِنَوَاحِي نَيْسَابُورَ ، سَكَنَ إِسْفِرَائِينَ وَكَانَ يَرْجِعُ إِلَى فَضْلٍ وَافِرٍ وَمَعْرِفَةٍ تَامَّةٍ بِاللُّغَةِ وَالْأَدَبِ وَخَطٍّ وَبَلَاغَةٍ ، وَلَهُ شِعْرٌ مَلِيحٌ رَائِقٌ وَيَدٌ بَاسِطَةٌ فِي الْكِتَابَةِ وَالرَّسَائِلِ ، وَرَدَ بَغْدَادَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ، وَأَقَامَ بِهَا مُدَّةً وَاقْتَبَسَ مِنْ فُضَلَائِهَا ، وَرَجَعَ إِلَى خُرَاسَانَ وَصَارَ يُنْشِئُ الْكُتُبَ عَنْ دِيوَانِ الْوِزَارَةِ ، وَسُئِلَ عَنْ مَوْلِدِهِ فَقَالَ : وُلِدْتُ سَنَةَ تِسْعٍ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ بِنَيْسَابُورَ .

(*) راجع بغية الوعاة

قَالَ السَّمْعَانِيُّ وَمَاتَ فِي حُدُودِ سَنَةِ خَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ،

وَمِنْ شِعْرِهِ :

تَحِيَّةَ مُزْنٍ يَتْحِفُ الرَّوْضَ سَحْرَةً
بِصَوْبِ الْحَيَا فِي كُلِّ يَوْمٍ عَلَيْكُمُ
بِجِسْمِي مَعِي لَكِنَّ قَلْبِيَ أَكْرِمُوا
بِلُطْفِكُمُ مَثْوَاهُ فَهُوَ لَدَيْكُمُ

قَالَ السَّمْعَانِيُّ : أَنْشَدَنِي الْفَنْدُورَجِيُّ لِنَفْسِهِ :

سَقَى اللهُ فِي أَرْضِ أَسْفَرَائِينَ عُصْبَتِي
فَمَا تَنْتَهِي الْعَلْيَاءُ إِلَّا إِلَيْهِمُ
وَجَرَّبْتُ كُلَّ النَّاسِ بَعْدَ فِرَاقِهِمْ
فَمَا زِدْتُ إِلَّا فَرْطَ ضَنٍّ عَلَيْهِمُ

قَالَ السَّمْعَانِيُّ : وَأَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ بِبَلْخَ إِمْلَاءً وَنَقَلْتُهُ مِنْ خَطِّهِ :

قَدْ قَصَّ أَجْنِحَةَ الْوَفَاءِ وَطَارَ مِنْ
وَكْرِ الْوِدَادِ الْمَحْضِ وَالْإِخْلَاصِ
وَالْحُرُّ فِي شَبَكِ الْجَفَاءِ وَمَا لَهُ
مِنْ أَسْرِ حَادِثَةٍ رَجَاءُ خَلَاصِ

كَانَ فِى آخِرِ جُزْءٍ بِخَطِّ السَّمْعَانِىِّ مَاصُورَتُهُ لِكَاتِبِهِ أَبِى الْحَسَنِ الْفَنْدُورَجِىِّ :

حُمَّ الْحَبِيبُ وَآذَاهُ السَّقَامُ وَلَمْ
أَمُتْ كَمَا شَاءَ سُلْطَانُ الْهَوَى حَزَنَا
بِأَىِّ عَيْنٍ إِذَا مَا الْوَصْلُ يَجْمَعُنَا
بِالطَّالِعِ السَّعْدِ أَلْقَى وَجْهَهُ الْحَسَنَا ؟
وَالْجَفْنُ مِنِّىَ دَامٍ لَا يُصَافِحُ ـ إِذْ
نَاغَى الْكَرَى فِى الدُّجَى جَفْنَ الْوَرَى ـ الْوَسَنَا(١)
وَكَادَ عَنْ بَدَنِى يَنْسَلُّ رُوحِىَ إِذْ
مَسَّ الْأَذَى مِنْهُ تِلْكَ الرُّوحَ وَالْبَدَنَا

وَلَهُ أَيْضاً فِى الْمَعْنَى نَقَلْتُهُ مِنْ خَطِّهِ :

حُمَّ الْحَبِيبُ وَمَا حُمَّ انْفِصَالِىَ عَنْ
رُوحٍ وَعَنْ بَدَنٍ يَحْيَا بِذِكْرَاهُ
بِأَىِّ وَجْهٍ إِذَا مَا الْوَصْلُ يَجْمَعُنَا
وَمُقْلَةٍ أَتَلَقَّاهُ وَأَلْقَاهُ ؟

---

(١) الوسن مفعول يصافح ، يريد أن جفنى دام لا يصافح الوسن فى الوقت الذى يناغى الكرى جفون الناس « عبد الخالق »

وَقَرَأْتُ بِخَطِّ أَبِي سَعْدٍ ، سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ نَصْرٍ النَّيْسَابُورِيَّ مُذَاكَرَةً بِمَرْوَ يَقُولُ : كُنْتُ بِبَغْدَادَ فَرَأَيْتُ أَهْلَهَا تَسْتَحْسِنُ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ الَّتِي لِأَبِي إِسْمَاعِيلَ الْمُنْشِيء :

ذَكَرْتُكُمْ عِنْدَ الزُّلَالِ عَلَى الظَّمَا
فَلَمْ أَنْتَفِعْ مِنْ بَرْدِهِ بِبَلَالِ

فَأَنْشَأْتُ قَصِيدَةً فِي نَقِيبِ النُّقَبَاءِ أَبِي الْقَاسِمِ عَلِيِّ بْنِ طَرَّادٍ الزَّيْنَبِيِّ عَلَى هَذَا الرَّوِيِّ أَوَّلُهَا :

خَلِيلَيَّ زُمَّتْ(١) لِلرَّحِيلِ جِمَالِي
فَقَدْ ضَاقَ فِي أَرْضِ الْعِرَاقِ مَجَالِي

وَقُودًا عِتَاقًا كَالْأَهِلَّةِ ، إِنَّمَا
دِيَارُ النَّدَى وَالْمَكْرُمَاتِ حَوَالِي(٢)

وَمَا أَوْجَبَتْ بَغْدَادُ حَقِّي وَغَادَرَتْ
بَلَابِلَ بَعْدَ الظَّاعِنِينَ بِبَالِي(٣)

---

(١) زمت الجمال للرحيل : خطمت وهيئت (٢) قودا جمع قوداء : النوق ، وفى البيت قصر يقول فيه : إن ديار الندى والكرم حوالى العراق لا فيها

(٣) يقول : إنما ارتحلت لأن بغداد لم تف بحقى ، وتركت بلابل ووساوس فى خاطرى بعد رحيل الظاعنين . « عبد الخالق »

﴿ ٢٧ – عَلِيُّ بْنُ وَصِيفٍ الْمُلَقَّبُ بِخُشْكَنَانْجَةَ الْكَاتِبُ * ﴾

على بن وصيف الكاتب

مِنْ أَهْلِ بَغْدَادَ، وَكَانَ أَكْثَرُ مُقَامِهِ بِالرَّقَّةِ ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى الْمَوْصِلِ وَكَانَ مِنَ الْبُلَغَاءِ، وَأَلَّفَ عِدَّةَ كُتُبٍ وَنَحَلَهَا عَبْدَانَ صَاحِبَ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَقَ النَّدِيمُ: وَكَانَ لِي صَدِيقًا وَأَنِيسًا وَمَاتَ بِالْمَوْصِلِ، وَلَهُ مِنَ الْكُتُبِ: كِتَابُ الْإِفْصَاحِ وَالتَّثْقِيفِ فِي الْخَرَاجِ وَرُسُومِهِ

﴿ ٢٨ – عَلِيُّ بْنُ هِبَةِ اللهِ بْنِ مَاكُولَا * ﴾

على بن هبة الله ابن ماكولا

هُوَ عَلِيُّ بْنُ هِبَةِ اللهِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ عَلْكَانَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ دُلَفَ بْنِ أَبِي دُلَفَ الْقَاسِمِ بْنِ عِيسَى بْنِ إِدْرِيسَ بْنِ مَعْقِلِ بْنِ عَمْرِو بْنِ شَيْخِ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ خُزَاعِيِّ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ دُلَفَ ابْنِ جُشَمَ بْنِ قَيْسِ بْنِ سَعْدِ بْنِ عِجْلِ بْنِ لُجَيْمِ بْنِ صَعْبِ بْنِ عَلِيِّ ابْنِ بَكْرِ بْنِ وَائِلِ بْنِ قَاسِطِ بْنِ هِنْبِ بْنِ أَفْصَى بْنِ دُعْمِيِّ بْنِ جَدِيلَةَ بْنِ أَسَدِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ، أَبُو نَصْرٍ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ مَاكُولَا، وَهُوَ ابْنُ الْوَزِيرِ أَبِي الْقَاسِمِ هِبَةِ اللهِ

(*) لم نعثر على من ترجم له سوى ياقوت

(*) ترجم له كذلك فى وفيات الأعيان لابن خلكان ج أول، وترجم له كذلك أيضا فى تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ وترجم له فى شذرات الذهب ج ١٢

ابنِ ماكولا وزيرِ جلالِ الدَّولةِ بنِ بُويهِ، وكانَ عمُّهُ أبو عبدِ اللهِ الحسنُ بنُ جعفرٍ، قاضي القُضاةِ ببغدادَ الحافظُ – أصلُه مِنْ جرْباذقانَ بلدةٌ بينَ همذانَ وأصفهانَ – يُلقَّبُ بالأميرِ من بيتِ الوزارةِ والقضاءِ والرِّياسةِ القديمةِ، كانَ لبيبًا عارفًا عالمًا، ترشَّحَ للحفظِ حتَّى كانَ يُقالُ لهُ الخطيبُ الثَّاني.

قالَ ابنُ الجوزيِّ: سمعتُ شيخَنا عبدَ الوهَّابِ يقدحُ في دينِه ويقولُ: العلمُ يحتاجُ إلى دينٍ. صنَّفَ كتابَ المختلفِ والمؤتلفِ، جمعَ فيهِ بينَ كتبِ الدَّارقطنيِّ وعبدِ الغنيِّ والخطيبِ، وزادَ عليهِم زياداتٍ كثيرةً، وكانَ نحويًّا مجوِّدًا، وشاعرًا مبرِّزًا، جزلَ الشِّعرِ فصيحَ الكلامِ صحيحَ النَّقلِ، ما كانَ في البغداديِّينَ في زمانِه مثلُه، سمعَ أبا طالبِ بنَ غيلانَ، وأبا بكرِ بنَ بشرانَ، وأبا القاسمِ بنَ شاهينَ، وأبا الطَّيِّبِ الطَّبريَّ، وسافرَ إلى الشَّامِ والسَّواحلِ وديارِ مصرَ، والجزيرةِ والثُّغورِ والجبالِ، ودخلَ بلادَ خراسانَ وما وراءَ النَّهرِ، وطافَ في الدُّنيا وجوَّلَ في الآفاقِ.

قالَ محمَّدُ بنُ طاهرٍ المقدسيُّ: سمعتُ أبا إسحاقَ إبراهيمَ ابنَ سعيدٍ الحبَّالَ المصريَّ يمدحُ ابنَ ماكولا ويُثني عليهِ

وَيَقُولُ : دَخَلَ مِصْرَ فِي زِيِّ الْكَتَبَةِ فَلَمْ نَرْفَعْ[1] لَهُ رَأْساً ، فَلَمَّا عَرَفْنَاهُ كَانَ مِنَ الْعُلَمَاءِ بِهَذَا الشَّأْنِ ، وَرَجَعَ إِلَى بَغْدَادَ فَأَقَامَ بِهَا ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى خُوزِسْتَانَ فَقُتِلَ هُنَاكَ . كَانَ فِي صُحْبَتِهِ جَمَاعَةٌ مِنْ مَمَالِيكِهِ الْأَتْرَاكِ .

قَالَ ابْنُ نَاصِرٍ : قُتِلَ أَبُو نَصْرِ بْنُ مَاكُولَا بِالْأَهْوَازِ مِنْ نَوَاحِي خُوزِسْتَانَ ، إِمَّا فِي سَنَةِ سِتٍّ أَوْ سَبْعٍ ، وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ : فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعِمَائَةٍ ، وَمَوْلِدُهُ بِعُكْبَرَا فِي شَعْبَانَ مِنْ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ وَأَرْبَعِمَائَةٍ ، وَمِنْ مُسْتَحْسَنِ شِعْرِهِ فِي التَّجْنِيسِ :

وَلَمَّا تَفَرَّقْنَا تَبَاكَتْ قُلُوبُنَا
فَمُمْسِكُ دَمْعٍ عِنْدَ ذَاكَ كَسَاكِبِهِ
فَيَا نَفْسِيَ الْحَرَّى الْبَسِي ثَوْبَ حَسْرَةٍ
فِرَاقُ الَّذِي تَهْوَيْنَهُ قَدْ كَسَاكِ بِهِ

وَمِنْهُ :

تُرَى زَمَنِي يُدْنِي سُلَيْمَى فَنَلْتَقِي ؟
وَنُرْجِعُ بِالشَّكْوَى الْحَدِيثَ الْمُنَاهَبَا[2]

(١) لم نرفع له رأسا : لم نعبأ به ولم نعره التفاتا (٢) المناهب : المتناول

وَهَيْهَاتَ مَا بَعْدَ الَّذِي قَدْ طَلَبْتُهُ

وَمَنْ غَايَرَ الْأَيَّامُ كَانَ الْمُنَاهَبَا (١)

وَمِنْهُ :

فُؤَادٌ مَا يُفِيقُ مِنَ التَّصَابِي أَطَاعَ غَرَامَهُ وَعَصَى النَّوَاهِي

وَقَالُوا : لَوْ تَصَبَّرَ كَانَ يَسْلُو

وَهَلْ صَبْرٌ يُسَاعِدُ وَالنَّوَاهِي (٢) ؟

وَمِنْهُ :

أَلَيْسَ وُقُوفُنَا بِدِيَارِ هِنْدٍ

وَقَدْ رَحَلَ الْقَطِينُ مِنَ الدَّوَاهِي ؟

وَهِنْدٌ قَدْ غَدَتْ دَاءً لِقَلْبِي

إِذَا صَدَّتْ وَلَكِنَّ الدَّوَا هِي (٣)

وَمِنْهُ :

وَهَيَّجَ أَشْوَاقِي وَمَا كُنْتُ سَالِيًا

بِيَبْرِينَ بَرْقٌ مِنْ ذُرَى الْغَوْرِ أَوْمَضَا (٤)

---

(١) المناهبا كلمتان : المنى ، وهباء ، فهو يريد : كانت المنى هباء لأن الذى تجور عليه الأيام وتحاربه لا تكون مناه إلا هباء (٢) النواهي كلمتان : النوى ، وهي ، يريد لايساعد الصبر ، والنوى هي ما هي (٣) كذلك الدواهي كلمتان : الدواء ، وهي ، يريد أن يقول : هي الدواء لقلبي مع أنها أصل الداء . (٤) أى لمع « عبد الخالق »

ذَكَرْتُ بِهِ عَيْشَ التَّصَابِي وَطِيبَهُ
وَلَسْتُ بِنَاسِيهِ وَإِنْ عَادَ أَوْ مَضَى (١)

وَمِنْ شِعْرِهِ:

عَلَّمَتْنِي بِهَجْرِهَا الصَّبْرَ عَنْهَا فَهِيَ مَشْكُورَةٌ عَلَى التَّقْبِيحِ
وَأَرَادَتْ بِذَاكَ قُبْحَ صَنِيعٍ فَعَلَتْهُ فَكَانَ عَيْنَ الْمَلِيحِ

أَنْشَدَنِي أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الدُّبَيْثِيِّ قَالَ: أَنْشَدَنَا عُمَرُ بْنُ طَبَرْزَادَ قَالَ: أَنْشَدَنِي أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ هِبَةِ اللهِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ قَالَ: أَنْشَدَنَا الْأَمِيرُ أَبُو نَصْرٍ عَلِيُّ بْنُ هِبَةِ اللهِ لِنَفْسِهِ:

قَوِّضْ (٢) خِيَامَكَ عَنْ أَرْضٍ تُهَانُ بِهَا
وَجَانِبِ الذُّلَّ إِنَّ الذُّلَّ مُجْتَنَبُ
وَارْحَلْ إِذَا كَانَتِ الْأَوْطَانُ مَنْقَصَةً
فَالْمَنْدَلُ (٣) الرَّطْبُ فِي أَوْطَانِهِ الْحَطَبُ

قَرَأْتُ بِخَطِّ أَبِي سَعِيدٍ: أَنْبَأَنَا أَبُو نَصْرٍ يَحْيَى بْنُ خَلَفٍ الْخَلْقَانِيُّ: أَنْبَأَنَا أَبُو ثَابِتٍ بُنْجِيرُ بْنُ عَلِيٍّ: أَنْبَأَنَا أَبُو نَصْرٍ

(١) أى ذهب ، وفى هذا البيت وما قبله من الجناس مالا يخفى (٢) أى هدم
(٣) المندل : العود الطيب الرائحة

ابْنُ مَاكُولَا الْحَافِظُ : أَنْشَدَنَا أَبُو الْفَرَجِ هِبَةُ اللهِ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْعَسْقَلَانِيُّ بِهَا : أَنْشَدَنَا أَبُو عَلِيٍّ الْحَسَنُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي النَّاسِ الْعَسْقَلَانِيُّ فِي صُورَتَيْنِ كَانَتَا عَلَى كَنِيسَةٍ تُعْرَفُ بِكَنِيسَةِ ابْنِ مَرْيَمَ عَلَى شَرْقِيِّ مَحْمِلِهَا ، وَالْكَنِيسَةُ عِنْدَ بَابِ الصَّوَارِفِ بِعَسْقَلَانَ :

لَوْ ذُقْتُمَا طَعْمَ الْعِنَاقِ لَغَافَصَتْ(١) شَخْصَيْكُمَا الدُّنْيَا بِوَشْكِ فِرَاقِ

لَمْ تُغْفِلِ الْأَيَّامُ حَالَكُمَا بِهَا عَمْدًا لِتَرْفِيهٍ وَلَا إِشْفَاقِ

بَلْ لِلْأُمُورِ نِهَايَةٌ عَلِقَتْ بِهَا حُجِزَتْ أَوَامِرُهَا عَنِ الطُّرَّاقِ

فَإِذَا انْقَضَتْ أَيَّامُهَا عَادَتْ لَهَا تِلْكَ الْوَقَاحَةُ أَضْيَقَ الْأَطْوَاقِ

وَكَأَنَّنِي بِالدَّهْرِ قَدْ أَجْرَاكُمَا كَبَنِيهِ تَفْرِيقًا بِغَيْرِ تَلَاقِ

قَالَ : فَمَا مَضَى لِهَذَا الشِّعْرِ إِلَّا سَنَةٌ أَوْ نَحْوُهَا حَتَّى أَمَرَ الْحَاكِمُ بِهَدْمِ الْكَنَائِسِ فَهُدِّمَتْ ، وَهُدِّمَتْ هَذِهِ الْكَنِيسَةُ

(١) غافصه : فاجأه وأخذه على غرة

وَأُزِيلَ الشَّخْصَانِ ، فَأَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ أَبْيَاتاً فِي ذَلِكَ يَرْثِيهِمَا بِهَا :

طُوبَاكُمَا مِنْ دُمْيَتَيْنِ تَعَانَقَا   وَتَفَرَّقَا مِنْ بَعْدِ طُولِ عِنَاقِ
طَالَ اعْتِنَاقُهُمَا فَمَا نَعِمَا بِهِ
وَكَذَاكَ مَا أَلِمَا لِوَشْكِ فِرَاقِ
أَجْرَتْهُمَا الدُّنْيَا بِهَا إِذْ مَثَّلَتْ   بِمَثَابَةِ الْأَوْلَادِ فِي الْإِشْفَاقِ
صَانَتْهُمَا عَنْ كُلِّ طَارِقِ حَادِثٍ
عِنْدَ الْغُرُوبِ وَمُبْتَدَا الْإِشْرَاقِ
حَتَّى إِذَا بَلَغَا نِهَايَةَ مَوْعِدٍ   فَلَّتْ عِنَاقَهُمَا عَنِ الْأَعْنَاقِ
وَمَحَتْ رُسُومَهُمَا كَأَنْ لَمْ تَمْثُلَا
لِلنَّاظِرِينَ مَرَامِيَ[1] الْأَحْدَاقِ
حَسْبِي مِنَ الْأَيَّامِ مَعْرِفَتِي بِهَا
وَتَصَرُّفُ الْحَدَثَانِ فِي الْآفَاقِ

قَالَ شُجَاعُ بْنُ فَارِسٍ الذُّهْلِيُّ : أَنْشَدَنِي الْأَمِيرُ أَبُو نَصْرٍ عَلِيُّ بْنُ هِبَةِ اللهِ بْنِ مَاكُولَا الْحَافِظُ لِنَفْسِهِ :

---

(١) جمع مرمى ، اسم مكان ، أى كأن لم تمثلا للناظرين عند امتداد نظر الحدق

طَالَمَا ظَالِماً تَجَنَّى بِحُبِّي عَاذَ عَادٍ عَنْ فَنِّهِ عَنْ فِيهِ (١)
قَالَ قَالٍ فَاتْرُكْ فَأَبْرَكُ هجْرٍ هَجْرُ حِبٍّ خَبٍّ نَبِيهٍ بِتِيهِ
صَادَ صَاداً عَلَا (٢) عَلَا مَا أَحَلَّا مَا خَلَا مِنْ بَلِيَّةٍ مَنْ يَلِيهِ

(١) من أنواع البديع الجناس ، وله أنواع كثيرة تفنن فيها المتأخرون ، وأنت ترى أن ابن ماكولا مولع بالجناس إلى حد كبير ، وقد مر عليك طرف منه ، وهذا ضرب آخر عمد إليه اسمه الجناس الخطى أو المضارع ، وهو تشابه اللفظين فى الصورة الحرفية فالد مثلا يجانس جالد من الجلاد ، وقال الفعل ، تجانس قال اسم الفاعل من قلى وهكذا ، وترى فى البيت الأول جناسا بين ظالما مع طالما ، وتجنى مع بحبي ، وعاذ مع عاد ، وعن فنه مع عن فيه ، وفى البيت الثانى بين قال مع قال ، وفاترك مع فأبرك ، وحب مع خب ، ونبيه مع بتيه ، وفى الثالث صاد مع صادا وعلا مع علا ، وما أحلا مع ما خلا ، ومن بلية مع من يليه . ومعنى البيت الأول : طالما تجنى بسبب الحب ظالما لى ، ثم قال : استغاث معتد على فيه من فنه فمن الأولى بمعنى من ، والثانية بمعنى على ، والفن : الضرب من التفنن فى التجنى فعاذ . بمعنى استغاث ، وعاد فاعل من عدا عليه ، والبيت الثانى معناه حدثنى من قلاه فقال : اترك مثل هذا الحب فان الترك أبرك ما يكون لحب خداع يعرف كيف يتيه على حبيبه ، ثم قال فى البيت الثالث : صاد الحبيب صادا : أى أبيا متكبرا علا علوا ، ثم قال : علا ما أحلا : أى على أى وجه حل له الصيد ولكن من ولى عليه هذا المحبوب لا يخلو من بلية تصيبه ، وبعد ، فأظنك معى على أن هذا الضرب من القول على قدر كبير من السخف المعنوى ، وأنه ليسوغ للمرء أن يعده نوعا من الهذيان الشعرى ، فان فيه تكلفا كبيرا ضاع معه المعنى الذى ينبغى أن يعانيه الشاعر (٢) علا بمعنى ارتفع ، وعلى الثانية حرف جر دخلت على ما الاستفهامية فحذفت ألفها وبقيت الميم فألصق بها همزة أحلا حتى يجانس بينها وبين ما الداخلة على الفعل الذى هو خلا جناسا خطيا ، وهذا أيضا ضرب من العمل الغريب ، فما عهدنا أن الهمزة من كلمة تتصل بحرف قبلها إلا فى يأيها ويأهل على تحكم فى هذا ، فجاءنا ابن ماكولا بثالث . ويليه من ولى القوم : تولى عليهم ؟ « عبد الخالق »

قَالَ : وَأَنْشَدَنِي الأَمِيرُ لِنَفْسِهِ فِي الشَّمْعَةِ :

أَقُولُ وَمَا لِي مُسْعِدٌ غَيْرُ شَمْعَةٍ
عَلَى طُولِ لَيْلِي مَا تُرِيدُ نُزُوعَا
كِلَانَا نَحِيلٌ ذُو اصْفِرَارٍ مُعَذَّبٌ
بِنَارٍ أَسَالَتْ مِنْ حَشَاهُ نَجِيعَا (١)
أَلَا سَاعِدِينِي طُولَ لَيْلِكِ إِنَّنَا
سَنَفْنَى إِذَا جَاءَ الصَّبَاحُ جَمِيعَا

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي نَصْرٍ الحُمَيْدِيُّ : مَا رَاجَعْتُ أَبَا بَكْرٍ الخَطِيبَ فِي شَيْءٍ إِلَّا وَأَحَالَنِي عَلَى الكِتَابِ وَقَالَ حَتَّى أُبْصِرَهُ ، وَمَا رَاجَعْتُ الأَمِيرَ أَبَا نَصْرٍ عَلِيَّ بْنَ هِبَةِ اللهِ بْنِ مَا كُولَا فِي شَيْءٍ إِلَّا وَأَجَابَنِي حِفْظًا كَأَنَّهُ يَقْرَأُ مِنْ كِتَابٍ .

قَالَ : وَبَلَغَ أَبَا بَكْرٍ الخَطِيبَ أَنَّ ابْنَ مَا كُولَا أَخَذَ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ المُؤْتَنَفِ وَصَنَّفَ فِي ذَلِكَ تَصْنِيفًا ، وَحَضَرَ عِنْدَهُ ابْنُ مَا كُولَا وَسَأَلَهُ الخَطِيبُ عَنْ ذَلِكَ فَأَنْكَرَهُ وَلَمْ يُقِرَّ بِهِ وَقَالَ : تَنْسُبُنِي النَّاسُ إِلَى مَا لَا أُحْسِنُهُ مِنَ الصَّنْعَةِ ، وَاجْتَهَدَ الشَّيْخُ أَبُو بَكْرٍ أَنْ يَعْتَرِفَ بِذَلِكَ ، وَحَكَى لَهُ مَا كَانَ مِنْ عَبْدِ الغَنِيِّ بْنِ

(١) النجيع : الدم الضارب إلى السواد ، وقال الأصمعي : هو دم الجوف .

سَعِيدٍ فِى تَتَبُّعِهِ أَوْهَامَ الْحَاكِمِ أَبِى عَبْدِ اللهِ فِى كِتَابِ الْمَدْخَلِ، وَحِكَايَاتٍ عِدَّةٍ مِنْ هٰذَا الْمَعْنَى. قَالَ: أَرِنِى إِيَّاهُ، فَإِنْ يَكُنْ صَوَابًا اسْتَفَدْتُهُ مِنْكَ وَلَا أَذْكُرُهُ إِلَّا عَنْكَ، فَأَصَرَّ عَلَى الْإِنْكَارِ وَقَالَ: لَمْ يَخْطُرْ هٰذَا بِبَالِى قَطُّ وَلَمْ أَبْلُغْ هٰذِهِ الدَّرَجَةَ، أَوْ كَمَا قَالَ.

فَلَمَّا مَاتَ الْخَطِيبُ أَظْهَرَ كِتَابَهُ، وَهُوَ الَّذِى سَمَّاهُ كِتَابَ تَهْذِيبِ مُسْتَقَرِّ الْأَوْهَامِ عَلَى ذَوِى التَّمَنِّى وَالْأَحْلَامِ، أَبُو[1] الْحَسَنِ الدَّارَقُطْنِىُّ، وَأَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ عَلِىٍّ الْخَطِيبُ، وَهُوَ فِى عَشَرَةِ أَجْزَاءٍ لِطَافٍ، وَلَهُ مِنَ التَّصَانِيفِ سِوَى مَا ذَكَرْنَاهُ: كِتَابُ الْوُزَرَاءِ، كِتَابُ الْإِكْمَالِ فِى الْمُؤْتَلِفِ وَالْمُخْتَلِفِ.

﴿ ٢٩ – عَلِىُّ بْنُ هَارُونَ بْنِ نَصْرٍ الْقَرْمِيسِينِىُّ * ﴾

على بن هارون القرميسينى

النَّحْوِىُّ أَبُو الْحَسَنِ. أَخَذَ عَنْ عَلِىِّ بْنِ سُلَيْمَانَ الْأَخْفَشِ، وَأَخَذَ عَنْهُ عَبْدُ السَّلَامِ الْبَصْرِىُّ، وَمَاتَ فِى سَنَةِ إِحْدَى وَسَبْعِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ فِى خِلَافَةِ الطَّائِعِ، وَمَوْلِدُهُ فِى سَنَةِ تِسْعِينَ وَمِائَتَيْنِ.

(١) لعل هذا خبر لمحذوف بيان لذوى السابقة وهو خبر على القطع، ولو أتبع لقال أبى « عبد الخالق »

(*) راجع بغية الوعاة

٣٠ – عَلِيُّ بْنُ هَارُونَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ يَحْيَى بْنِ أَبِي مَنْصُورٍ *

علي بن هارون المنجم

الْمُنَجِّمُ أَبُو الْحَسَنِ . قَدْ ذَكَرْنَا أَبَاهُ هَارُونَ وَأَجْدَادَهُ فِي مَوَاضِعِهِمْ مِنَ الْكِتَابِ . قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ النَّدِيمُ : رَأَيْنَاهُ وَسَمِعْنَا مِنْهُ ، وَكَانَ رَاوِيَةً شَاعِرًا أَدِيبًا ظَرِيفًا مُتَكَلِّمًا حَبْرًا ، نَادَمَ جَمَاعَةً مِنَ الْخُلَفَاءِ وَقَالَ لِي : مَوْلِدِي سَنَةَ سَبْعٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ .

وَقَالَ ثَابِتٌ : مَوْلِدُهُ فِي صَفَرٍ سَنَةَ سِتٍّ وَسَبْعِينَ ، وَمَاتَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ عَنْ سِتٍّ وَسَبْعِينَ سَنَةً ، وَلَهُ مِنَ الْكُتُبِ : كِتَابُ النَّوْرُوزِ وَالْمِهْرَجَانِ ، كِتَابُ الرَّدِّ عَلَى الْخَلِيلِ فِي الْعَرُوضِ ، كِتَابُ الرِّسَالَةِ فِي الْفَرْقِ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ ابْنِ الْمَهْدِي وَإِسْحَاقَ بْنِ الْمَوْصِلِيِّ فِي الْغِنَاءِ ، كِتَابٌ ابْتَدَأَ فِيهِ بِنَسَبِ أَهْلِهِ عَمِلَهُ لِلْمُهَلَّبِيِّ الْوَزِيرِ وَلَمْ يُتِمَّ ، كِتَابُ اللَّفْظِ الْمُحِيطِ بِبَعْضِ مَا لَفَظَ بِهِ اللَّقِيطُ عَارَضَ بِهِ كِتَابَ أَبِي الْفَرَجِ الْأَصْبَهَانِيِّ ، كِتَابُ الْفَرْقِ وَالْمِعْيَارِ بَيْنَ الْأَوْغَادِ وَالْأَحْرَارِ ، كِتَابُ الْقَوَافِي عَمِلَهُ لِعَضُدِ الدَّوْلَةِ .

وَحَدَّثَ أَبُو الْقَاسِمِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبَّادٍ فِي كِتَابِ الرُّوزْنَامَجَةِ قَالَ فِيهِ : اسْتَدْعَانِي الْأُسْتَاذُ أَبُو مُحَمَّدٍ فَحَضَرْتُ وَابْنَا الْمُنَجِّمِ

(*) ترجم له في كتاب أنباء الرواة

فِی مَجْلِسِهِ ، وَقَدْ أَعَدُّوا قَصِيدَتَيْنِ فِی مَدْحِهِ فَمَنَعَهُمَا مِنَ النَّشِيدِ لِأَحْضُرَهُ ، فَأَنْشَدَا وَجَوَّدَا بَعْدَ تَشْبِيبٍ كَبِيرٍ وَحَدِيثٍ طَوِيلٍ.
قَالَ الْمُؤَلِّفُ : « أَرَاهُ الْمُهَلَّبِيَّ » كَانَ لِأَبِي الْحَسَنِ رَسْمٌ « أَخْشَى تَكْذِيبَ سَيِّدِنَا إِنْ شَرَحْتُهُ ، وَعِتَابَهُ إِنْ طَوَيْتُهُ ، وَلَأَنْ أَحْصُلَ عِنْدَهُ فِی صُورَةِ مُتَزَيِّدٍ أَحَبُّ إِلَیَّ مِنْ أَنْ أَحْصُلَ عِنْدَهُ فِی رُتْبَةِ مُقَصِّرٍ » يَبْتَدِئُ فَيَقُولُ بِبَحَّةٍ عَجِيبَةٍ بَعْدَ إِرْسَالِ دُمُوعِهِ ، وَتَرَدُّدِ الزَّفَرَاتِ فِی حَلْقِهِ وَاسْتِدْعَائِهِ مِنْ خَوْدٍ غُلَامِهِ ، مِنْدِيلَ عَبَرَاتِهِ ، وَاللهِ وَاللهِ وَإِلَّا فَأَيْمَانُ الْبَيْعَةِ تَلْزَمُهُ بِحِلِّهَا وَحَرَامِهَا وَطَلَاقِهَا وَعِتَاقِهَا ، وَمَا يَنْقَلِبُ إِلَيْهِ حَرَامٌ ، وَعَبِيدُهُ أَحْرَارٌ لِوَجْهِ اللهِ تَعَالَی إِنْ كَانَ هَذَا الشِّعْرُ فِی اسْتِطَاعَةِ أَحَدٍ مِثْلُهُ ، أَوِ اتَّفَقَ مِنْ عَهْدِ أَبِی دَاوُودَ الْإِيَادِيِّ إِلَی زَمَانِ ابْنِ الرُّومِیِّ لِأَحَدٍ شَكْلُهُ ، بَلْ عَيْبُهُ أَنَّ مَحَاسِنَهُ تَتَابَعَتْ ، وَبَدَائِعَهُ تَرَادَفَتْ .

وَقَدْ كَانَ فِی الْحَقِّ أَنْ يَكُونَ كُلُّ بَيْتٍ مِنْهُ فِی دِيوَانٍ يَحْمِلُهُ ، وَيَسُودُ بِهِ شَاعِرُهُ ثُمَّ يُنْشِدُ ، فَإِذَا بَلَغَ بَيْتًا يُعْجَبُ بِهِ وَيَتَعَجَّبُ[1] مِنْهُ . وَقَالَ أَيُّهَا الْوَزِيرُ : مَنْ يَسْتَطِيعُ هَذَا إِلَّا عَبْدُكَ

(۱) يعنی أن أبا الحسن يعجب ويتعجب ويقول

عَلِيُّ بْنُ هَارُونَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ يَحْيَ بْنِ أَبِي مَنْصُورِ بْنِ الْمُنَجِّمِ جَلِيسُ الْخُلَفَاء، وَأَنِيسُ الْوُزَرَاء ؛ ثُمَّ يُنْشِدُ الإِبْنُ وَالْأَبُ يُعَوِّذُهُ وَيَهْتَزُّ لَهُ ، وَيَقُولُ أَبُو عَبْدِ اللهِ : أَسْتَوْدِعُهُ اللهَ وَلِيُّ عَهْدِي، وَخَلِيفَتِي بَعْدِي، وَلَوِ اشْتَجَرَ اثْنَانِ مِنْ مِصْرَ وَخُرَاسَانَ لَمَا رَضِيتُ لِفَصْلِ مَا بَيْنَهُمَا سِوَاهُ ، أَمْتَعَنَا اللهُ بِهِ وَرَعَاهُ ، وَحَدِيثُهُ عَجِيبٌ. وَإِنِ اسْتَوْفَيْتُهُ ضَاعَ الْغَرَضُ الَّذِي قَصَدْتُهُ ،عَلَى أَنَّهُ أَيَّدَ اللهُ مَوْلَانَا مِنْ سَعَةِ النَّفْسِ وَالْخُلُقِ ، وَوُفُورِ الْأَدَبِ وَالْفَضْلِ وَتَمَامِ الْمُرُوءَةِ وَالظَّرْفِ بِحَالٍ أَعْجِزُ عَنْ وَصْفِهَا ، وَأَزِلُّ عَنْ جُمْلَتِهَا ، إِنَّهُ مَعَ كَثْرَةِ عِيَالِهِ وَاخْتِلَالِ أَحْوَالِهِ ، طَلَبَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ جَارِيَتَهُ الْمُغَنِّيَةَ بِعِشْرِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ أَحْضَرَهَا صَاحِبُهُ فَامْتَنَعَ مِنْ بَيْعِهَا وَأَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا ، وَمِنْ شِعْرِ عَلِيِّ بْنِ هَارُونَ وَكَتَبَ بِهَا إِلَى أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ خَلَفِ بْنِ طِيَابٍ :

بَيْنِي وَبَيْنَ الدَّهْرِ فِيكَ عِتَابُ ... سَيَطُولُ إِنْ لَمْ يَمْحُهُ الْإِعْتَابُ
يَا غَائِبًا بِوِصَالِهِ وَكِتَابِهِ ... هَلْ يُرْتَجَى مِنْ غَيْبَتَيْكَ إِيَابُ ؟
لَوْلَا التَّعَلُّلُ بِالرَّجَاءِ تَقَطَّعَتْ ... نَفْسٌ عَلَيْكَ شِعَارُهَا الْأَوْصَابُ (١)

(١) جمع وصب والوصب : نحول الجسم والمرض الدائم

لَا يَأْسَ مِنْ رَوْحِ الْإِلَهِ فَرُبَّمَا
يَصِلُ الْقَطُوعُ وَيَحْضُرُ الْغُيَّابُ
وَإِذَا دَنَوْتَ مُوَاصِلًا فَهُوَ الْمُنَى
سَعِدَ الْمُحِبُّ وَسَاعَدَ الْأَحْبَابُ
وَإِذَا نَأَيْتَ فَلَيْسَ لِي مُتَعَلَّلٌ
إِلَّا رَسُولٌ بِالرِّضَا وَكِتَابُ

وَحَدَّثَ أَبُو عَلِيٍّ الْمُحَسِّنُ بْنُ عَلِيٍّ التَّنُوخِيُّ الْقَاضِي فِي نِشْوَارِ الْمُحَاضَرَةِ قَالَ : حَدَّثَنِي أَبُو الْفَتْحِ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ هَارُونَ بْنِ الْمُنَجِّمِ قَالَ : حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ : كُنْتُ وَأَنَا صَبِيٌّ لَا أُقِيمُ الرَّاءَ فِي كَلَامِي وَأَجْعَلُهَا غَيْنًا ، وَكَانَتْ سِنِّي إِذْ ذَاكَ أَرْبَعَ سِنِينَ ، أَقَلَّ أَوْ أَكْثَرَ ، فَدَخَلَ أَبُو طَالِبٍ الْفَضْلُ بْنُ سَلَمَةَ ، أَوْ أَبُو بَكْرٍ الدِّمَشْقِيُّ « شَكَّ أَبُو الْفَتْحِ » إِلَى أَبِي وَأَنَا بِحَضْرَتِهِ ، فَتَكَلَّمْتُ بِشَيْءٍ فِيهِ رَاءٌ فَلَثَغْتُ فِيهَا ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ : يَاسَيِّدِي ، لِمَ تَدَعُ أَبَا الْحَسَنِ يَتَكَلَّمُ هَكَذَا ؟ فَقَالَ لَهُ : مَا أَصْنَعُ وَهُوَ أَلْثَغُ ؟ فَقَالَ لَهُ : « وَأَنَا أَسْمَعُ وَأُحَصِّلُ مَا جَرَى وَأَضْبِطُهُ » إِنَّ اللَّثْغَةَ لَا تَصِحُّ مَعَ سَلَامَةِ الْجَارِحَةِ ، وَإِنَّمَا هِيَ عَادَةُ سُوءٍ تَسْبِقُ إِلَى الصَّبِيِّ أَوَّلَ مَا يَتَكَلَّمُ لِجَهْلِهِ

بِتحقيقِ الْأَلْفاظِ وسَماعِهِ شيئًا يحتذِيهِ ، فإنْ تُرِكَ على مَا يَستصحبُهُ مِنْ ذلِكَ مَرَنَ عليْهِ ، فصارَ لهُ طبْعًا لا يُمكِنهُ التحوُّلُ عنهُ ، وإنْ أُخِذَ بتركِهِ فِي أوّلِ نشْوِهِ اُستقامَ لِسانُهُ وزَالَ عنْهُ ، وَأنَا أُزِيلُ هذا عَنْ أَبِي الحَسنِ وَلا أَرْضَى فِيهِ بتَرْكِكَ لهُ عليْهِ ، ثُمَّ قالَ لِي : أَخرِجْ لِسانَكَ ، فأَخرجْتُهُ فتأَمَّلهُ وقالَ : الجَارِحةُ صحيحةٌ ، قُلْ يا بُنيَّ رَا ، وَاجْعلْ لِسانَكَ فِي سقْفِ حلْقِكَ ، ففعلْتُ ذلِكَ فلَمْ تَستوِ لِي ، فمَا زالَ يَرْفُقُ بِي مرَّةً وَيخشُنُ بِي أُخرَى ، وَينقُلُ لِسانِي مِنْ موْضِعٍ إلَى موْضِعٍ مِنْ فمِي ، ويأْمُرُني أنْ أقولَ الرّاءَ فِيهِ ، فإذا لمْ يَستوِ لِي نقَلَ لِسانِي إِلَى موْضِعٍ آخرَ دفعاتٍ كثيرةٍ فِي زمانٍ طَوِيلٍ حتّى قُلتُ رَاءً صحيحةً فِي بعضِ تِلْكَ الموَاضِعِ ، وطالبَنِي وأوْصَى مُعلِّمِي بِإِلزامِي ذلِكَ حتّى مرَنَ لِسانِي عليْهِ ، وذهبتْ عنِّي اللثْغةُ .

ومِنْ كتابِ الرُّوزْنامْجةِ قالَ الصّاحِبُ : وتوفّرتُ علَى عِشْرةِ فضلاءِ البلَدِ ، فأوّلُ منْ كارَثَنِي[1] أوْلادُ المُنجِّمِ لِفضْلِ أَبِي الحسنِ علِيِّ بنِ هارُونَ وغزارتِهِ ،

(١) أي اشتد علي وعارضني

وَاسْتِكْثَارِي مِنْ رِوَايَتِهِ وَطِيبِ سَمَاعِهِ وَلَذِيذِ عِشْرَتِهِ. فَسَمِعْتُ مِنْهُ أَخْبَارًا عَجِيبَةً وَحِكَايَاتٍ غَرِيبَةً، وَمِنْ سِتَارَتِهِ أَصْوَاتًا نَادِرَةً مُشَنَّفَةً مُقَرْطَقَةً يَقُولُ فِي كُلٍّ مِنْهَا: الشِّعْرُ لِفُلَانٍ، وَالصَّنْعَةُ لِفُلَانٍ، أَخَذَتْهُ هَذِهِ عَنْ فُلَانٍ، أَوْ فُلَانَةَ، حَتَّى يَتَّصِلَ النَّسَبُ بِإِسْحَاقَ أَوْ غَيْرِهِ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِهِ، وَكَانَ أَكْثَرَ مَا يُعْجَبُ بِهِ مَوْلَاهَا أَبْيَاتٌ لَهُ أَوَّلُهَا:

ضَلَّ الْفِرَاقُ وَلَا اهْتَدَى ... وَنَأَتْ فَلَا دَنَتِ النَّوَى
وَهَوًى فَلَا وَجَدَ الْقَرَا ... رَ مُعَنِّفٌ أَهْلَ الْهَوَى (١)

فَاتَّفَقَ أَنْ سَأَلْتُ أَوَّلَ مَا سَمِعْتُ اللَّحْنَ فِيهِ عَنْ قَائِلِهِ، فَغَضِبَ وَاسْتَشَاطَ، وَتَنَكَّرَ وَاسْتَوْفَزَ، وَنَفَرَ وَتَنَمَّرَ وَقَالَ: تَقُولُ لِمَنْ هَذَا؟ أَمَا يَدُلُّ عَلَى قَائِلِهِ؟ أَمَا يُعْرِبُ عَنْ جَوْهَرِهِ؟ أَمَا تَرَى أَثَرَ بَنِي الْمُنَجِّمِ عَلَى صَفْحَتِهِ؟ أَمَا يَحْمِيهِ لَأْلَاؤُهُ أَوْ لَوْذَعِيَّتُهُ مِنْ أَنْ يُدَالَ (٢) بِمَنْ؟ وَمِمَّنْ هُوَ الرَّجُلُ؟ وَذَكَرَهُ الْمَرْزُبَانِيُّ فِي الْمُعْجَمِ فَقَالَ: « الْمُنَجِّمُ » وَهُوَ الْقَائِلُ:

---

(١) معنف فاعل هوى، وجملة فلا وجد معترضة دعاء على المعنف، أي لا قر له قرار

(٢) يدال: يقال أي يتداول الناس فيه القول والسؤال بمن وممن « عبد الخالق »

وَإِنِّى لَأَثْنِى النَّفْسَ عَمَّا يَرِيبُهَا [١]
وَأَنْزِلُ مِنْ دَارِ الْهَوَانِ بِمَعْزِلِ
بِهِمَّةِ نُبْلٍ لَا يُرَامُ مَكَانُهَا
تَحُلُّ مِنَ الْعَلْيَاءِ أَشْرَفَ مَنْزِلِ
وَلِى مَنْطِقٌ إِنْ لَجْلَجَ [٢] الْقَوْلُ صَائِبٌ
بِتَكْشِيفِ إِلْبَاسٍ وَتَطْبِيقِ مِفْصَلِ

وَلَهُ يَمْدَحُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

وَهَلْ خَصْلَةٌ مِنْ سُؤْدَدٍ لَمْ يَكُنْ لَهَا
أَبُو حَسَنٍ مِنْ بَيْنِهِمْ نَاهِضاً قِدْمَا ؟
فَمَا فَاتَهُمْ مِنْهَا بِهِ سَلَّمُوا لَهُ
وَمَا شَارَكُوهُ كَانَ أَوْفَرَهُمْ قِسْمَا

وَفِى كِتَابِ أَبِى عَلِيٍّ التَّنُوخِيِّ : كَانَ أَبُو أَحْمَدَ الْفَضْلُ ابْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَعْفَرٍ الشِّيرَازِيُّ الْكَاتِبُ خَصِيصاً بِالْوَزِيرِ أَبِي عَلِيِّ بْنِ مُقْلَةَ وَكَانَ يَعْشَقُ مُغَنِّيَةً ، وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهَا جَمِيعَ مَا يَتَحَصَّلُ لَهُ ، وَلَهُ مَعَهَا أَخْبَارٌ ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْجَارِيَةُ صَفْرَاءَ

(١) أثنى : أمنع ، يريبها : يوقعها فى الشك (٢) لجلج القول : تردد فيه صاحبه وعى

وَاُسْمُهَا لَهْجَةُ فَشَرِبَ مَعَهَا لَيْلَةً وَأَصْبَحَ مَخْمُوراً فَآثَرَ الْجُلُوسَ مَعَهَا، وَأَرَادَ الِاعْتِذَارَ إِلَى الْوَزِيرِ اُبْنِ مُقْلَةَ مِنَ التَّأَخُّرِ عَنِ الْخِدْمَةِ وَأَنْ يُخْفِيَ خَبَرَهُ عَنْهُ. فَكَتَبَ رُقْعَةً يَعْتَذِرُ فِيهَا وَيَقُولُ: إِنَّ الصَّفْرَاءَ تَحَرَّكَتْ عَلَيَّ فَتَأَخَّرْتُ، فَوَقَّعَ عَلَى ظَهْرِ الرُّقْعَةِ بِخَطِّهِ: «أَنْتَ تَحَرَّكْتَ عَلَى الصَّفْرَاءِ، وَلَيْسَتِ الصَّفْرَاءُ تَحَرَّكَتْ عَلَيْكَ». قَالَ: وَهَذَا التَّوْقِيعُ يُشْبِهُ مَا أَنْشَدَنَا عَلِيُّ بْنُ هَارُونَ الْمُنَجِّمُ لِنَفْسِهِ فِي جَارِيَتِهِ صَفْرَاءَ، وَقَدْ شَكَا إِلَى الطَّبِيبِ مَرَّةً صَفْرَاءَ، وَلَا أَدْرِي أَيُّهُمَا أَخَذَهُ مِنْ صَاحِبِهِ؟

جَسَّ الطَّبِيبُ يَدِي وَقَالَ مُخَبِّراً
هَذَا الْفَتَى أَوْدَتْ بِهِ الصَّفْرَاءُ
فَعَجِبْتُ مِنْهُ إِذْ أَصَابَ وَمَا دَرَى
قَوْلًا وَظَاهِرُ مَا أَرَادَ خَطَاءُ

قُلْتُ أَنَا: وَقَرِيبٌ مِنْ هَذَا قَوْلُ الْوَزِيرِ الْمُهَلَّبِيِّ:

وَقَالُوا لِلطَّبِيبِ أَشِرْ فَإِنَّا ... نُعِدُّكَ لِلْعَظِيمِ مِنَ الْأُمُورِ
فَقَالَ شِفَاؤُهُ الرُّمَّانُ مِمَّا ... تَضَمَّنَهُ حَشَاهُ مِنَ السَّعِيرِ
فَقُلْتُ لَهُمْ أَصَابَ بِغَيْرِ قَصْدٍ ... وَلَكِنْ ذَاكَ رُمَّانُ الصُّدُورِ

وَكَانَ لِعَلِيِّ بْنِ هَارُونَ وَلَدٌ يُقَالُ لَهُ أَبُو الْفَتْحِ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيِّ ابْنِ هَارُونَ الْمُنَجِّمُ، كَانَ أَدِيبًا فَاضِلًا إِلَّا أَنِّي لَمْ أَقِفْ لَهُ عَلَى تَصْنِيفٍ فَلَمْ أُفْرِدْهُ بِتَرْجَمَةٍ وَالْمَقْصُودُ ذِكْرُهُ. وَقَدْ ذُكِرَ هَاهُنَا، رَوَى عَنْهُ أَبُو عَلِيٍّ التَّنُوخِيُّ فِي نِشْوَارِهِ فَأَكْثَرَ وَقَالَ: أَنْشَدَنِي أَبُو الْفَتْحِ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ هَارُونَ لِنَفْسِهِ:

مَا أَنْسَ مِنْهَا لَا أَنْسَ مَوْقِفَهَا ... وَقَلْبُهَا لِلْفِرَاقِ يَنْصَدِعُ

وَقَوْلَهَا إِذْ بَدَا الصَّبَاحُ لَهَا ... قَوْلُ فَزُوعٍ أَظَلَّهُ الْجَزَعُ

مَا أَطْوَلَ اللَّيْلَ عِنْدَ فُرْقَتِنَا ... وَأَقْصَرَ اللَّيْلَ حِينَ نَجْتَمِعُ!!

قَالَ التَّنُوخِيُّ: وَأَنْشَدَنِي أَبُو الْفَتْحِ لِنَفْسِهِ وَكَتَبَ بِهَا إِلَى أَبِي الْفَرَجِ مُحَمَّدِ بْنِ الْعَبَّاسِ «فسانجس (١)» فِي وِزَارَتِهِ وَقَدْ حُمِلَ عَلَى الْأَعْدَاءِ فِي الْأَهْوَازِ:

قُلْ لِلْوَزِيرِ سَلِيلِ الْمَجْدِ وَالْكَرَمِ

وَمَنْ لَهُ قَامَتِ الدُّنْيَا عَلَى قَدَمِ

﴿ ٣١ – عَلِيُّ بْنُ هِلَالٍ الْكَاتِبُ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ الْبَوَّابِ * ﴾

علي بن هلال الكاتب

أَبُو الْحَسَنِ، صَاحِبُ الْخَطِّ الْمَلِيحِ وَالْإِذْهَابِ الْفَائِقِ.

(١) هذه الكلمة فيما أظن لقب باللغة الفارسية حاولت أن أصل إلى معناه فما استطعت وقد تقدم مثلها لفظة حرها فى ألقاب الصاحب «عبد الخالق»

(*) راجع شذرات الذهب ص ٩٩٩ ج ٥

وَجَدْتُ بِخَطِّ ٱبْنِ الشَّبِيهِ ٱلْعَلَوِىِّ ٱلْكَاتِبِ صَاحِبِ الْخَطِّ ٱلْفَائِقِ فِي آخِرِ دِيوَانِ أَبِي الطَّمْحَانِ ٱلْقَيْنِيِّ بِخَطِّهِ مَا صُورَتُهُ : وَكُتِبَ فِي صَفَرٍ سَنَةَ عِشْرِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ مِنْ خَطِّ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ هَلَالٍ[١] السِّتْرِىِّ مَوْلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ صَخْرِ بْنِ حَرْبٍ الْأُمَوِىِّ، وَهٰذَا قَدْ كَانَ بِغَيْرِ شَكٍّ مُعَاصِرَهُ . بَلَغَنِي أَنَّهُ كَانَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ مُزَوِّقًا يُصَوِّرُ الدُّورَ ثُمَّ صَوَّرَ الْكُتُبَ ثُمَّ تَعَانَى الْكِتَابَةَ فَفَاقَ فِيهَا الْمُتَقَدِّمِينَ وَأَعْجَزَ الْمُتَأَخِّرِينَ، وَكَانَ يَعِظُ بِجَامِعِ الْمَنْصُورِ، وَلَمَّا وَرَدَ فَخْرُ الْمُلْكِ أَبُو غَالِبٍ مُحَمَّدُ بْنُ خَلَفٍ الْوَزِيرُ وَالِيًا عَلَى الْعِرَاقِ مِنْ قِبَلِ بَهَاءِ الدَّوْلَةِ أَبِي نَصْرِ بْنِ عَضُدِ الدَّوْلَةِ جَعَلَهُ مِنْ نُدَمَائِهِ، وَفِي الْجُمْلَةِ إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي عَصْرِهِ ذَاكَ النَّفَاقُ الَّذِي لَهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ، وَذَاكَ أَنَّنِي وَجَدْتُ رُقْعَةً بِخَطِّهِ قَدْ كَتَبَهَا إِلَى بَعْضِ الْأَعْيَانِ يَسْأَلُهُ فِيهَا مُسَاعَدَةَ صَاحِبِهِ ٱبْنِ مَنْصُورٍ، وَإِنْجَازَ وَعْدٍ وَعَدَهُ بِهِ لَا يُسَاوِي دِينَارَيْنِ، وَقَدْ بَسَطَ الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ ٱسْتَطَلْتُهَا فَإِنَّهَا كَانَتْ نَحْوَ السَّبْعِينَ سَطْرًا فَأَلْغَيْتُ إِثْبَاتَهَا، وَقَدْ بِيعَتْ بِسَبْعَةَ عَشَرَ دِينَارًا

---

(١) رأيتها هكذا هليل فى الأصل ، ولا أدرى لم هذا ؟ فجعلتها هلال ، والسترى سمى به لأنه كان بواباً ملازماً للستر « عبد الخالق »

إِمَامِيَّةً ، وَبَلَغَنِي أَنَّهَا بِيعَتْ مَرَّةً أُخْرَى بِخَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ دِينَاراً . مَاتَ فِيمَا ذَكَرَهُ هِلَالُ بْنُ الْمُحَسِّنِ بْنِ الصَّابِئِ فِي جُمَادَى الْأُولَى سَنَةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ، وَدُفِنَ فِي جِوَارِ قَبْرِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَذَلِكَ فِي خِلَافَةِ الْقَادِرِ بِاللهِ ، وَرَثَاهُ الْمُرْتَضَى بِشِعْرٍ أَذْكُرُهُ فِيمَا بَعْدُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

وَحَدَّثَ فِي كِتَابِ الْمُفَاوَضَةِ قَالَ : حَدَّثَنِي أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ ابْنُ هِلَالٍ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ الْبَوَّابِ الْكَاتِبُ قَالَ : كُنْتُ أَتَصَرَّفُ فِي خِزَانَةِ الْكُتُبِ لِبَهَاءِ الدَّوْلَةِ بْنِ عَضُدِ الدَّوْلَةِ بِشِيرَازَ عَلَى اخْتِيَارِي وَأُرَاعِيهَا لَهُ وَأَمْرُهَا مَرْدُودٌ إِلَيَّ ، فَرَأَيْتُ يَوْماً فِي جُمْلَةِ أَجْزَاءٍ مَنْبُوذَةٍ جُزْءًا مُجَلَّداً بِأَسْوَدَ قَدْرَ السُّكَّرِيِّ فَفَتَحْتُهُ وَإِذَا هُوَ جُزْءٌ مِنْ ثَلَاثِينَ جُزْءًا مِنَ الْقُرْآنِ بِخَطِّ أَبِي عَلِيِّ بْنِ مُقْلَةَ ، فَأَعْجَبَنِي وَأَفْرَدْتُهُ فَلَمْ أَزَلْ أَظْفَرُ بِجُزْءٍ بَعْدَ جُزْءٍ مُخْتَلِطٍ فِي جُمْلَةِ الْكُتُبِ إِلَى أَنِ اجْتَمَعَ تِسْعَةٌ وَعِشْرُونَ جُزْءًا ، وَبَقِيَ جُزْءٌ وَاحِدٌ اسْتَغْرَقْتُ تَفْتِيشَ الْخِزَانَةِ عَلَيْهِ مُدَّةً طَوِيلَةً فَلَمْ أَظْفَرْ بِهِ ، فَعَلِمْتُ أَنَّ الْمُصْحَفَ نَاقِصٌ فَأَفْرَدْتُهُ وَدَخَلْتُ إِلَى بَهَاءِ الدَّوْلَةِ وَقُلْتُ : يَامَوْلَانَا ، هَهُنَا رَجُلٌ يَسْأَلُ حَاجَةً قَرِيبَةً لَا كُلْفَةَ فِيهَا ، وَهِيَ مُخَاطَبَةُ أَبِي عَلِيٍّ الْمُوَفَّقِ

الْوَزِيرِ عَلَى مَعُونَتِهِ فِي مُنَازَعَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَصْمٍ لَهُ ، وَمَعَهُ هَدِيَّةٌ طَرِيفَةٌ تَصْلُحُ لِمَوْلَانَا . قَالَ : أَيُّ شَيْءٍ هِيَ ؟ قُلْتُ مُصْحَفٌ بِخَطِّ أَبِي عَلِيِّ بْنِ مُقْلَةَ . فَقَالَ : هَاتِهِ وَأَنَا أَتَقَدَّمُ بِمَا يُرِيدُ ، فَأَحْضَرْتُ الْأَجْزَاءَ فَأَخَذَ مِنْهَا وَاحِداً وَقَالَ : أَذْكُرُ وَكَانَ فِي الْخِزَانَةِ مَا يُشْبِهُ هَذَا وَقَدْ ذَهَبَ عَنِّي ، قُلْتُ : هَذَا مُصْحَفُكَ وَقَصَصْتُ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ فِي طَلَبَتِي لَهُ حَتَّى جَمَعْتُهُ إِلَّا أَنَّهُ يَنْقُصُ جُزْءاً وَقُلْتُ : هَكَذَا يُطْرَحُ مُصْحَفٌ بِخَطِّ أَبِي عَلِيٍّ ؟ فَقَالَ لِي : فَتَمِّمْهُ لِي . قُلْتُ : السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ ، وَلَكِنْ عَلَى شَرِيطَةِ أَنَّكَ إِذَا أَبْصَرْتَ الْجُزْءَ النَّاقِصَ مِنْهَا وَلَا تَعْرِفُهُ أَنْ تُعْطِيَنِي خِلْعَةً وَمِائَةَ دِينَارٍ . قَالَ : أَفْعَلُ . وَأَخَذْتُ الْمُصْحَفَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَانْصَرَفْتُ إِلَى دَارِي ، وَدَخَلْتُ الْخِزَانَةَ أُقَلِّبُ الْكَاغِدَ الْعَتِيقَ وَمَا يُشَابِهُ كَاغِدَ الْمُصْحَفِ ، وَكَانَ فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْكَاغِدِ السَّمَرْقَنْدِيِّ وَالصِّينِيِّ وَالْعَتِيقِ كُلُّ طَرِيفٍ عَجِيبٍ ، فَأَخَذْتُ مِنَ الْكَاغِدِ مَا وَافَقَنِي ، وَكَتَبْتُ الْجُزْءَ وَذَهَّبْتُهُ وَعَتَّقْتُ ذَهَبَهُ ، وَقَلَعْتُ جِلْداً مِنْ جُزْءٍ مِنَ الْأَجْزَاءِ فَجَلَّدْتُهُ بِهِ وَجَلَّدْتُ الَّذِي قَلَعْتُ مِنْهُ الْجِلْدَ وَعَتَّقْتُهُ ، وَنَسِيَ بَهَاءُ الدَّوْلَةِ الْمُصْحَفَ ، وَمَضَى عَلَى ذَلِكَ نَحْوُ السَّنَةِ . فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ

جَرَى ذِكْرُ أَبِي عَلِيٍّ بْنِ مُقْلَةَ فَقَالَ لِي : مَا كَتَبْتَ ذَلِكَ ؟ قُلْتُ : بَلَى ، قَالَ: فَأَعْطِنِيهِ : فَأَحْضَرْتُ الْمُصْحَفَ كَامِلًا فَلَمْ يَزَلْ يُقَلِّبُهُ جُزْءًا جُزْءًا وَهُوَ لَا يَقِفُ عَلَى الْجُزْءِ الَّذِي بِخَطِّي ثُمَّ قَالَ لِي : أَيُّمَا هُوَ الْجُزْءُ الَّذِي بِخَطِّكَ ؟ قُلْتُ لَهُ : لَا تَعْرِفُهُ فَيَصْغُرَ فِي عَيْنِكَ ، هَذَا مُصْحَفٌ كَامِلٌ بِخَطِّ أَبِي عَلِيٍّ بْنِ مُقْلَةَ وَنَكْتُمُ سِرَّنَا ؟ قَالَ : أَفْعَلُ : وَتَرَكَهُ فِي رَبْعَةٍ عِنْدَ رَأْسِهِ وَلَمْ يُعِدْهُ إِلَى الْخِزَانَةِ ، وَأَقَمْتُ مُطَالِبًا بِالْخِلْعَةِ وَالدَّنَانِيرِ وَهُوَ يَمْطُلُنِي وَيَعِدُنِي ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمًا قُلْتُ يَا مَوْلَانَا : فِي الْخِزَانَةِ بَيَاضٌ صِينِيٌّ وَعَتِيقٌ مَقْطُوعٌ وَصَحِيحٌ ، فَتُعْطِينِي الْمَقْطُوعَ مِنْهُ كُلَّهُ دُونَ الصَّحِيحِ بِالْخِلْعَةِ وَالدَّنَانِيرِ . قَالَ مُرْ وَخُذْهُ . فَمَضَيْتُ وَأَخَذْتُ جَمِيعَ مَا كَانَ فِيهَا مِنْ ذَلِكَ النَّوْعِ فَكَتَبْتُ فِيهِ سِنِينَ .

وَوَجَدْتُ فِي تَارِيخِ أَبِي الْفَرَجِ بْنِ الْجَوْزِيِّ قَالَ : اجْتَازَ أَبُو الْحَسَنِ الْبَتِّيُّ الْكَاتِبُ وَكَانَ مَزَّاحًا « وَلَهُ فِي هَذَا الْكِتَابِ بَابٌ » وَعَلِيُّ بْنُ هِلَالٍ جَالِسٌ عَلَى بَابِ الْوَزِيرِ فَخْرِ الْمُلْكِ أَبِي غَالِبٍ مُحَمَّدِ بْنِ خَلَفٍ يَنْتَظِرُ الْإِذْنَ . فَقَالَ لَهُ الْبَتِّيُّ : جُلُوسُ

الأُسْتَاذِ عَلَى العَتَبِ رِعَايَةً لِلنَّسَبِ (١) . فَغَضِبَ ابْنُ الْبَوَّابِ وَقَالَ: لَوْ أَنَّ إِلَيَّ أَمْرًا مَا مَكَّنْتُكَ مِنْ دُخُولِ هَذِهِ الدَّارِ. فَقَالَ الْبَتِّيُّ: لا يَتْرُكُ الأُسْتَاذُ صَنْعَةَ الْوَالِدِ بِحَالٍ. وَلِبَعْضِهِمْ يَهْجُو ابْنَ الْبَوَّابِ:

مَاذَا رَأَيْتُمْ مِنَ النَّسَّاخِ مُتَّخِذًا
سِبَالَ لِصٍّ عَلَى عُثْنُونِ (٢) مُحْتَالِ؟
هَذَا وَأَنْتَ ابْنُ بَوَّابٍ وَذُو عَدَمٍ
فَكَيْفَ لَوْ كُنْتَ رَبَّ الدَّارِ وَالْمَالِ؟

وَكَانَ ابْنُ الْبَوَّابِ يَقُولُ شِعْرًا لَيِّنًا . « وَنَقَلْتُهُ مِنْ خَطِّ الْجُوَيْنِيِّ أَيْضًا قَالَ : وَنَقَلْتُ مِنْ خَطِّهِ أَيْضًا فِي ضِمْنِ رِسَالَةٍ » مِنْهُ :

وَلَوَ انِّي أَهْدَيْتُ مَا هُوَ فَرْضٌ
لِلرَّئِيسِ الْأَجَلِّ مِنْ أَمْثَالِي
لَنَظَمْتُ النُّجُومَ عِقْدًا إِذَا رَصْـ
ـصَعَ غَيْرِي جَوَاهِرًا بِلَآلِي
ثُمَّ أَهْدَيْتُهَا إِلَيْهِ وَأَقْرَرْ
تُ بِعَجْزِي فِي الْقَوْلِ وَالْأَفْعَالِ
غَيْرَ أَنِّي رَأَيْتُ قَدْرَكَ يَعْلُو
عَنْ نَظِيرٍ وَمُشْبِهٍ وَمِثَالِ

---

(١) يشير إلى أن أباه كان بواباً (٢) العثنون : اللحية

فَتَفَاءَلْتُ فِي الْهَدِيَّةِ بِالْأَقْـ ـلَامِ عِلْمًا مِنِّي بِصِدْقِ الْفَالِ
فَاعْتَقِدْهَا مَفَاتِحَ الشَّرْقِ وَالْغَرْ
ـبِ سَرِيعًا وَالسَّهْلِ وَالْأَجْبَالِ
فَهِيَ تَسْتَنُّ إِنْ جَرَيْنَ عَلَى الْقِرْ
طَاسِ بَيْنَ الْأَرْزَاقِ وَالْآجَالِ
فَاخْتَبِرْهَا مُوَقِّعًا بِرُسُومِ الْـ ـبِرِّ وَالْمَكْرُمَاتِ وَالْإِفْضَالِ
وَاحْظَ بِالْمِهْرَجَانِ وَابْلِ جَدِيدَ الدَّ
هْرِ فِي نِعْمَةٍ بِغَيْرِ زَوَالِ
وَابْقَ لِلْمَجْدِ صَاعِدَ الْجَدِّ عِزًّا
وَالرَّئِيسَ الْأَجَلَّ نَجْمَ الْمَعَالِي
فِي سُرُورٍ وَغِبْطَةٍ تَدَعُ الْـ ـحَاسِدَ مِنْهَا مُقَطَّعَ الْأَوْصَالِ
عَضَدَتْهَا السُّعُودُ وَاسْتَوْطَنَ الْإِقْـ
ـبَالُ فِيهَا وَسَالَمَتْهَا اللَّيَالِي
أَيُّهَا الْمَاجِدُ الْكَرِيمُ الَّذِي يَبْـ
ـدَأُ بِالْعَارِفَاتِ قَبْلَ السُّؤَالِ
إِنَّ آلَاءَكَ الْجَزِيلَةَ عِنْدِي شَرَعَتْ لِي طَرِيقَةً فِي الْمَقَالِ

أَمَّنَتْنِي لَدَيْكَ مِنْ هُجْنَةِ الرْ
رَدِّ وَفَرْطِ الْإِضْجَارِ وَالْإِمْلَالِ
وَحُقُوقُ الْعَبِيدِ فَرْضٌ عَلَى السْ
سَادَةِ فِي كُلِّ مَوْسِمٍ لِلْمَعَالِي
وَحَيَاةُ الثَّنَاءِ تَبْقَى عَلَى الدَّهْ
رِ إِذَا مَا انْقَضَتْ حَيَاةُ الْمَالِ

وَكَانَ تَحْتَ هَذَا الشِّعْرِ بِخَطِّ الْجُوَيْنِيِّ مَا صُورَتُهُ : هَذَا شِعْرُ ابْنِ الْبَوَّابِ ، وَهُوَ عَوْرَةٌ سَتَرَهَا ذَلِكَ الْخَطُّ ، وَلَوْلَا أَنَّ الْإِجْمَاعَ وَاقِعٌ فِي أَنَّ الرَّجُلَ يُفْتَنُ بِشِعْرِهِ وَوَلَدِهِ ، لَكَانَ صَاحِبُ تِلْكَ الْفَضِيلَةِ يَرْتَفِعُ عَنْ هَذِهِ النَّقِيصَةِ (١) . وَكَتَبَ تِلْمِيذُهُ حَسَنُ ابْنُ عَلِيٍّ الْجُوَيْنِيُّ : وَلَقَدْ عَجِبْتُ مِمَّنْ يُزْرِي عَلَى ذَلِكَ الشِّعْرِ وَهُوَ الْقَائِلُ : وَنَقَلْتُهُ مِنْ خَطِّهِ فَقَالَ : كَتَبْتُ إِلَى الْمَوْلَى الْقَاضِي الْأَجَلِّ شَرَفِ الدِّينِ السَّدِيدِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَلِيٍّ — أَمْتَعَ اللهُ الدُّنْيَا وَأَهْلَهَا بِبَقَائِهِ — وَقَدْ أَبَلَّتُ مِنْ مَرْضَةٍ صَعْبَةٍ :

عَبْدَ الْإِلَهِ السَّدِيدَ حَقًّا ... بِغَيْرِ زُورٍ وَغَيْرِ مَيْنِ
يَا شَرَفَ الدِّينِ يَا فَرِيدًا ... شَرَّفَ بِالْفَضْلِ دَوْلَتَيْنِ

---

(١) يريد بالفضيلة الخط ، وبالنقيصة شعره ... « عبد الخالق »

يَا تَاجَ فَخْرِي وَكَنْزَ فَقْرِي وَيَا مُعِينِي وَنُورَ عَيْنِي
قَدْ كِدْتُ أَقْضِي أَسًى وَأَمْضِي
وَكِدْتَ تَبْقَى بِلَا جُوَيْنِي

وَكَتَبَ حَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ الْجُوَيْنِيُّ فِي ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ سِتٍّ وَسِتِّينَ وَخَمْسِمِائَةٍ بِالدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ـ عَمَّرَهَا اللهُ تَعَالَى بِدَوَامِ الْعِزِّ ـ : وَقَالَ الْمَعَرِّيُّ وَضَرَبَ عَلِيَّ بْنَ هِلَالٍ مَثَلًا :

طَرِبْتُ لِضَوْءِ الْبَارِقِ الْمُتَعَالِي بِبَغْدَادَ وَهْنًا مَا لَهُنَّ وَمَالِي ؟
فَيَا بَرْقُ لَيْسَ الْكَرْخُ دَارِي وَإِنَّمَا
رَمَى بِي إِلَيْهِ الدَّهْرُ مُنْذُ لَيَالِي
فَهَلْ فِيكَ مِنْ مَاءِ الْمَعَرَّةِ نُغْبَةٌ(١)
تُغِيثُ بِهَا ظَمْآنَ لَيْسَ بِسَالِي ؟
وَلَاحَ هِلَالٌ مِثْلُ نُونٍ أَجَادَهَا
بِمَاءِ النُّضَارِ الْكَاتِبُ ابْنُ هِلَالِ

وَمِنْهَا :

إِذَا لَاحَ إِيمَاضٌ سَتَرْتُ وُجُوهَهَا
كَأَنِّيَ عَمْرٌو وَالْمَطِيُّ سَعَالِي

(١) أى جرعة

هَذَا بَيْتٌ مُشْكِلُ التَّفْسِيرِ بَعِيدُ الْمَرْمَى ، وَذَلِكَ أَنَّ عَمْرَو أَبْنَ تَمِيمِ بْنِ مُرِّ بْنِ أُدِّ بْنِ طَابِخَةَ وَلَدَ الْعَنْبَرَ وَالْهُجَيْمَ وَمَازِنَ [1] ، تَقُولُ الْعَرَبُ : إِنَّ هَؤُلَاءِ الْإِخْوَةَ الثَّلَاثَةَ أُمُّهُمُ السِّعْلَاةُ وَهِيَ الْغُولَةُ ، وَإِنَّ عَمْرَو بْنَ تَمِيمٍ تَزَوَّجَهَا فَوَلَدَتْ لَهُ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ . وَيَقُولُونَ: إِنَّ السِّعْلَاةَ إِذَا رَأَتِ الْبَرْقَ طَلَبَتْهُ ، وَكَانَ عَمْرٌو يَحْفَظُهَا مِنَ الْبَرْقِ إِذَا لَاحَ فَيُغَطِّي وَجْهَهَا ، فَغَفَلَ عَنْهَا مَرَّةً فَلَاحَ الْبَرْقُ فَطَلَبَتْهُ وَقَالَتْ : يَا عَمْرُو أُوصِيكَ بِوَلَدِكَ خَيْراً ، وَمَضَتْ وَلَمْ تَعُدْ إِلَيْهِ ، فَهَذَا مَعْنَى بَيْتِ الْمَعَرِّيِّ ، وَقَدْ ضَرَبَهُ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ أَيْضاً مَثَلاً ، فَقَالَ يَمْدَحُ رَجُلاً يُعْرَفُ بِابْنِ بَدْرٍ بِجَوْدَةِ الْخَطِّ فَقَالَ :

يَا ابْنَ بَدْرٍ عَلَوْتَ فِي الْخَطِّ قَدْراً
حِينَمَا قَايَسُوكَ بِابْنِ هِلَالِ
ذَاكَ يَحْكِي أَبَاهُ فِي النَّقْصِ لَمَّا
جِئْتَ تَحْكِي أَبَاكَ عِنْدَ الْكَمَالِ

قَرَأْتُ بِخَطِّ سَلَامَةَ بْنِ عِيَاضٍ : رَأَيْتُ بِالرَّيِّ بِخَطِّ عَلِيِّ بْنِ

(١) مازن ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث ، إذ المراد بها القبيلة «عبد الخالق»

هِلَالٍ كِتَابَ مَنْ نُسِبَ مِنَ الشُّعَرَاءِ إِلَى أُمِّهِ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ بْنِ الْأَعْرَابِيِّ ، وَهُمْ خَمْسُونَ شَاعِراً ، وَعَلَى ظَهْرِهِ « كَتَبَهُ عَلِيُّ بْنُ هِلَالٍ فِي شَهْرِ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ سَنَةَ تِسْعِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ » وَبَعْدَ الْبَسْمَلَةِ : « يَرْوِيهِ ابْنُ عَرَفَةَ عَنْ ثَعْلَبٍ عَنِ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ » وَفِي آخِرِهِ بِخَطِّهِ : « نَقَلْتُهُ مِنْ نُسْخَةٍ وَجَدْتُ عَلَيْهَا بِخَطِّ شَيْخِنَا أَبِي الْفَتْحِ عُثْمَانَ بْنِ جِنِّيٍّ النَّحْوِيِّ — أَيَّدَهُ اللهُ — : بَلَغَ عُثْمَانَ بْنَ جِنِّيٍّ نَسْخاً مِنْ أَوَّلِهِ وَعَرْضاً » .

وَكَانَ لِابْنِ الْبَوَّابِ يَدٌ بَاسِطَةٌ فِي الْكِتَابَةِ أَعْنِي الْإِنْشَاءَ وَفَصَاحَةٌ وَبَرَاعَةٌ ، وَمِنْ ذَلِكَ رِسَالَةٌ أَنْشَأَهَا فِي الْكِتَابَةِ وَكَتَبَهَا إِلَى بَعْضِ الرُّؤَسَاءِ وَنَقَلْتُهَا مِنْ خَطِّ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ الْجُوَيْنِيِّ الْكَاتِبِ أَوَّلُهَا :

قَدِ افْتَتَحْتُ خِدْمَةَ سَيِّدِنَا الْأُسْتَاذِ الْجَلِيلِ — أَطَالَ اللهُ بَقَاءَهُ وَأَدَامَ تَمْكِينَهُ وَقُدْرَتَهُ وَتَمْهِيدَهُ وَكَبَتَ عَدُوَّهُ — بِالْمِثَالِ الْمُقْتَرِنِ بِهَذِهِ الرُّقْعَةِ افْتِتَاحاً يَصْحَبُهُ الْعُذْرُ إِلَى جَلِيلِ حَضْرَتِهِ مِنْ ظُهُورِ التَّقْصِيرِ فِيهِ ، وَالْخَلَلِ الْبَادِي لِمُتَأَمِّلِيهِ ، وَقَدْ كَانَ مِنْ حُقُوقِ مَجْلِسِهِ الشَّرِيفِ أَنْ يُخْدَمَ بِالْغَايَاتِ الْمَرْضِيَّةِ مِنْ كُلِّ صِنَاعَةٍ ، تَأَدِّياً لِسُؤْدُدِهِ وَعَلَائِهِ ، وَتَصَدِّياً لِلْفَوْزِ بِجَمِيلِ

رَأْيِهِ ، وَلَمْ يَعُدْ بِي عَنْ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ جَهْلٌ بِهَا ، وَقُصُورٌ عَنْ عِلْمِهَا ، لَكِنِّي هَاجِرٌ لِهَذِهِ الصِّنَاعَةِ مُنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ هِجْرَةً قَدْ أَوْرَثَتْ يَدِي حَبْسَةً وَوَقْفَةً ، حَائِلَتَيْنِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ التَّصَرُّفِ وَالِافْتِنَانِ وَالْوَفَاءِ بِشَرْطِ الْإِجَادَةِ وَالْإِحْسَانِ ، وَلَا خَفَاءَ عَلَيْهِ — أَدَامَ اللهُ تَأْيِيدَهُ — بِفَضْلِ الْحَاجَةِ مِمَّنْ تَعَاطَى هَذِهِ الصِّنَاعَةَ إِلَى فَرْطِ التَّوَفُّرِ عَلَيْهَا ، وَالِانْصِرَافِ بِجُمْلَةِ الْعِنَايَةِ إِلَيْهَا ، وَالْكَلَفِ الشَّدِيدِ بِهَا ، وَالْوُلُوعِ الدَّائِمِ بِمُزَاوَلَتِهَا ، فَإِنَّهَا شَدِيدَةُ النِّفَارِ ، بَطِيئَةُ الِاسْتِقْرَارِ ، مُطْمِعَةُ الْخِدَاعِ ، وَشِيكَةُ النِّزَاعِ ، عَزِيزَةُ الْوَفَاءِ ، سَرِيعَةُ الْغَدْرِ وَالْجَفَاءِ ، نَوَارٌ(١) قَيْدُهَا الْأَعْمَالُ ، شَمُوسٌ قَهْرُهَا الْوِصَالُ ، لَا تَسْمَحُ بِبَعْضِهَا إِلَّا لِمَنْ آثَرَهَا بِجُمْلَتِهِ ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهَا بِكُلِّيَّتِهِ ، وَوَقَفَ عَلَى تَأَلُّفِهَا سَائِرَ زَمَنِهِ ، وَاعْتَاضَهَا عَنْ خِلِّهِ وَسَكَنِهِ(٢) ، وَلَا يُؤَيِّسُهُ حِيَادُهَا ، وَلَا يَغُرُّهُ انْقِيَادُهَا ، يُقَارِعُهَا بِالشَّهْوَةِ وَالنَّشَاطِ ، وَيُوَادِعُهَا عِنْدَ الْكَلَالِ وَالْمَلَالِ ، حَتَّى يَبْلُغَ مِنْهَا الْغَايَةَ الْقَصِيَّةَ ، وَيُدْرِكَ الْمَنْزِلَةَ الْعَلِيَّةَ ، وَتَنْقَادَ الْأَنَامِلُ لِتَفْتِيحِ أَزْهَارِهَا ، وَجَلَاءِ أَنْوَارِهَا ، وَتَظْهَرَ الْحُرُوفُ مَوْصُولَةً

(١) بقرة نوار : تنفر من الفحل (٢) السكن : الزوجة

وَمَفصُولَةً ، وَمُعمَّاةً وَمُفتَّحَةً فِي أَحسَنِ صِيَغِهَا ، وَأَبهَجِ خِلقَتِهَا ، مُنْخَرِطَةَ (١) الْمَحَاسِنِ فِي سِلْكِ نِظَامِهَا ، مُتَسَاوِيَةَ الْأَجْزَاءِ فِي تَجَاوُرِهَا وَالْتِيَامِهَا ، لَيِّنَةَ الْمَعَاطِفِ وَالْأَرْدَافِ ، مُتَنَاسِبَةَ الْأَوْسَاطِ وَالْأَطْرَافِ ، ظَاهِرُهَا وَقُورٌ سَاكِنٌ ، وَمُفَتَّشُهَا بَهِجٌ (٢) فَاتِنٌ ، كَأَنَّمَا كَاتِبُهَا وَقَدْ أَرْسَلَ يَدَهُ وَحَثَّ بِهَا قَلَمَهُ ، رَجَّعَ فِيهَا فِكْرَهُ وَرَوِيَّتَهُ ، وَوَقَفَ عَلَى تَهْذِيبِهَا قُدْرَتَهُ وَهِمَّتَهُ ، الْقَلْبُ بِهَا فِي حِجْرِ نَاظِرِهِ ، وَالْمَعْنَى بِهَا مَظْلُومٌ بِلَفْظِهِ ، وَمَا ذَهَبْتُ فِي هَذِهِ الْخِدْمَةِ مَذْهَبَ الْمُطْرِفِ الْمُغْرِبِ (٣) بِهَا ، وَلَا الْمُعَوِّلِ عَلَى شَوَافِعِهَا (٤) ، لَكِنْ نَهَجْتُ بِهَا سَبِيلًا لِأَمْثَالِهَا إِقَامَةً لِرَسْمِ الْخِدْمَةِ الْمَفْرُوضَةِ لِلسَّادَةِ الْمُنْعِمِينَ عَلَى خَدَمِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ ، فَإِنْ سَعِدَتْ بِنَفَاقِهَا عَلَيْهِ وَارْتِضَائِهَا لَدَيْهِ ، سَلِمَتْ مِنْ وَصْمَةِ (٥) التَّضْجِيعِ وَالْإِهْمَالِ ، وَهُجْنَةِ التَّقْصِيرِ فِي شُكْرِ الْإِنْعَامِ وَالْإِفْضَالِ ، وَلِسَيِّدِنَا الْأُسْتَاذِ الْجَلِيلِ - أَطَالَ اللهُ بَقَاءَهُ - عُلُوُّ الرَّأْيِ فِي الْأَمْرِ بِتَسَلُّمِ مَا خَدَمْتُ بِهِ ، وَتَصْرِيفِهِ بَيْنَ عَالِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

---

(١) منخرطة : منتظمة (٢) كانت هذه الكلمة في الأصل « رهج »

(٣) المغرب : المجاوز الحد (٤) الشافع : المعين (٥) الوصمة : العيب

وَحَدَّثَ غَرْسُ النِّعْمَةِ مُحَمَّدُ بْنُ هِلَالِ بْنِ الْمُحَسِّنِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ابْنِ هِلَالٍ الصَّابِئِ فِي كِتَابِ الْهَفَوَاتِ قَالَ: كَانَ فِي الدِّيوَانِ كَاتِبٌ يُعْرَفُ بِأَبِي نَصْرِ بْنِ مَسْعُودٍ فَلَقِيَ يَوْمًا أَبَا الْحَسَنِ عَلِيَّ ابْنَ هِلَالٍ الْبَوَّابَ الْكَاتِبَ ذَا الْخَطِّ الْمَلِيحِ فِي بَعْضِ الْمَمَرَّاتِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَقَبَّلَ يَدَهُ. فَقَالَ لَهُ ابْنُ الْبَوَّابِ: اللهَ اللهَ يَاسَيِّدِي مَا أَنَا وَهَذَا؟ فَقَالَ لَهُ: لَوْ قَبَّلْتُ الْأَرْضَ بَيْنَ يَدَيْكَ لَكَانَ قَلِيلًا. قَالَ: لِمَ؟ وَلِمَ ذَاكَ يَاسَيِّدِي؟ وَمَا الَّذِي أَوْجَبَهُ وَاقْتَضَاهُ؟ قَالَ: لِأَنَّكَ تَفَرَّدْتَ بِأَشْيَاءَ مَا فِي بَغْدَادَ كُلِّهَا مَنْ يُشَارِكُكَ فِيهَا، مِنْهَا الْخَطُّ الْحَسَنُ وَأَنَّهُ لَمْ أَرَ مِنْ عُمْرِي كَاتِبًا مِنْ طَرَفِ عِمَامَتِهِ إِلَى لِحْيَتِهِ ذِرَاعَانِ وَنِصْفٌ غَيْرَكَ. فَضَحِكَ أَبُو الْحَسَنِ مِنْهُ وَجَزَاهُ خَيْرًا وَقَالَ لَهُ: أَسْأَلُكَ أَنْ تَكْتُمَ هَذِهِ الْفَضِيلَةَ عَلَيَّ وَلَا تُنْكِرْ مِنِّي لِأَجْلِهَا. قَالَ لَهُ: وَلِمَ تَكْتُمُ فَضَائِلَكَ وَمَنَاقِبَكَ؟ فَقَالَ لَهُ: أَنَا أَسْأَلُكَ هَذَا فَبَعْدَ جَهْدٍ مَا أَمْسَكَ، وَكَانَتْ لِحْيَةُ ابْنِ الْبَوَّابِ طَوِيلَةً جِدًّا.

قَالَ الْمُؤَلِّفُ: وَأَمَّا الشِّعْرُ الَّذِي رَثَاهُ بِهِ الْمُرْتَضَى فَهُوَ:

رُدِّيتَ[1] يَابْنَ هِلَالٍ وَالرَّدَى عَرَضٌ
لَمْ يُحْمَ مِنْهُ عَلَى سُخْطٍ لَهُ الْبَشَرُ
مَاضَرَّ فَقْدُكَ ؟ وَالْأَيَّامُ شَاهِدَةٌ
بِأَنَّ فَضْلَكَ فِيهِ الْأَنْجُمُ الزُّهُرُ ؟
أَغْنَيْتَ فِي الْأَرْضِ وَالْأَقْوَامِ كُلِّهِمِ
مِنَ الْمَحَاسِنِ مَالَمْ يُغْنِهِ الْمَطَرُ
فَلِلْقُلُوبِ الَّتِي أَبْهَجْتَهَا حَزَنٌ
وَلِلْعُيُونِ الَّتِي أَقْرَرْتَهَا سَهَرُ
وَمَا لِعَيْشٍ إِذَا وَدَّعْتَهُ أَرَجٌ
وَلَا لِلَيْلٍ إِذَا فَارَقْتَهُ سَحَرُ
وَمَا لَنَا بَعْدَ أَنْ أَضْحَتْ مَطَالِعُنَا
مَسْلُوبَةً مِنْكَ أَوْضَاحٌ وَلَا غُرَرُ

﴿ ٣٢ – عَلِيُّ بْنُ الْهَيْثَمِ الْكَاتِبُ الْمَعْرُوفُ بِجُونَقَا * ﴾

علي بن الهيثم الكاتب

كَانَ أَحَدَ الْكُتَّابِ الْمُسْتَخْدَمِينَ فِي دِيوَانِ الْمَأْمُونِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْخُلَفَاءِ ، وَكَانَ فَاضِلًا أَدِيبًا كَثِيرَ الِاسْتِعْمَالِ

(١) رديت : هلكت

(*) راجع بغية الوعاة

لِلتَّقعِيرِ وَالْقَصْدِ لِعَوِيصِ اللُّغَةِ، حَتَّى قَالَ الْمَأْمُونُ فِيما حَدَّثَ بِهِ الْفَضْلُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْيَزِيدِيُّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ :

قَالَ الْمَأْمُونُ : أَنَا أَتَكَلَّمُ مَعَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ عَلى سَجِيَّتِي إِلَّا عَلِيَّ بْنَ الْهَيْثَمِ فَإِنِّي أَتَحَفَّظُ إِذَا كَلَّمْتُهُ، لِأَنَّهُ يُغْرِقُ فِي الْإِعْرَابِ . وَنَقَلْتُ مِنْ خَطِّ الصُّولِيِّ فِي أَخْبَارِ شُعَرَاءِ مِصْرَ قَالَ : وَمِمَّنْ دَخَلَ مِصْرَ خَالِدُ بْنُ أَبَانَ الْكَاتِبُ الْأَنْبَارِيُّ أَخُو عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ أَبَانَ، حَدَّثَنِي الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ الْبَاقَطَانِيُّ : أَنَّهُ شَخَصَ إِلَى مِصْرَ فَبَلَغَهُ اتِّسَاعُ حَالِ عَلِيِّ بْنِ الْهَيْثَمِ وَكَانَتْ بَيْنَهُمَا حُرْمَةٌ وَكِيدَةٌ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ مِنْ مِصْرَ بِشِعْرٍ طَوِيلٍ مِنْهُ وَكَتَبَ بِمَاءِ الذَّهَبِ :

عَلَى الْخَالِقِ الْبَارِي تَوَكَّلْتُ إِنَّهُ
يَدُومُ إِذَا الدُّنْيَا أَبَادَتْ قُرُونَهَا

فِدَاؤُكَ نَفْسِي يَا عَلِيَّ بْنَ هَيْثَمٍ
إِذَا أَكَلَتْ عُجْفُ السِّنِينَ سَمِينَهَا (١)

رَمَيْتُكَ مِنْ مِصْرٍ بِأُمِّ قَلَائِدِي (٢)
تُزَانُ وَقَدْ أَقْسَمْتُ أَلَّا تُهِينَهَا

(١) عجف : جمع عجفاء : وهي المجدبة ، وأصل العجف : الهزال ، فشبه به الجدب

(٢) يريد القصيدة التي بعث بها إليه ، فجعل كل بيت قلادة يطوق بها عنقه

بِأَبْيَاتِ شِعْرٍ خُطَّ بِالتِّبْرِ وَشْيُهَا إِلَيْكَ وَقَدْ مَا حَالَ حَوْلَانِ دُونَهَا

وَيَذْكُرُ فِيهِ خَبَرَهُ مَعَ غُرَمَائِهِ وَالْقَاضِي، فَبَعَثَ إِلَيْهِ سُفْتَجَةً (١) بِأَلْفِ دِينَارٍ، وَكَتَبَ إِلَى عَامِلِ مِصْرَ فِي اسْتِعْمَالِهِ فَحَسُنَتْ حَالُهُ.

وَقَالَ الْجَهْشِيَارِيُّ: كَانَ لِخَالِدِ بْنِ أَبَانَ الْكَاتِبِ الْأَنْبَارِيِّ الشَّاعِرِ حُرْمَةٌ بِعَلِيِّ بْنِ الْهَيْثَمِ وَبِأَبِيهِ أَيَّامَ مُقَامِهِمْ بِالْأَنْبَارِ، ثُمَّ شَخَصَ خَالِدُ بْنُ أَبَانَ إِلَى مِصْرَ وَتَزَوَّجَ بِهَا وَوُلِدَ لَهُ، وَأَضَاقَ وَاخْتَلَّتْ حَالُهُ وَتَدَيَّنَ مِنَ التُّجَّارِ مَا أَنْفَقَهُ، فَكَثُرَ غُرَمَاؤُهُ وَقَدَّمُوهُ إِلَى الْقَاضِي فَحَبَسَهُ، ثُمَّ فَلَّسَهُ وَأَطْلَقَهُ، وَأَقَامَ بِمِصْرَ وَسَاءَتْ حَالُهُ، وَبَلَغَهُ أَنَّ عَلِيًّا قَدْ عَظُمَ قَدْرُهُ، وَتَقَلَّدَ دِيوَانَ الْخَرَاجِ لِلْفَضْلِ بْنِ الرَّبِيعِ لَمَّا اسْتَوْزَرَهُ الرَّشِيدُ بَعْدَ الْبَرَامِكَةِ وَارْتَفَعَ مَعَ الْمَأْمُونِ بَعْدَ ذَلِكَ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ قَصِيدَةً نَحْوًا مِنْ سَبْعِينَ بَيْتًا فِي رَقٍّ بِالذَّهَبِ وَبَعَثَ بِهَا إِلَيْهِ أَوَّلُهَا: « عَلَى الْخَالِقِ الْبَارِي » الْأَبْيَاتُ، فَوَجَّهَ إِلَيْهِ بِأَلْفِ دِينَارٍ.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ خَلَفِ بْنِ الْمَرْزُبَانِيِّ: حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ الْحَسَنُ بْنُ بِشْرٍ، حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: دَخَلَ عَلِيُّ بْنُ الْهَيْثَمِ

---

(١) السفتجة: أن تعطي إنسانا مالا فيعطيك كتابة عليه تتمكن بها من استرداد المال « وثيقة » أو « كمبيالة » أو ربما يكون صكا على أحد البنوك « شيك » « عبد الخالق »

إِلَى سُوقِ الدَّوَابِّ فَلَقِيَهُ نَخَّاسٌ[١] فَقَالَ لَهُ: هَلْ مِنْ حَاجَةٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، الْحَاجَةُ أَنَاخَتْنَا بِعَقْوَتِكَ[٢]، أَرَدْتُ فَرَساً قَدِ انْتَهَى صَدْرُهُ، وَتَقَلْقَلَتْ عُرُوقُهُ، يُشِيرُ بِأُذُنَيْهِ، وَيَتَعَاهَدُنِي بِطَرَفِ عَيْنَيْهِ، وَيَتَشَوَّفُ بِرَأْسِهِ، وَيَعْقِدُ عُنُقَهُ[٣]، وَيَخْطُرُ بِذَنَبِهِ، وَيُنَاقِلُ[٤] بِرِجْلَيْهِ، حَسَنَ الْقَمِيصِ[٥] جَيِّدَ الْفُصُوصِ[٦] وَثِيقَ الْقَصَبِ[٧]، تَامَّ الْعَصَبِ، كَأَنَّهُ مَوْجُ لُجَّةٍ، أَوْ سَيْلُ حُدُورٍ. فَقَالَ لَهُ النَّخَّاسُ: هَكَذَا كَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَقَالَ الْمَرْزُبَانِيُّ فِي الْمُعْجَمِ: عَلِيُّ بْنُ الْهَيْثَمِ التَّغْلِبِيُّ كَاتِبُ الْفَضْلِ بْنِ الرَّبِيعِ كَانَ لَسِناً فَصِيحاً شَاعِراً، عَاتَبَهُ الْفَضْلُ يَوْماً عَلَى تَأَخُّرِهِ عَنْهُ وَزَادَ عَلَيْهِ فَقَالَ:

وَعَدَنِي الْفَضْلُ رَخِيصاً جِدّاً ... فَعَقَّنِي وَازْوَرَّ[٨] عَنِّي صَدّاً

وَظَنَّ وَالظُّنُونُ قَدْ تَعَدَّى ... أَنِّي لَا أُصِيبُ مِنْهُ بِدّاً[٩]

أُعِدُّ مِنْهُ أَلْفَ بِدٍّ عَدّاً

(١) النخاس: بياع الدواب ودلالها (٢) العقوة: الساحة أو ماحول الدار
(٣) يعقد عنقه: كناية عن رفع رأسه دائما (٤) أى يسرع بنقلهما
(٥) أى حسن المشى بسرعة (٦) أى العينين (٧) أى متين عظم القوائم
(٨) أى استخف بى وأعرض عنى، وكانت فى هذا الأصل «وعدنى»: «وجدنى»
(٩) البد بالكسر: المثل والنظير، فهو يقول: إن الفضل تعدى فى الظن، وظن أنى لا أجد نظيراً له أنتفع منه، لقد أخطأ فانى أعد بدلا منه ألفاً.

وَانْصرَفَ فلَمْ يَعْمَلْ لِلسُّلطَانِ عملاً . حدَّثنا مُحمَّدُ اليزيديُّ قَالَ : شَهِدْتُ المَأْمُونَ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى دَكَّةِ (١) الشَّمَّاسِيَّةِ، وَعِنْدَهُ أَحْمَدُ بْنُ الْجُنَيْدِ الإِسْكَافِيُّ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الخَاصَّةِ ، إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ الْهَيْثَمِ الْمَعْرُوفُ بِجُونَقَا ، فَلَمَّا قَرُبَ مِنْهُ قَالَ : يَاعَدُوَّ اللهِ يَا فَاسِقُ يَا لِصُّ يَا خَبِيثُ سَرَقْتَ الأَمْوَالَ وَانْتَهَبْتَهَا ، وَاللهِ لأُفَرِّقَنَّ بَيْنَ لَحْمِكَ وَعَظْمِكَ وَلأَفْعَلَنَّ ، ثُمَّ سَكَنَ غَضَبُهُ قَلِيلاً ، فَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ الْجُنَيْدِ : نَعَمْ وَاللهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّهُ وَإِنَّهُ وَلَمْ يَدَعْ شَيْئاً مِنَ الْمَكْرُوهِ إِلَّا قَالَهُ فِيهِ ، فَقَالَ لَهُ الْمَأْمُونُ وَقَدْ هَدَأَ غَضَبُهُ : يَا أَحْمَدُ ، وَمَتَى اجْتَرَأْتَ عَلَى هَذِهِ الْجُرْأَةِ ؟ رَأَيْتَنِي وَقَدْ غَضِبْتُ فَأَرَدْتَ أَنْ تَزِيدَ فِي غَضَبِي ، أَمَا إِنِّي سَأُؤَدِّبُكَ فَأُؤَدِّبُ بِكَ غَيْرَكَ ، يَا عَلِيُّ بْنَ الْهَيْثَمِ ، قَدْ صَفَحْتُ عَنْكَ وَوَهَبْتُ لَكَ كُلَّ مَا كُنْتُ أَقْدِرُ أَنْ أُطَالِبَكَ بِهِ ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى الْحَاجِبِ وَقَالَ : لَا يَبْرَحُ ابْنُ الْجُنَيْدِ الدَّارَ حَتَّى يَحْمِلَ إِلَى عَلِيِّ ابْنِ الْهَيْثَمِ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ لِيَكُونَ لَهُ بِذَلِكَ عَقْلٌ ، فَلَمْ يَبْرَحْ حَتَّى حَمَلَهَا .

---

(١) الدكة : بناء يسطح ويسوى للجلوس عليه مأخوذ من الدكة : للرمل المستوى المسطح « عبد الخالق »

الجَهْشيَارِيُّ: أَمَرَ المَأمُونُ أَنْ يُؤْذَنَ لِلنَّاسِ إِذْنًا عامًّا وأَنْ يُجلسُوا عَلَى مَرَاتِبِهِمُ الَّتِي كَانَتْ قَدِيمًا إِلَى أَنْ تعْرَضَ عَلَيْهِ فَيأْمُرَ فِيهَا بِأَمْرِهِ ففعلوا ذلِكَ، وَدَخَلَ عَلِيُّ بْنُ الْهَيْثَمِ فَجَلَسَ فِي مَجْلِسِ الْعَرَبِ وَتغامَزَ الْكُتَّابُ عَلَيْهِ، وأَقبلَ عُبَيْدُ اللهِ بْنُ الْحَسَنِ الْعَلَوِيُّ فقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ دَاوُدَ الْكَاتِبُ لِلْكُتَّابِ: أَطِيعُونِي وَقُومُوا مَعِي، فَمَضَوْا بِأَجْمَعِهِمْ مُسْتَقْبِلِينَ لِعُبَيْدِ اللهِ بْنِ الْحَسَنِ، فَسلَّمُوا عَلَيْهِ فرَدَّ عَلَيْهِمْ. فقَالُوا: لَنَا حَاجَةٌ، فقَالَ: مَقْضِيَّةٌ، قَالُوا: تَجْلِسُ فِي مَجْلِسِنَا. فقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ: يُنْكِرُ ذَلِكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ. قَالُوا: هِيَ حَاجَةٌ تَقْضِيهَا لَنَا ونَحْتَمِلُ مَا ينَالُكَ فِيهَا. قَالَ: أَفْعَلُ لِعِلْمِي بِمَوْقِعِ الْكُتَّابِ مِنْ قُلُوبِ السَّلَاطِينَ وَقُدْرَتِهِمْ عَلَى إِصْلَاحِ قُلُوبِهِمْ إِذَا فَسَدَتْ، وإِفْسَادِهَا إِذَا صَلحتْ، وَمَالَ إِلَى نَاحِيَتِهِمْ فَجَلَسَ مَعَهُمْ. وَكَتَبَ صَاحِبُ الْمَرَاتِبِ إِلَى الْمَأْمُونِ، فلمَّا وَقَفَ عَلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي جَلَسَ فِيهِ عُبَيْدُ اللهِ أَنْكَرَهُ وبَعَثَ إِلَيْهِ: مَا هَذَا الْمَجْلِسُ الَّذِي جَلَسْتَ فِيهِ؟ فقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ لِلرَّسُولِ: بَلِّغْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَنَّا السَّلَامَ وَقُلْ لَهُ: خَدَمُكَ وَعَبِيدُكَ الْكُتَّابُ يَقُولُونَ: الْعَدْلُ وَالْإِنْصَافُ مَوْجُودَانِ عِنْدَكَ وَعِنْدَ أَهْلِكَ، أَخَذْتُمْ مِنَّا رَجُلًا مِنْ وُجُوهِ

النَّبَطِ[1] فَأَخَذْنَا مَكَانَهُ وَجْهًا مِنْ وُجُوهِ أَهْلِكَ ، ذَلِكَ عَلِيُّ ابْنُ الْهَيْثَمِ جَالِسٌ مَعَ الْعَرَبِ ، فَرُدُّوا عَلَيْنَا رَجُلَنَا وَخُذُوا رَجُلَكُمْ ، فَضَحِكَ جَمِيعُ مَنْ فِي دَارِهِ وَتَشَوَّسَ عَلِيُّ بْنُ الْهَيْثَمِ وَضَحِكَ الْمَأْمُونُ وَقَالَ : لَقَدْ مُنِيَ عَلِيُّ بْنُ الْهَيْثَمِ مِنْ إِبْرَاهِيمَ ابْنِ إِسْمَاعِيلَ بِبَلَاءٍ عَظِيمٍ ، وَكَانَ أَبُو يَعْقُوبَ إِسْحَاقُ بْنُ حَسَّانَ الْخُزَيْمِيُّ قَدْ أُغْرِيَ بِهِجَاءِ عَلِيِّ بْنِ الْهَيْثَمِ الْأَنْبَارِيِّ الْكَاتِبِ ، وَكَانَ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ وَقَعَ لِأَبِي يَعْقُوبَ عِنْدَهُ مِيرَاثٌ فَدَافَعَهُ فَهَجَاهُ ، وَكَانَ عَلِيُّ بْنُ الْهَيْثَمِ مُتَشَدِّقًا مُتَفَيْهِقًا يَدَّعِي الْعَرَبِيَّةَ وَيَقُولُ : إِنَّهُ تَغْلِبِيٌّ وَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا أَنْقُورِيَا ، فَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الْخُزَيْمِيُّ :

أَنْقُورِيَا قَرْيَةٌ مُبَارَكَةٌ تَقْلِبُ فَخَّارَهَا إِلَى الذَّهَبِ

مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْعَبَّاسِيُّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : شَهِدْتُ عَلِيَّ بْنَ الْهَيْثَمِ جُونَقَا ، وَقَدْ حَضَرَهُ مَنَارَةُ صَاحِبُ الرَّشِيدِ فَقَالَ لَهُ : يَا مَنَارَةُ اسْتَلَبْتَ[2] لَوْطِي . فَقَالَ : - أَصْلَحَكَ اللهُ - مَا ظَنَنْتُكَ تَتَلَقَّانِي بِمِثْلِ هَذَا ؟ شَيْخٌ مِثْلِي يَلْعَبُ بِالصِّبْيَانِ ، فَضَحِكَ جَمِيعُ مَنْ فِي الْمَجْلِسِ ، « اللَّوْطُ : الْإِزَارُ . كَأَنَّهُ أَرَادَ أَنَّكَ لَمْ تُحْسِنْ

(١) النبط : قوم من العجم (٢) استلبت : اختلست

عِشْرَتِي وَأَنَّكَ أَخَذْتَ ثِيَابِي » . وَذَكَرَ حَمَّادُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ بِشْرٍ الْمَرِّيسِيِّ قَالَ : حَضَرْتُ الْمَأْمُونَ أَنَا وَثُمَامَةُ وَمُحَمَّدُ ابْنُ أَبِي الْعَبَّاسِ الطُّوسِيُّ وَعَلِيُّ بْنُ الْهَيْثَمِ فَتَنَاظَرُوا فِي التَّشَيُّعِ ، فَنَصَرَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الْعَبَّاسِ مَذْهَبَ الْإِمَامِيَّةِ ، وَنَصَرَ عَلِيُّ ابْنُ الْهَيْثَمِ مَذْهَبَ الزَّيْدِيَّةِ ، وَشَرِقَ[١] الْأَمْرُ بَيْنَهُمَا ، إِلَى أَنْ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الْعَبَّاسِ لِعَلِيِّ بْنِ الْهَيْثَمِ : يَا نَبَطِيُّ مَا أَنْتَ وَالْكَلَامَ ؟ فَقَالَ الْمَأْمُونُ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ : الشَّتْمُ عِيٌّ وَالْبَذَاءُ لُؤْمٌ ، وَقَدْ أَبَحْنَا الْكَلَامَ وَأَظْهَرْنَا الْمَقَالَاتِ ، فَمَنْ قَالَ بِالْحَقِّ حَمِدْنَاهُ ، وَمَنْ جَهِلَ وَقَفْنَاهُ ، وَمَنْ ذَهَبَ عَنِ الْأَمْرِ حَكَمْنَا فِيهِ بِمَا يَجِبُ ، فَاجْعَلَا بَيْنَكُمَا أَصْلًا ، فَإِنَّ الْكَلَامَ الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْفُرُوعِ ، فَإِذَا افْتَرَعْتُمَا شَيْئًا رَجَعْتُمَا إِلَى الْأُصُولِ ، ثُمَّ عَادَا إِلَى الْمُنَاظَرَةِ فَأَعَادَ مُحَمَّدُ ابْنُ أَبِي الْعَبَّاسِ لِعَلِيِّ بْنِ الْهَيْثَمِ مِثْلَ مَقَالَتِهِ الْأُولَى . فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ : وَاللهِ لَوْلَا جَلَالَةُ الْمَجْلِسِ وَمَا وَهَبَ اللهُ مِنْ رَأْفَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنَّهُ قَدْ نَهَانَا لَأَعْرَقْتُ جَبِينَكَ ، وَحَسْبُنَا مِنْ جَهْلِكَ غَسْلُكَ الْمِنْبَرَ بِالْمَدِينَةِ . فَاسْتَشَاطَ الْمَأْمُونُ غَضَبًا

(١) شرق الأمر بينهما : بعد واتسع الخلاف

عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَمَرَ بِإِخْرَاجِهِ ، فَعَاذَ بِطَاهِرٍ حَتَّى شَفَعَ فِيهِ ، فَرَضِيَ عَنْهُ . مَيْمُونُ بْنُ هَارُونَ بْنِ مُخَلَّدِ بْنِ أَبَانَ حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ : أَدْخَلَنِي أَبِي مُخَلَّدُ بْنُ أَبَانَ مَعَ الْقَاسِمِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ الْجُنَيْدِ ، وَكَانَ مُخَلَّدٌ وَأَحْمَدُ مُتَوَاخِيَيْنِ فِي شِرَاءِ غَلَّاتِ السَّوَادِ ، فَأَشْرَفْنَا عَلَى رِبْحِ عَشَرَةِ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، ثُمَّ اتَّضَعَ السِّعْرُ فَحَصَلَ عَلَيْنَا وَضِيعَةُ سِتَّةِ آلَافِ أَلْفِ دِرْهَمٍ فَطُولِبْنَا بِهَا أَشَدَّ مُطَالَبَةٍ ، وَاشْتَدَّ كُتَّابُ الْمَأْمُونِ عَلَيْنَا فِيهَا ، وَكَانَ الْمَأْمُونُ يَسْتَاكُ فِي كُلِّ يَوْمَيْنِ سَاعَتَيْنِ كَامِلَتَيْنِ . فَدَعَانِي الْمَأْمُونُ يَوْمًا وَهُوَ يَسْتَاكُ وَكَلَّمَنِي بِشَيْءٍ ثُمَّ قَالَ لِي : مَا مَعْنَى قَوْلِ الْخُزَيْمِيِّ فِي عَلِيِّ بْنِ الْهَيْثَمِ ؟ فَدَبَنْقَا لِذَاكَ الْحَدِيثِ دَبْنَقَا . فَقُلْتُ لَهُ : أَنَا أَتَكَلَّمُ بِالنَّبَطِيَّةِ وَلَا أَعْلَمُ مَا مَعْنَى هَذَا ، وَأَحْمَدُ بْنُ الْجُنَيْدِ أَرْطَنُ بِهَا مِنِّي ، فَأَوْمَأَ إِلَيَّ بِسِوَاكِهِ أَنِ انْصَرِفْ فَانْصَرَفْتُ ، فَمَا بَلَغْتُ السِّتْرَ حَتَّى لَقِيَنِي أَحْمَدُ بْنُ الْجُنَيْدِ دَاخِلًا وَكَانَ إِذَا خَرَجَ مِنَ الدَّارِ قَبْلِي انْتَظَرَنِي ، وَإِذَا خَرَجْتُ قَبْلَهُ انْتَظَرْتُهُ ، فَوَقَفْتُ مُنْتَظِرًا لَهُ فَإِذَا بِهِ قَدْ خَرَجَ فَقُلْتُ لَهُ : مَا كَانَ خَبَرُكَ ؟ فَأَخْرَجَ إِلَيَّ تَوْقِيعَ الْمَأْمُونِ

بِخَطِّهِ بِتَرْكِ مَا كُنَّا نُطَالَبُ بِهِ مِنَ السِّتَّةِ آلَافِ أَلْفٍ[1] عَنِ
ٱبْنِي وَٱبْنِهِ . وَقَالَ : قَالَ لِي : مَا مَعْنَى قَوْلِ الْخُزَيْمِيِّ فَدَبْنَقَا لِذَا
الْحَدِيثِ دَبْنَقَا ؟ فَقُلْتُ : ضَرْطًا لِذَا الْحَدِيثِ . فَضَحِكَ وَقَالَ لِي : إِنِّي سَأَلْتُ
مُخَلَّدًا عَنْهَا فَلَمْ يَعْرِفْهَا فَاسْأَلْ حَاجَةً ، فَقُلْتُ : ٱبْتَاعَ ٱبْنِي وَٱبْنُ
مُخَلَّدٍ غَلَّاتِ السَّوَادِ وَقَدَّرْنَا لِلرِّبْحِ نَخَسِرْنَا سِتَّةَ آلَافِ أَلْفِ
دِرْهَمٍ وَلَا حِيلَةَ لَنَا فِيهَا وَضَيْعَتِي بِجَلُولَا تُسَاوِي ثَلَاثَةَ آلَافِ أَلْفِ
دِرْهَمٍ ، فَيَأْمُرُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَخْذِهَا عَنِ ٱبْنِ مُخَلَّدٍ وَتَسْبِيبِ
مَا عَلَى ٱبْنِي عَلَيَّ لِأَحْتَالَ لَهُ أَوَّلًا فَأَوَّلًا ، فَقَالَ : وَيْحَكَ ، تَبْذُلُ نَفْسَكَ
وَضَيْعَتَكَ عَنِ ٱبْنِ مُخَلَّدٍ ؟ فَقُلْتُ : نَعَمْ ، أَنَا غَرَرْتُهُ وَأَمَلْتُ الرِّبْحَ
وَمَنَعْتُهُ أَنْ يَعْقِدَهُ عَلَى التُّجَّارِ وَيَتَعَجَّلَ فَضْلَهُ ، وَقَدْ كَانُوا
بَذَلُوا لَنَا فِيهِ رِبْحًا كَبِيرًا . فَقَالَ لِي : أَيُّ نَبَطِيٍّ أَنْتَ ؟ هَاتِ
الدَّوَاةَ ، فَقَدَّمْتُهَا إِلَيْهِ فَوَقَّعَ بِإِبْرَائِنَا جَمِيعًا مِنَ الْمَالِ وَتَرْكِ
ضَيْعَتِي عَلَيَّ . وَقَالَ الْمَأْمُونُ يَوْمًا : بِبَابِي رَجُلَانِ : أَحَدُهُمَا أُرِيدُ
أَنْ أَضَعَهُ وَهُوَ يَرْفَعُ نَفْسَهُ ، وَهُوَ عَلِيُّ بْنُ الْهَيْثَمِ ، وَالْآخَرُ أُرِيدُ
أَنْ أَرْفَعَهُ وَهُوَ يَضَعُ نَفْسَهُ ، وَهُوَ الْفَضْلُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى بْنِ
خَالِدِ بْنِ بَرْمَكَ .

---

(١) صواب التعبير من ستة آلاف الألف

٣٣ – عَلِيُّ بْنُ يَحْيَى بْنِ أَبِي مَنْصُورٍ الْمُنَجِّمُ *

علي بن يحيى المنجم

أَبُو الْحَسَنِ . كَانَ أَبُوهُ يَحْيَى أَوَّلَ مَنْ خَدَمَ مِنْ آلِ الْمُنَجِّمِ ، وَأَوَّلَ مَنْ خَدَمَ الْمَأْمُونَ وَقَدْ ذُكِرَ فِي بَابِهِ ، وَنَادَمَ ابْنُهُ عَلِيٌّ هَذَا الْمُتَوَكِّلَ ، وَكَانَ مِنْ خَوَاصِّهِ وَنُدَمَائِهِ وَالْمُتَقَدِّمِينَ عِنْدَهُ ، وَخُصَّ بِهِ وَبِمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْخُلَفَاءِ إِلَى أَيَّامِ الْمُعْتَمِدِ عَلَى اللهِ ، وَكَانَ شَاعِرًا رَاوِيَةً عَلَّامَةً أَخْبَارِيًّا . مَاتَ سَنَةَ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ وَدُفِنَ بِسُرَّ مَنْ رَأَى فِي آخِرِ أَيَّامِ الْمُعْتَمِدِ . وَأَخَذَ أَبُو الْحَسَنِ هَذَا عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ مِنْهُمْ : إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ وَشَاهَدَهُ ، وَكَانَ يَجْلِسُ بَيْنَ يَدَيِ الْخُلَفَاءِ وَيَأْمَنُونَهُ عَلَى أَسْرَارِهِمْ ، وَكَانَ حَسَنَ الْمُرُوءَةِ مُمَدَّحًا فَاتَّصَلَ بِمُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْمُصْعَبِيِّ . ثُمَّ اتَّصَلَ بِالْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ وَعَمِلَ لَهُ خِزَانَةً نَقَلَ إِلَيْهَا مِنْ كُتُبِهِ وَمِمَّا اسْتَكْتَبَهُ لِلْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ أَكْثَرَ [1] ، مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ خِزَانَةُ حِكْمَةٍ قَطُّ ، وَلَهُ تَصَانِيفُ مِنْهَا : كِتَابُ الشُّعَرَاءِ الْقُدَمَاءِ وَالْإِسْلَامِيِّينَ ، كِتَابُ أَخْبَارِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ، كِتَابُ الطَّبِيخِ .

(١) أي أكثر مما نقل إليها من كتبه ، وما التي بعد أفعل التفضيل نافية « عبد الخالق »

(*) راجع تاريخ بغداد جزء ١٢

قَالَ عُبَيْدُ اللهِ بْنُ أَبِي طَاهِرٍ : كَانَ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ يَحْيَي مُشْتَهِراً بِالْأَدَبِ كُلِّهِ مَائِلًا إِلَى أَهْلِهِ مُعْتَنِياً بِأُمُورِهِمْ ، وَكَانَ مَنْزِلُهُ مَأْلَفاً لَهُمْ ، وَكَانَ يُوَصِّلُ كَثِيراً مِنْهُمْ إِلَى الْخُلَفَاءِ وَالْأُمَرَاءِ ، وَيَسْتَخْرِجُ لَهُمْ مِنْهُمُ الصِّلَاتِ ، وَإِنْ جَرَى عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ حِرْمَانٌ وَصَلَهُ مِنْ مَالِهِ .

وَكَانَ يَبْلُغُ مِنْ عِنَايَتِهِ بِهِمْ وَرَغْبَتِهِ فِي نَفْعِهِمْ أَنَّهُ كَانَ رُبَّمَا أَهْدَى إِلَى الْخُلَفَاءِ وَالْأُمَرَاءِ عَنْهُمُ الْهَدَايَا الظَّرِيفَةَ الْمَلِيحَةَ لِيَسْتَخْرِجَ لَهُمْ بِذَلِكَ مَا يُحِبُّونَ .

قَالَ : حَدَّثَنِي أَبُو أَحْمَدَ يَحْيَي بْنُ عَلِيِّ بْنِ يَحْيَي قَالَ : قَدِمَ عَلَى أَبِي إِدْرِيسُ بْنُ أَبِي حَفْصَةَ فِي أَيَّامِ الْمُتَوَكِّلِ وَتَوَسَّلَ إِلَيْهِ ، فَأَوْصَلَ شِعْرَهُ إِلَيْهِ وَكَلَّمَهُ فِيهِ ، فَاسْتَخْرَجَ لَهُ مِنْهُ عَشَرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ ، فَقَالَ إِدْرِيسُ بْنُ أَبِي حَفْصَةَ :

أَضْحَى عَلِيُّ بْنُ يَحْيَي وَهُوَ مُشْتَهِرٌ
بِالصِّدْقِ فِي الْوَعْدِ وَالتَّصْدِيقِ فِي الْأَمَلِ
لَوْ زِيدَ بِالْجُودِ فِي رِزْقٍ وَفِي أَجَلٍ
لَزَادَ جُودُكَ فِي رِزْقِي وَفِي أَجَلِي

ثُمَّ وَصَلَهُ مِنْ مَالِهِ — لَمَّا عَزَمَ إِدْرِيسُ عَلَى الِانْصِرَافِ

إِلَى بَلَدِهِ – بِجُمْلَةٍ جَلِيلَةٍ ، وَلَمْ يَزَلْ إِدْرِيسُ مُقِيماً عِنْدَهُ فِي ضِيَافَتِهِ إِلَى وَقْتِ ارْتِحَالِهِ ، فَقَالَ إِدْرِيسُ عِنْدَ وَدَاعِهِ إِيَّاهُ :

مَا مَنْ دَعَوْتُ وَلَبَّانِي بِنَائِلِهِ
كَمَنْ دَعَوْتُ فَلَمْ يَسْمَعْ وَلَمْ يُجِبِ
إِنِّي وَجَدْتُ عَلِيًّا إِذْ نَزَلْتُ بِهِ
خَيْراً مِنَ الْفِضَّةِ الْبَيْضَاءِ وَالذَّهَبِ

وَحَدَّثَ عَلِيُّ بْنُ هَارُونَ بْنِ يَحْيَى بْنِ الْمُنَجِّمِ فِي كِتَابِ الْأَمَالِي لَهُ قَالَ : حَدَّثَنِي عَمِّي أَبُو أَحْمَدَ يَحْيَى بْنُ عَلِيٍّ ، حَدَّثَنِي أَبِي عَلِيُّ بْنُ يَحْيَى قَالَ : وَفَدَ عَلَيَّ عَافِيَةُ بْنُ شَبِيبِ بْنِ خَاقَانَ ابْنِ الْأَهْتَمِ السَّعْدِيُّ مِنَ الْبَصْرَةِ فَأَنْزَلْتُهُ عَلَيَّ وَأَحْسَنْتُ ضِيَافَتَهُ ، وَرَعَيْتُ لَهُ حُرْمَةَ الْأَدَبِ الَّذِي تَوَسَّلَ بِهِ ، فَأَقَامَ مَعِي مُدَّةً فِي كِفَايَةٍ وَكَرَامَةٍ وَحُسْنِ ضِيَافَةٍ ، وَحَمَلْتُهُ عَلَى فَرَسٍ وَاسْتَوْصَلْتُ لَهُ جَمَاعَةً مِنْ إِخْوَانِي ، فَأَخَذْتُ لَهُ مِنْهُمْ مَا تَأَثَّثَ(١) بِهِ حَالُهُ وَأُصْلِحَ بِهِ شَأْنُهُ ، ثُمَّ ذَكَرْتُهُ لِلْمُتَوَكِّلِ – رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ – وَوَصَفْتُ لَهُ أَدَبَهُ ، وَأَنَّ مَعَهُ ظَرْفاً يَصْلُحُ بِهِ لِمُجَالَسَتِهِ ، فَأَمَرَنِي بِإِحْضَارِهِ ، وَدَخَلَ إِلَيْهِ فَوَصَلَهُ

(١) أي ثبت به حاله واستقر

وَأَجْرَى عَلَيْهِ رِزْقًا وَجَالَسَهُ ، فَمَكَثَ مُدَّةً عَلَى ذَلِكَ ثُمَّ انْفَرَجَتِ الْحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، وَكَفَرَ مَا كَانَ مِنْ إِحْسَانِي إِلَيْهِ ، وَبَسَطَ لِسَانَهُ يَذْكُرُنِي بِمَا لَمْ أَسْتَحِقَّهُ مِنْهُ ، وَكَانَ الْمُتَوَكِّلُ يُغْرِيهِ بِي لِمَا رَأَى مِنْهُ ، فَيَضْحَكُ الْمُتَوَكِّلُ مِمَّا يَجْرِي ، وَيُجِيئُنِي ذَلِكَ فِيهِ وَهُوَ لَا يَدْرِي . قَالَ أَبُو الْحَسَنِ : فَأَهْدَى فِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ النَّوَارِيزِ إِلَى الْمُتَوَكِّلِ فَرَسًا فَنَظَرَ إِلَيْهِ الْمُتَوَكِّلُ فَاسْتَحْسَنَهُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ فَقَالَ : أَمَا تَرَى إِلَى هَذَا الْفَرَسِ الَّذِي أَهْدَاهُ عَافِيَةُ ، مَا أَحْسَنَهُ وَأَعْتَقَهُ [1] ؟! هَذَا خِلَافُ مَا يَصِفُهُ بِهِ عَلِيُّ بْنُ يَحْيَى مِنْ صِغَرِ الْهِمَّةِ وَضِيقِ النَّفْسِ وَالْخَسَاسَةِ ، مَنْ تَبْلُغُ هِمَّتُهُ إِلَى أَنْ يُهْدِيَ مِثْلَ هَذَا الْفَرَسِ لَا يُوصَفُ بِالْخَسَاسَةِ وَلَا بِضِيقِ النَّفْسِ ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ يَنْظُرُ إِلَيَّ وَيَقْصِدُنِي بِالْكَلَامِ وَيُرِيدُ الْعَبَثَ بِي ، فَتَرَكْتُهُ حَتَّى أَطْنَبَ فِي هَذَا الْمَعْنَى وَبَلَغَ مِنْهُ مَا أَرَادَ ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَلَيْسَ مَنْ أَهْدَى مِثْلَ هَذَا الْفَرَسِ عِنْدَكَ ذَا هِمَّةٍ وَقَدْرٍ ؟ قَالَ : بَلَى ، قَالَ : قُلْتُ : فَأَبْعَدُ هِمَّةً وَأَرْفَعُ قَدْرًا مَنْ حَمَلَهُ عَلَيْهِ . قَالَ : وَمَنْ

(١) العتيق من الخيل : الأصيل الكريم

حَمَلَهُ عَلَيْهِ ؟ قَالَ : قُلتُ أَنا حَمَلتُهُ عليهِ . قَالَ : فقَالَ : ياعافيَةُ مايَقُولُ عليٌّ ؟ قَالَ : فقَالَ : صدَقَ يا أَمِيرَ المؤْمِنينَ هُوَ حَمَلَنِي عَلَيْهِ . قَالَ : فانكسرَ عَنِّي ثُمَّ أَقبلَ على الفتحِ خجلاً فسرَّيتُ الحَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ عافيةَ حتَّى هجاهُ مَنْ كَانَ يَطُوفُ بِهِ مِنَ الشُّعَرَاءِ ، فقَالَ فِيهِ أَبُو عبدِ اللهِ أَحمَدُ بْنُ أَبِي فَنَنٍ وَكُنْتُ أَدْخَلْتُهُ عَلَى المُتَوَكِّلِ ، وجَالَسَهُ وَشكَرَ لِي ذَلِكَ إِذْ كَفَرَهُ عافِيَةُ :

سَتَعلَمُ أَنَّ لُؤْمَ بَنِي تَمِيمٍ ... سَيَظْهَرُ مِنْهُ لِلنَّاسِ الخَفِيُّ
وَمَا إِنْ ذَاكَ أَنَّكَ مِنْ تَمِيمٍ ... وَلكِنْ رُبَّمَا جَرَّ الدَّعِيُّ

وَقَالَ فِيهِ أَبُو هِفَّانَ :

لَوْ كُنْتَ عافِيَةً لَكُنْتَ مُحَبَّباً
فِي العَالَمِينَ كَمَا تُحَبُّ العَافِيَهْ

وَقَالَ فِيهِ أَبُو الحَسَنِ البَلاذُرِيُّ :

مَنْ رَآهُ فَقَدْ رَأَى عَرَبِيًّا مُدَلَّسَا
لَيْسَ يَدْرِي جَلِيسُهُ أَفَسَا أَمْ تَنَفَّسَا ؟

وَقَالَ فِيهِ أَبُو العَنْبَسِ الصَّيْمَرِيُّ :

أَبَا حَسَنٍ بِمَنْصِبِكَ الصَّمِيمِ ... أَتَأْذَنُ فِي السَّلاحِ عَلَى التَّمِيمِي ؟

فَوَالرَّحْمَنِ لَوْلَا أَلْفُ سَوْطٍ   لَفَارَقَ رُوحَهُ رَوْحَ النَّسِيم

وَهَجَاهُ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ يَحْيَى الْمُنَجِّمُ فَقَالَ :

أَأَهْجُو تَمِيماً إِنْ تَعَرَّضَ مُلْصَقٌ

إِلَيْهَا دَعِيٌّ قَدْ نَفَتْهُ قُرُومُهَا ؟

فَآخُذُهَا طُرّاً بِذَنْبِ دَعِيِّهَا

فَأَيْنَ نُهَا قَوْمِي وَأَيْنَ حُلُومُهَا ؟؟

وَمَا فِي دَعِيِّ الْقَوْمِ ثَأْرٌ لِثَائِرٍ

وَلَمْ تَقْتَرِفْ ذَنْباً فَيَهْجَى صَمِيمُهَا

أَعَافِيَ إِنَّ اللُّؤْمَ مِنْكَ سَجِيَّةٌ

وَشَرُّ خِلَالِ الْأَدْعِيَاءِ قَدِيمُهَا

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ : وَتَرَقَّى بِهِ الْأَمْرُ فِي مُنَابَذَتِي إِلَى أَنْ ادَّعَى فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ بِحَضْرَةِ الْمُتَوَكِّلِ أَنَّهُ أَحْسَنُ مُرُوءَةً مِنِّي . فَقَالَ الْفَتْحُ : مِحْنَةُ هَذَا سَهْلَةٌ ، يُوَجِّهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَنْزِلِهِمَا مَنْ يُحْضِرُ مَا يَجِدُهُ مِنَ الطَّعَامِ حَاضِراً ، فَدَعَا الْمُتَوَكِّلُ بِقَائِدٍ مِنْ قُوَّادِهِ وَقَالَ : امْضِ إِلَى مَنْزِلِ عَلِيِّ بْنِ يَحْيَى فَانْظُرْ مَا تَجِدُ فِيهِ مِنَ الطَّعَامِ حَاضِراً فَأَحْضِرْهُ ، وَامْنَعْهُمْ مِنْ أَنْ يَشْتَرُوا شَيْئاً أَوْ يَعْمَلُوهُ ، وَافْعَلْ مِثْلَ ذَلِكَ بِمَنْزِلِ عَافِيَةَ ، فَصَارَ إِلَى مَنْزِلِ

عَلِيِّ بْنِ يَحْيَى فَوَجَدَ فِيهِ طَعَامًا عَتِيدًا فَحَمَلَ جَوْنَةً[(١)] حَسَنَةً، وَصَارَ إِلَى مَنْزِلِ عَافِيَةَ فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ غَيْرَ سُفْرَةٍ خَلَقَةٍ مُعَلَّقَةٍ فِي مَجْلِسِهِ، فَأَمَرَ فَأُنْزِلَتْ فَوَجَدَ فِيهَا كِسَرًا مِنْ خُبْزِ خَشْكَارٍ[(٢)] وَمِلْحًا مِنْ مِلْحِ السُّوقِ، وَقِطْعَةَ جُبْنٍ يَابِسٍ، وَقِطْعَةً مِنْ سَمَكٍ مَالِحٍ، وَقَصْعَةً مَكْسُورَةً فِيهَا ذَلِكَ الْمَالِحُ، وَخِرْقَةً وَسِخَةً مُنْقَطِعَةً، فَحَمَلَ السُّفْرَةَ بِحَالِهَا وَصَارَ إِلَى الْمُتَوَكِّلِ فَعَرَضَ عَلَيْهِ الْجَوْنَةَ فَاسْتَحْسَنَهَا وَقَالَ لِلْفَتْحِ: أَمَا تَرَى مَا أَنْظَفَ هَذَا الطَّعَامَ وَأَحْسَنَهُ؟! وَأَحْضَرَ السُّفْرَةَ فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا هُوَ الَّذِي وَجَدْتُهُ فِي مَنْزِلِ عَافِيَةَ. قَالَ: افْتَحُوهَا، فَفُتِحَتْ فَاسْتَقْذَرَ مَا رَأَى فِيهَا وَعَجِبَ مِنْهُ وَقَالَ: يَا فَتْحُ، أَظَنَنْتَ أَنَّ رَجُلًا يُجَالِسُنِي وَقَدْ وَصَلْتُهُ بِعِدَّةِ صِلَاتٍ فَيَكُونُ هَذَا مِقْدَارَ مُرُوءَتِهِ؟ فَقَالَ: لَا وَاللهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا لَهُ عُذْرٌ، فَدَعَا بِخَادِمٍ مِنْ خَدَمِهِ وَقَالَ: امْضِ إِلَى عُبَيْدِ اللهِ بْنِ يَحْيَى فَقُلْ لَهُ: أَخْرِجْ إِلَيَّ مَا وَصَلَ إِلَى عَافِيَةَ مِنْ مَالِي مِنْ رِزْقٍ وَصِلَةٍ مُنْذُ خَدَمَنِي إِلَى هَذَا الْوَقْتِ، فَمَضَى الْخَادِمُ فَلَمْ يَكُنْ بِأَسْرَعَ مِنْ أَنْ وَافَى بِرُقْعَةٍ مِنْ عُبَيْدِ اللهِ وَفِيهَا مَبْلَغُ

---

(١) الجونة بفتح الجيم: الخابية المطلية بالقار (٢) الخشكار: طعام يعمل من اللبن والسمن والسويق

مَا صَارَ إِلَى عَافِيَةَ، فَإِذَا هُوَ ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ. فَقَالَ الْمُتَوَكِّلُ: يَا فَتْحُ، أَمَا كَانَ يَجِبُ أَنْ يَتَبَيَّنَ أَثَرُ النِّعْمَةِ عَلَى مَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ هَذَا الْمَالُ؟ مَا فِي هَذَا خَيْرٌ وَلَا يَصْلُحُ مِثْلُهُ لِمُجَالَسَتِي؟ فَأَخْرَجَهُ مِنَ الْمُجَالَسَةِ وَأَمَرَ بِنَفْيِهِ إِلَى الْبَصْرَةِ وَهِيَ بَلَدُهُ، فَلَمَّا حَضَرَ خُرُوجُهُ طَالَبَتْهُ صَاحِبَةُ الْمَنْزِلِ بِأُجْرَتِهِ، فَدَفَعَ إِلَيْهَا بِبَقِيَّةِ مَالَهَا عَلَيْهِ حُبًّا(١) كَانَ فِي الدَّارِ خَلَقًا، وَاتَّصَلَ الْخَبَرُ بِابْنِ الْمُنَجِّمِ قَالَ: فَصِرْتُ إِلَى الْمُتَوَكِّلِ فَعَرَّفْتُهُ ذَلِكَ فَعَجِبَ مِنْهُ وَأَمَرَ بِإِحْضَارِ الْمَرْأَةِ وَمَسْأَلَتِهَا فَأَخْبَرَتْ بِهِ، فَأَمَرَ لَهَا بِصِلَةٍ وَتَقَدَّمَ إِلَى عُبَيْدِ اللهِ فِي أَخْذِ الْحُبِّ وَإِنْفَاذِهِ مَعَ رَسُولٍ قَاصِدٍ خَلْفَ عَافِيَةَ يَلْحَقُهُ بِالْبَصْرَةِ وَأَمَرَهُ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى صَاحِبِ الْمَعُونَةِ وَصَاحِبِ الصَّدَقَةِ وَالْخَرَاجِ وَالْقَاضِي وَصَاحِبِ الْبَرِيدِ بِحُضُورِ الْجَامِعِ وَالتَّقَدُّمِ إِلَى وُجُوهِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ فِي الْحُضُورِ وَإِحْضَارِ عَافِيَةَ وَتَسْلِيمِ الْحُبِّ إِلَيْهِ بِحَضْرَتِهِمْ وَإِشْهَادِهِمْ عَلَيْهِ وَتَعْرِيفِهِمْ مَا كَانَ مِنْ خَبَرِهِ مَعَ الْمَرْأَةِ صَاحِبَةِ دَارِهِ، فَفَعَلَ ذَلِكَ وَصَارَ بِهِ عَافِيَةُ شُهْرَةً فِي بَلَدِهِ.

---

(١) الحب: الجرة الضخمة أو الخشبات الأربع التي توضع عليها الجرة ذات العروتين وغطاؤها يدعى الكرامة ومنه المثل: «حبا وكرامة» كقولهم: كليهما وتمرا أي وزدني أي أعطني حبا وغطاءها «عبد الخالق»

وَحَدَّثَ هارُونُ عن عَمِّهِ عن أَبيهِ عَلِيِّ بنِ يَحْيَى قالَ: كُنْتُ أُنادِمُ المُتَوَكِّلَ فِي لَيْلَةٍ مِنَ اللَّيالِي، فَغَلَبَ عَلَيَّ النَّبِيذُ فَأَطْرَقْتُ كَالمَهْمُومِ وَأَنا مُنْتَصِبٌ قالَ: فَدَعا المُتَوَكِّلُ بِنَصْرٍ سَلْهَبٍ وَقالَ: امْضِ إلى مَنْزِلِ عَلِيِّ بنِ يَحْيَى فانْظُرْ ما تَجِدُ فِيهِ مِنَ الطَّعامِ فاحْمِلْهُ إِلَيَّ وأَعْجِلْهُمْ غايَةَ الإعْجالِ وَلَا تَدَعْهُمْ يُهَيِّئُونَ شيئاً، قالَ: فَمَضَى نَصْرٌ فامْتَثَلَ أَمْرَهُ وَحَمَلَ جُونَةً مَمْلُوءَةً مِنْ ضُرُوبِ الطَّعامِ وَجاءَ بِها إِلى المُتَوَكِّلِ، فَفُتِحَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ فَفاحَتْ بِرائِحَةٍ شَوَّقَتْهُ إِلى الطَّعامِ، واسْتَحْسَنَ ما رَأَى فِيها فَأَكَلَ مِنْها والفَتْحُ مَعَهُ، ثُمَّ قالَ لَهُ: أَما تَرَى ما أَحْسَنَ هذا الطَّعامَ وَما أَطْيَبَهُ وَأَنْظَفَهُ؟! وَلَوْ كانَ عَلِيٌّ أَعَدَّ هذا المِثْلِ ما كانَ مِنّا ما زادَ عَلى حُسْنِ هذهِ الجُونَةِ وَطِيبِ ما فِيها. قالَ: فَقالَ لهُ الفَتْحُ: هذا يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ يَدُلُّ عَلى مُرُوءَتِهِ، وَإِنَّهُ لَيَجِبُ أَنْ يُعانَ عَلَيْها. قالَ: فَصاحَ بِي يا عَلِيُّ، فَقُمْتُ قائِماً وَقُلْتُ: لَبَّيْكَ يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ. قالَ: تَعالَ، فَقَرُبْتُ مِنْهُ فَقالَ انْظُرْ: إِلى هذهِ الجُونَةِ وَما فِيها، فَنَظَرْتُ إِلَيْها فَقالَ: كَيْفَ تَراهُ؟ قُلْتُ: أَرَى طَعاماً حَسَناً. قالَ: فَتَدْرِي مِنْ أَيْنَ هُوَ؟ فَقالَ قُلْتُ: لا يَعْلَمُ الغَيْبَ إِلَّا اللهُ. قالَ: فَإِنَّها مِنْ مَنْزِلِكَ، وَإِنِّي فَعَلْتُ كَذا وَكَذا

وقص على القصة وقال : قد والله سرني ما رأيت من مروءتك وسرورك ، وكذا فليكن من خدم الملوك ، قال لي : ما تحب أن أهب لك ؟ قال : قلت مائة ألف دينار ، قال : أنت والله تستحقها وما هو أكثر منها ، وما يمنعني من دفعها إليك إلا كراهة الشنعة وأن يقال : وصل جليساً من جلسائه في ليلة بمائة ألف دينار ، ولكني أوصلها إليك متفرقة وأضمن فتحا إذكاري بذلك حتى تستوفيها ، وقد وصلتك بمائة ألف درهم على غير صرف فانصرف بها معك . قال : وأمر بإحضارها فأحضرت عشر بدر وحملت معي إلى منزلي ، ثم لم يزل يتابع لي الصلات حتى وفاني مائة ألف دينار . قال علي بن يحيي : وأحصيت ما وصل إلي من أمير المؤمنين المتوكل من رزق وصلة فكان مبلغه ثلاثمائة ألف دينار . قال : ولما مات علي بن يحيي قال ابن بسام يرثيه :

قد زرت قبرك يا علي مسلما
ولك الزيارة من أقل الواجب
ولو استطعت حملت عنك ترابه
فلطالما عني حملت نوائبي

وَفِي كِتَابِ النُّورَيْنِ لِلْحُصْرِيِّ : وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمُنَجِّمِ : « فَلَا أَدْرِي أَهُوَ هَذَا أَمْ عَلِيُّ بْنُ هَارُونَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ يَحْيَى بْنِ الْمُنَجِّمِ ؟ » :

وَمِنْ طَاعَتِي إِيَّاهُ أَمْطَرَ نَاظِرِي
إِذَا هُوَ أَبْدَى مِنْ ثَنَايَاهُ لِي بَرْقَا
كَأَنَّ جُفُونِي تُبْصِرُ الْوَصْلَ هَارِبًا
فَمِنْ أَجْلِ ذَا تَجْرِي (١) لِتُدْرِكَهُ سَبْقَا

وَلِعَلِيٍّ هَذَا ابْنٌ يُكْنَى أَبَا عِيسَى وَاسْمُهُ أَحْمَدُ ، كَانَ أَدِيبًا وَهُوَ مَذْكُورٌ فِي بَابِهِ . وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ يَحْيَى يَرْثِي الْمَأْمُونَ وَيَمْدَحُ الْمُعْتَصِمَ :

مَنْ ذَا عَلَى الدَّهْرِ يُعْذِينِي فَقَدْ كَثُرَتْ
عِنْدِي جِنَايَتُهُ يَامَعْشَرَ النَّاسِ
أَخْنَى عَلَى الْمَلِكِ الْمَأْمُونِ كَلْكَلَهُ
فَصَارَ رَهْنًا لِأَحْجَارٍ وَأَرْمَاسِ
قَدْ كَادَ (٢) يَنْهَدُّ رُكْنُ الدِّينِ حِينَ ثَوَى
وَيَتْرُكُ النَّاسَ كَالْفَوْضَى بِلَا رَاسِ

(١) أي تفيض ماء خوف أن يهرب الوصل حتى تدركه
(٢) في الأصل « كان »

حَتَّى تَدَارَكَهُمْ بِاللهِ مُعْتَصِمٌ

خَيْرُ الْخَلَائِفِ مِنْ أَوْلَادِ عَبَّاسِ

وَدَخَلَ أَبُو عَلِيٍّ الْبَصِيرُ عَلَى عَلِيِّ بْنِ يَحْيَى وَقَدْ أُصِيبَ بِبَعْضِ أَهْلِهِ، وَكَانَ قَدْ بَعَثَ إِلَيْهِ بِبِرٍّ قَبْلَ ذَلِكَ فَقَالَ لَهُ: بَلَغَنِي مُصَابُكَ ، وَوَصَلَ إِلَيَّ ثَوَابُكَ ، فَأَحْسَنَ اللهُ جَزَاءَكَ وَعَزَاءَكَ . قَالَ الْمَرْزُبَانِيُّ وَهُوَ الْقَائِلُ فِي نَفْسِهِ :

عَلِيُّ بْنُ يَحْيَى جَامِعٌ لِمَحَاسِنٍ

مِنَ الْعِلْمِ مَشْغُوفٌ بِكَسْبِ الْمَحَامِدِ

فَلَوْ قِيلَ : هَاتُوا فِيكُمُ الْيَوْمَ مِثْلَهُ

لَعَزَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تَجِيئُوا بِوَاحِدِ

وَلَهُ :

سَيَعْلَمُ دَهْرِي إِذْ تَنَكَّرَ أَنَّنِي

صَبُورٌ عَلَى نُكْرَانِهِ غَيْرُ جَازِعِ

وَأَنِّي أَسُوسُ النَّفْسَ فِي حَالِ عُسْرِهَا

سِيَاسَةَ رَاضٍ بِالْمَعِيشَةِ قَانِعِ

كَمَا كُنْتُ فِي حَالِ الْيَسَارِ أَسُوسُهَا

سِيَاسَةَ عَفٍّ فِي الْغِنَى مُتَوَاضِعِ

وَأَمْنَعُهَا الْوِرْدَ الَّذِي لَا يَلِيقُ بِي
وَإِنْ كُنْتُ ظَمْآنًا بَعِيدَ الشَّرَائِعِ (١)

وَلَهُ :

بِأَبِي وَاللهِ مَنْ طَرَقَا كَابْتِسَامِ الصُّبْحِ إِذْ خَفَقَا
زَادَنِي شَوْقًا بِرُؤْيَتِهِ وَحَشَا قَلْبِي بِهِ حُرَقَا
مَنْ لِقَلْبٍ هَائِمٍ كَلِفٍ كُلَّمَا سَكَّنْتُهُ قَلِقَا
زَارَنِي طَيْفُ الْحَبِيبِ فَمَا زَادَ أَنْ أَغْرَى بِيَ الْأَرَقَا

وَلَمَّا مَاتَ عَلِيُّ بْنُ يَحْيَى قَالَ عَلِيُّ بْنُ سُلَيْمَانَ أَحَدُ شُعَرَاءِ الْعَسْكَرِ يَرْثِيهِ (٢) :

قَدْ زُرْتُ قَبْرَكَ يَا عَلِيُّ مُسَلِّمًا
وَلَكَ الزِّيَارَةُ مِنْ أَقَلِّ الْوَاجِبِ
وَلَوِ اسْتَطَعْتُ حَمَلْتُ عَنْكَ تُرَابَهُ
فَلَطَالَمَا عَنِّي حَمَلْتَ نَوَائِبِي
وَدَمِي فَلَوْ أَنِّي عَلِمْتُ بِأَنَّهُ
يَرْوِي ثَرَاكَ - سَقَاهُ (٣) - صَوْبُ الصَّائِبِ

---

(١) جمع شريعة : مورد الماء (٢) البيتان الأولان قد سبق ذكرهما منسوبين لابن بسام وبقية الأبيات تقدمت (٣) هذه الجملة دعائية معترضة

لَسَفَكْتُهُ أَسَفاً عَلَيْكَ وَحَسْرَةً
وَجَعَلْتُ ذَاكَ مَكَانَ دَمْعٍ سَاكِبِ
فَلَئِنْ ذَهَبْتَ بِمِلْءِ قَبْرِكَ سُؤْدَداً
لَجَمِيلُ مَا أَبْقَيْتَ لَيْسَ بِذَاهِبِ

وَحَدَّثَ أَبُو عَلِيٍّ التَّنُوخِيُّ فِي نِشْوَارِهِ: حَدَّثَنِي أَبُو الْحَسَنِ ابْنُ أَبِي بَكْرٍ الْأَزْرَقُ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: كَانَ بِكَرْكَرَ مِنْ نَوَاحِي الْقُفْصِ ضَيْعَةٌ نَفِيسَةٌ لِعَلِيِّ بْنِ يَحْيَى بْنِ الْمُنَجِّمِ وَقَصْرٌ جَلِيلٌ فِيهِ خِزَانَةُ كُتُبٍ عَظِيمَةٌ يُسَمِّيهَا خِزَانَةَ الْحِكْمَةِ يَقْصِدُهَا النَّاسُ مِنْ كُلِّ بَلَدٍ فَيُقِيمُونَ فِيهَا وَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهَا صُنُوفَ الْعِلْمِ، وَالْكُتُبُ مَبْذُولَةٌ فِي ذَلِكَ لَهُمْ، وَالصِّيَانَةُ مُشْتَمِلَةٌ عَلَيْهِمْ، وَالنَّفَقَةُ فِي ذَلِكَ مِنْ مَالِ عَلِيِّ بْنِ يَحْيَى، فَقَدِمَ أَبُو مَعْشَرٍ الْمُنَجِّمُ مِنْ خُرَاسَانَ يُرِيدُ الْحَجَّ وَهُوَ إِذْ ذَاكَ لَا يُحْسِنُ كَبِيرَ شَيْءٍ مِنَ النُّجُومِ، فَوُصِفَتْ لَهُ الْخِزَانَةُ فَمَضَى وَرَآهَا فَهَالَهُ أَمْرُهَا، فَأَقَامَ بِهَا وَأَضْرَبَ عَنِ الْحَجِّ وَتَعَلَّمَ فِيهَا عِلْمَ النُّجُومِ وَأَعْرَقَ فِيهِ حَتَّى أَلْحَدَ، وَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ عَهْدِهِ بِالْحَجِّ وَبِالدِّينِ وَالْإِسْلَامِ أَيْضاً. وَذَكَرَ جَحْظَةُ فِي أَمَالِيهِ:

حَدَّثَنَا ابْنُ حُمَيْدٍ قَالَ: قَالَ الْمُتَوَكِّلُ لِعَلِيِّ بْنِ يَحْيَى الْمُنَجِّمِ:

أُهْجُ مَرْوَانَ بْنَ أَبِي الْجَنُوبِ . فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ مَرْوَانُ حتى أَهْجُوهُ ؟ قَالَ : مَرْوَانُ مَوْلَى بَنِي أُمَيَّةَ وَمَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ ، وَبَعْدُ : فَإِنَّهُمْ بَنُو عَمِّي وَأَنْتَ الْعَدَاوَةُ بَيْنَنَا ، فَأَنْتَ مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : أَنَا مَوْلَاكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ . قَالَ : دَعْنَا مِنْ هَذَا الْبُرُودِ ، أُهْجُ الرَّجُلَ وَإِلَّا أَمَرْتُهُ أَنْ يَهْجُوكَ . فَوَقَفَ سَاعَةً مُتَفَكِّرًا فَانْدَفَعَ مَرْوَانُ يَقُولُ :

أَلَا إِنَّ يَحْيَى لَا يُقَاسُ إِلَى أَبِي
وَعِرْضُ عَلِيٍّ لَا يُقَاسُ إِلَى عِرْضِي
أُنَاسٌ مِنَ الْأَنْبَاطِ أَكْثَرُ فَخْرِهِمْ
إِذَا فَخَرَ الْأَشْرَافُ بَعْضًا عَلَى بَعْضِ
تَنَحُّلَ أَصْلًا فِي الْمَجُوسِ وَدَعْوَةً
إِلَيْهِمْ نَفَاهَا مَنْ بِحُكْمِهِمُ يَقْضِي
أَبَى ذَاكَ آذَرْبَادُ فِيكُمْ فَأَنْتُمُ
مِنَ السِّفْلِ الْأَرْذَالِ وَالنَّبَطِ الْمَحْضِ
حَدِيثُكُمُ غَثٌّ وَقُرْبُكُمُ أَذًى
وَآدَابُكُمْ مَمْزُوجَةُ الْمَقْتِ بِالْبُغْضِ

تَسَوَّقْتُمُ عِنْدَ الإِمَامِ بِحُبِّهِ
وَسُوقُكُمُ عِنْدَ الرَّوَافِضِ بِالرَّفْضِ
مَتَى مَا تعَاطَى المَجْدَ وَالفَخْرَ أَهْلُهُ
فَلَسْتُمْ مِنَ الإِبْرَامِ فِيهِ وَلَا النَّقْضِ
إِخَالُ عَلِيًّا مِنْ تَكَامُلِ مَقْتِهِ
يُطَاحِرُ وَجْهِي وَهُوَ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ (١)

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي طَاهِرٍ: كُنْتُ يَوْمًا عِنْدَ أَبِي الْحَسَنِ يَحْيَى الْمُنَجِّمِ فِي أَيَّامِ الْمُعْتَمِدِ فَدَخَلَ عَلَيْهِ ابْنُهُ هَارُونُ فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَتِ، رَأَيْتُ فِي النَّوْمِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُعْتَمِدَ وَهُوَ فِي دَارِهِ عَلَى سَرِيرِهِ إِذْ بَصُرَ بِي فَقَالَ: أَقْبِلْ عَلَيَّ يَا هَارُونُ، يَزْعُمُ أَبُوكَ أَنَّكَ تَقُولُ الشِّعْرَ فَأَنْشِدْنِي طَرِيدَ هَذَا الْبَيْتِ:

أَسَالَتْ عَلَى الْخَدَّيْنِ دَمْعًا لَوَ انَّهُ
مِنَ الدُّرِّ عِقْدٌ كَانَ ذُخْرًا مِنَ الذُّخْرِ (٢)

---

(١) يقول: كأني بعلي يمشي على حر وجهي عند ما يمشي على الأرض، وذلك من استحكام مقته إياي (٢) يريد لو أن دمعها عقد من الدر لكان أعظم ذخر، وأنا أظن أن البيت أصله هكذا:

أسالت على الخدين درا لو انه
من الدمع عقد كان ذخرا من الذخر

وهو حينئذ أجل معنى « عبد الخالق »

فَلَمْ أَرُدَّ عليهِ شيئاً وَانتبهتُ . قالَ : فرجفَ عليهِ عليُّ ابْنُ يحْيَى غضباً وقالَ : وَيْحكَ ؟ فلِمَ لَمْ تقلْ ؟ :

فلمَّا دنا وَقتُ الفِراقِ وَفِى الْحشا
لِفرْقتِها لذعٌ أَحرُّ مِنَ الْجمْرِ
أَسالتْ عَلَى الخدَّيْنِ دمْعاً لوَ انَّهُ
مِنَ الدُّرِ عِقدٌ كَانَ ذُخْراً مِنَ الذُّخرِ

قالَ ابْنُ أَبِى طاهِرٍ : فانصرفنا متعجبِّينَ مِنْ حفظِ هارُون لِما هجسَ فِى خاطِرهِ ، ولِمُبادرَةِ عليِّ بنِ يحْيَى وسُرعتهِ فِى القَوْلِ .

قالَ جحظةُ فِى أَماليهِ : حُدِّثتُ عَنْ يَزِيدَ بنِ مُحمَّدٍ المُهلَبيِّ قالَ : كُنْتُ أَرَى عليَّ بْنَ يَحْيَى الْمُنجِّمَ فأَرَى صُورَتَهُ وَصِغرَ خِلقتهِ وَدِقَّةَ وَجْهِهِ وَصِغرَ عَيْنَيْهِ وَأَسْمعُ بمحلِّهِ مِنَ الْوَاثِقِ وَالْمُتوَكِّلِ ، فأَعْجبُ مِنْ ذَلِكَ وَأَقولُ : بِأَيِّ سَبَبٍ يَسْتظْرِفهُ الْخلِيفةُ وَبِماذَا حظِىَ عِنْدَهُ ؟ وَالقِرْدُ أَملحُ مِنْهُ قَباحةً . فلمَّا جالستُ الْمُتوَكِّلَ رَأَيْتُ عليَّ بْنَ يَحْيَ قَدْ دَخلَ عَلَى الْمُتوَكِّلِ فِى غَدَاةٍ مِنَ الْغَدَوَاتِ الَّتِى قَدْ سهِرَ فِى لَيْلَتِها بِالشُّرْبِ وَهُوَ مَخْمُورٌ يَفُورُ حَرَارَةً يَسْتثْقِلُ

لِكُلِّ أَمْرٍ يَخِفُّ دُونَ مَا يَثْقُلُ (١)، فَوَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ: يَا مَوْلَايَ، أَمَا تَرَى إِقْبَالَ هَذَا الْيَوْمِ وَحُسْنَهُ وَإِطْبَاقَ الْغَيْمِ عَلَى شَمْسِهِ وَخُضْرَةَ هَذَا الْبُسْتَانِ وَرَوْنَقَهُ؟ وَهُوَ يَوْمٌ تُعَظِّمُهُ الْفُرْسُ وَتَشْرَبُ فِيهِ لِأَنَّهُ هُرْمُزْ رُوزٍ، وَتُعَظِّمُهُ غِلْمَانُكَ وَأَكَرَتُكَ مِثْلِي مِنَ الدَّهَاقِينَ، وَوَافَقَ ذَلِكَ يَا سَيِّدِي أَنَّ الْقَمَرَ مَعَ الزُّهْرَةِ، فَهُوَ يَوْمُ شُرْبٍ وَسُرُورٍ وَتَجَلٍّ (٢) بِالْفَرَحِ، فَهَشَّ إِلَيْهِ وَقَالَ: وَيْلَكَ يَا عَلِيُّ، مَا أَقْدِرُ أَنْ أَفْتَحَ عَيْنِي خُمَاراً. فَقَالَ: إِنْ دَعَا سَيِّدِي بِالسِّوَاكِ فَاسْتَعْمَلَهُ وَغَسَلَ بِمَاءِ الْوَرْدِ وَجْهَهُ، وَشَرِبَ شَرْبَةً مِنْ رُبِّ الْحِصْرِمِ (٣) أَوْ مِنْ مَتْنَةٍ (٤) مُطَيَّبَةٍ مُبَرَّدًا ذَلِكَ بِالثَّلْجِ انْحَلَّ كُلُّ مَا يَجِدُ، فَأَمَرَ بِإِحْضَارِ كُلِّ مَا أَشَارَ بِهِ. فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا سَيِّدِي، وَإِلَى أَنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ تَحْضُرُ عَجْلَانِيَّتَانِ (٥) بَيْنَ يَدَيْكَ مِمَّا يُلَائِمُ الْخُمَارَ وَيُفِيقُ (٦) الشَّهْوَةَ وَيُعِينُ عَلَى تَخْفِيفِهِ. فَقَالَ: أَحْضِرُوا عَلِيًّا كُلَّ مَا يُرِيدُ، فَأُحْضِرَتِ الْعَجْلَانِيَّتَانِ بَيْنَ

(١) أى فضلا عن استثقاله لما هو ثقيل (٢) كانت هذه الكلمة فى الأصل: « وتحل » (٣) الحصرم: الثمر قبل نضجه، وربه: عصيره (٤) المتنة: الدلو (٥) لعله يريد ما يتعجله الانسان من الطعام كالأقط والتمر باللبن فهى نسبة إلى عجلان وهو ما يتعجله الانسان أو أن ذلك نوع خاص من الطعام منسوب إلى عجلانية بلد بمرو الديباج (٦) يفيق الشهوة: يلبها ويوقظها

يَدَيْهِ وَفَرَارِيجُ (١) كَسْكَرَ قَدْ صُفِّفَتْ عَلَى أَطْبَاقِ الْخِلَافِ وَطَبِيخُ حُمَّاضِيَّةٍ وَحِصْرِمِيَّةٍ وَمَطْجَنَةٍ (٢) لَهَا مُرَيْقَةٌ، فَلَمَّا فَاحَتْ رَوَائِحُ الْقُدُورِ هَشَّ لَهَا الْمُتَوَكِّلُ فَقَالَ لَهُ يَا عَلِيُّ: أَذِقْنِي، فَجَعَلَ يُذِيقُهُ مِنْ كُلِّ قِدْرٍ بِجَرْفٍ يَشْرَبُ بِهَا، فَهَشَّ إِلَى الطَّعَامِ وَأَمَرَ بِإِحْضَارِهِ. فَالْتَفَتَ عَلِيٌّ إِلَى صَاحِبِ الشَّرَابِ فَقَالَ لَهُ: يَنْبَغِي أَنْ تَخْتَارَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ شَرَابٌ رَيْحَانِيٌّ وَيُزَادَ فِي مِزَاجِهِ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ فِي الشُّرْبِ فَيُهَنِّئَهُ اللهُ إِيَّاهُ إِنْ شَاءَ اللهُ. قَالَ: فَلَمَّا أَكَلَ الْمُتَوَكِّلُ وَأَكَلْنَا نَهَضْنَا فَغَسَلْنَا أَيْدِينَا وَعُدْنَا إِلَى مَجَالِسِنَا وَغَنَّي الْمُغَنُّونَ، فَجَعَلَ عَلِيٌّ يَقُولُ: هَذَا الصَّوْتُ لِفُلَانٍ، وَالشِّعْرُ لِفُلَانٍ، وَجَعَلَ يُغَنِّي مَعَهُمْ وَبَعْدَهُمْ غِنَاءً حَسَنًا إِلَى أَنْ قَرُبَ الزَّوَالُ، فَقَالَ الْمُتَوَكِّلُ: أَيْنَ نَحْنُ مِنْ وَقْتِ الصَّلَاةِ؟ فَأَخْرَجَ عَلِيٌّ أَسْطُرْلَابًا (٣) مِنْ فِضَّةٍ فِي خُفِّهِ، فَقَاسَ الشَّمْسَ وَأَخْبَرَ عَنِ الِارْتِفَاعِ وَعَنِ الطَّالِعِ وَعَنِ الْوَقْتِ، فَلَمْ يَزَلْ يَعْظُمُ فِي عَيْنِي حَتَّى صَارَ كَالْجَبَلِ، وَصَارَ

(١) فراريج : صغار الدجاج، وكسكر : كورة واسعة تنسب إليها الفراريج الكسكريه والخلاف : شجر (٢) الحماضية : طبيخ نبات يسمى الحميض ، والحصرمية من الحصرم : وهو أول العنب ، والمطجنة : مايقلى فى الطاجن ، يريد : وأحضر ماطبخ من هذه الأصناف (٣) الأصطرلاب : آلة يقيس بها الفلكيون ارتفاع الكواكب

مَقَابِحُ وَجْهِهِ مَحَاسِنَ ، فقلتُ : لِأَمْرٍ مَا قُدِّمْتَ ، فِيكَ أَلْفُ خَصْلَةٍ : طَبِيبٌ وَمُضْحِكٌ ، وَأَدِيبٌ وَجَلِيسٌ ، وَحِذْقُ طَبَّاخٍ ، وَتَصَرُّفُ مُغَنٍّ ، وَفِكْرُ مُنَجِّمٍ ، وَفِطْنَةُ شَاعِرٍ ، مَا تَرَكْتَ شَيْئًا مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُلُوكُ إِلَّا مَلَكْتَهُ .

قَالَ جَحْظَةُ : وَحَدَّثَنِي رَذَاذُ غُلَامُ الْمُتَوَكِّلِ قَالَ : شَهِدْتُ عَلِيَّ بْنَ يَحْيَى الْمُنَجِّمَ وَقَدْ أَمَرَهُ الْمُتَوَكِّلُ أَنْ يُغَنِّيَهُ وَكُنْتُ جَالِسًا إِلَى جَانِبِهِ فَقَالَ لِي : قَدْ وَقَعْتُ ، وَإِنْ تَمَنَّعْتُ جَدَّ بِي حَتَّى أُغَنِّيَ ثُمَّ لَا يَكُونُ لَهُ مَوْقِعٌ ، وَالْمُبَادَرَةُ إِلَى أَمْرِهِ وَسُرْعَةُ الطَّاعَةِ لَهُ أَصْوَبُ ، اُضْرِبْ عَلَيَّ فَضَرَبْتُ عَلَيْهِ وَغَنَّى :

زَارَ مِنْ سَلْمَى خَيَالٌ مَوْهِنًا حَبَّذَا ذَاكَ الْخَيَالُ الطَّارِقُ
جَادَ فِي النَّوْمِ بِمَا ضَنَّتْ بِهِ رُبَّمَا يَغْنَى بِذَاكَ الْعَاشِقُ

فَقَالَ زِهْ ، أَجَدْتَ وَاللهِ يَا عَلِيُّ ، فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ : قَدْ فَرَّحْتُكَ يَا سَيِّدِي فَفَرِّحْنِي ، فَدَعَاهُ وَحَبَاهُ [1] بِمَشْمَّةِ عَنْبَرٍ كَانَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي صِينِيَّةِ ذَهَبٍ عَلَيْهَا مِكَبَّةٌ مِنْهَا ، وَأَمَرَ لَهُ بِأَلْفِ دِينَارٍ وَتُخُوتِ ثِيَابٍ . فَقَالَ لِي : يَا أَبَا شَرِيكٍ ، أُنَاصِفُكَ ؟

(١) كانت هذه الكلمة فى الأصل : « وحياه »

فقلتُ : لا والله ، لا قبلتُ من ذلك لا الكلَّ ولا النصفَ ، فبارك الله لك[١] فيه .

قال جحظة : حدثني علي بن يحيى المنجم قال : قلتُ مرةً ـ وقد أخذ مني النبيذ بين يدي الواثق ـ لمن كان يسقيني : ويلك ، أجهزت والله عليَّ ، سقيتني الكأس حيّةً فألّا قتلتها[٢] . فسمع الواثق فقال : لم يعدُ بك قول حسان :

إنّ التي ناولتني فرددتها قُتِلت قُتِلتَ فهاتها لم تُقتَلِ

ألا تراه أنكر عليه مزجها ؟ قلتُ : حسان أعرابي لا يُحسن شرب الخمر ، وكان أيضاً يشربها تغنماً[٣] لبعد عهده بها ، ولكن أردتُ من ساقيّ أن يأخذ بقول أفتى الخلق وأملحهم أدباً وأعلمهم بأدب الشرب ، قال : ومن هو ؟ قلتُ : أبو نواس ، قال : حين يقول ماذا ؟ قلتُ : حين يقول :

لا تجعلِ الماء لها قاهراً ولا تسلّطها على مائها

فقيل لي لما حضرتُ من الغد : إن الواثق قال : لله درّه ، ما أسرع جوابه وأحسن انتزاعه ، لكنه أخرج عربدته

---

(١) لم تكن كلمة « لك » في الأصل ، على أن الكلام يتم بدونها على طريق الايجاز

(٢) يريد فهلا مزجتها بالماء (٣) التغنم : عد الشيء غنيمة ، وكأنه يريد : يشربها منتهزا الفرصة لا أنها عادة له .

كأنها على حسَّانَ بنِ ثابتٍ، فلمَّا حضرْتُ بيْنَ يديْهِ قالَ لي: هِيه(١) ياعليُّ سكِرْتَ أمسِ؟ فقلْتُ ياسيِّدِي منْ شرِبَ سكِرَ، ومَنْ كانَ أمْرُهُ إلى نفسِهِ في نبيذِهِ رَفِقَ، ومَنْ كانَ أمْرُهُ إلى غيْرِهِ خرِقَ(٢). قالَ: فعرَبْدتَ على حسَّانَ وَثلبْتَهُ ومايستحِقُّ ذلِكَ، وإنّهُ لطَبٌّ بشُرْبِ الكأْسِ مدَّاحٌ لِشارِبِيها، أليْسَ هُوَ الّذِي يَصِفُ رَبيعةَ بْنَ مُكرَّمٍ؟ فبلَغَ مِنْ ذلِكَ أحْسَنَ ما يكُونُ الفتَى عليْهِ بقوْلِهِ:

نفَرَتْ قلُوصِي مِنْ حِجارَةِ حرَّةٍ
بُنِيتْ على طلْقِ اليدَيْنِ وَهُوبُ

لا تنفِرِي ياناقُ منْهُ فإنَّهُ شرِّيبُ خمْرٍ مِسْعَرٌ لِحُرُوبِ

وَهُوَ أيْضاً مِنَ المعْدُودِينَ في وُصَّافِ الخمْرِ وَشُرَّابِها، أليْسَ هُوَ القائِلَ؟:

إذا ما الأشْرِباتُ ذُكِرْنَ يوْماً
فهُنَّ لِطَيِّبِ الرَّاحِ الفِداءُ

نُولِّيها الملامةَ إذْ ألَمْنا(٣) إذا ما كانَ مغْثٌ أوْ لِحاءُ

(١) هيه: كلمة استزادة (٢) الخرق: الحمق والجهل (٣) ألام الرجل: أتى ما يلام عليه، والمغث: الشر والقتال، واللحاء: اللوم

وَنَشرَبُهَا فَتَترُكُنَا مُلوكاً وَأُسْداً مَا يُنَهْنِهُنَا (١) اللِّقاءُ

وَيلَكَ، أَليسَ هُوَ الّذِي يَقُولُ؟:

وَمُمْسِكٍ بِصُدَاعِ الرَّأسِ مِنْ سُكرٍ
نَادَيْتُهُ وَهُوَ مَغْلُوبٌ فَفَدَّانِي
لمَّا صَحَا وَتَرَاخَى العَيْشُ قُلتُ لَهُ:
إِنَّ الحَيَاةَ وَإِنَّ المَوتَ سِيَّانِ
فَاشْرَبْ مِنَ الخَمرِ مَا وَاتاكَ مَشْرَبُهُ
وَاعْلَمْ بِأَنْ كُلُّ عَيْشٍ صَالِحٍ فَانِ

فَقُلْتُ لَهُ: لَوْ حَضَرَكَ وَاللهِ يَاسَيِّدِي لَأَقَرَّ أَنَّكَ أَحفَظُ لِعُيُونِ شِعْرِهِ مِنهُ، فَالوَيلُ لِجَلِيسِكَ، بِمَاذَا يَنفُقُ عِندَكَ وَرِوَايَتُكَ هَذِهِ الرِّوَايَةُ. فَقَالَ: وَيحَكَ يَا عَلِيُّ، إِنَّمَا الوَيلُ لِجَلِيسِي إِذَا جَالَسَ مَنْ لَا يَعرِفُ قَدْرَ مَا يُحْسِنُ.

قَالَ أَحمَدُ بْنُ أَبِي طَاهِرٍ: اجتَمَعْنَا عِندَ أَبِي الحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ يَحْـيَى أَنَا وَأَبُو هِفَّانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَحمَدَ العَبْدِيُّ وَأَبُو يُوسُفَ يَعْقُوبُ بْنُ يَزِيدَ التَّمَّارُ عَلَى نَبِيذٍ فَقَالَ أَبُو هِفَّانَ:

(١) أي يزجرنا

وَقَائِلٍ إِذْ رَأَى عَزْبِي (١) عَنِ الطَّلَبِ :

أَنِهْتَ أَمْ نِلْتَ مَا تَرْجُو مِنَ النَّشَبِ ؟؟ (٢)

قُلْتُ : ابْنُ يَحْيَى عَلِيٌّ قَدْ تَكَفَّلَ لِي

وَصَانَ عِرْضِي كَصَوْنِ الدِّينِ لِلْحَسَبِ

فَقَالَ التَّمَّارُ :

يُذْكِي (٣) لِزُوَّارِهِ نَاراً مُنَوَّرَةً

عَلَى يَفَاعٍ (٤) وَلَا يُذْكِي عَلَى صَبَبِ (٥)

مِنْ فَارِسَ الْخَيْرِ فِي أَبْيَاتِ مَمْلَكَةٍ

وَفِي الذَّوَائِبِ مِنْ جُرْثُومَةِ (٦) الْحَسَبِ

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي طَاهِرٍ : فَقُلْتُ :

لَهُ فَلَائِقُ (٧) لَمْ تُطْبَعْ عَلَى طَبَعٍ

وَنَائِلٌ (٨) وَصَلَتْ أَسْبَابُهُ سَبَبِي

كَالْغَيْثِ يُعْطِيكَ بَعْدَ الرِّيِّ وَابِلَهُ

وَلَيْسَ يُعْطِيكَ مَا يُعْطِيكَ عَنْ طَلَبِ

---

(١) عزبى : بعدى (٢) النشب : المال والعقار (٣) يذكى : يوقد
(٤) اليفاع : التلال المشرفة ، أو كل ما ارتفع من الأرض
(٥) الصبب : ما انحدر من الأرض (٦) ذوائب الشيء : أعاليه ، والجرثومة : الأصل (٧) أى أمور عجيبة ، ورأيى أنها خلائق جمع خليقة يريد : أخلاقا بريئة من الدنس (٨) النائل : العطية والمعروف « عبد الخالق »

قَالَ: فوَصَلَهُمْ وَخلعَ عَلَيْهِمْ وَحَمَلَهُمْ. قَالَ عُبَيْدُ اللهِ: حَدَّثَنِي أَبُو أَحْمَدَ يَحْيَي بْنُ عَلِيِّ بْنِ يَحْيَي قَالَ: اتَّصلَ أَبِي بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَكِّلِ عَلَى اللهِ فَغَلَبَ عَلَيْهِ وَعَلَى الْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ بِخِدْمَتِهِ وَأَدَبِهِ وَافْتِنَانِهِ وَتَصَرُّفِهِ فِي كُلِّ مَا تَشْتَهِيهِ الْمُلُوكُ، وَكَانَ الْفَتْحُ ابْنُ خَاقَانَ هُوَ الَّذِي وَصَفَهُ لِلْمُتَوَكِّلِ، وَكَانَ بَعْدَ مَوْتِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُصْعَبٍ، لِأَنَّ أَبِي كَانَ مُتَّصِلًا بِهِ وَشَدِيدَ الِاخْتِصَاصِ بِخِدْمَتِهِ، حَتَّى لَقَدْ مَاتَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَيَدُهُ فِي يَدِهِ، فَلَمَّا مَاتَ دَخَلَ عَلَى الْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ فَأَنْشَدَهُ يَمْدَحُهُ بِقَصِيدَةٍ أَوَّلُهَا:

سَأَخْتَارُ مِنْ حُرِّ الْكَلَامِ قَصِيدَةً
لِفَتْحِ بْنِ خَاقَانٍ تَفُوقُ الْقَصَائِدَا
يَلَذُّ بِأَفْوَاهِ الرُّوَاةِ نَشِيدُهَا
وَيَشْنَا(١) بِهَا مَنْ كَانَ لِلْفَتْحِ حَاسِدَا
لَعَمْرُكَ إِنَّ الْفَتْحَ مُذْ كَانَ يَافِعًا(٢)
لَيَسْمُو إِلَى أَعْلَى ذُرَى الْمَجْدِ صَاعِدَا

(١) يشنا: من شنأ الرجل: أبغضه من عداوة وسوء خلق
(٢) يافع: أي غلام مناهز للبلوغ

قَرِيعُ(١) الْمَوَالِي سَادَ فِي خَمْسَ عَشْرَةً
مَوَالِي بَنِي الْعَبَّاسِ لَمْ يُبْقِ وَاحِدَا
وَبَذَّهُمُ(٢) طُرًّا نَدًى وَشَجَاعَةً
فَأَلْقَوْا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ(٣) الْمَقَالِدَا

قَالَ: فَلَمْ أَرَ الْفَتْحَ اهْتَزَّ لِشَيْءٍ مِنَ الشِّعْرِ اهْتِزَازَهُ لِهَذِهِ الْقَصِيدَةِ، وَلَا سُرَّ بِأَحَدٍ قَدِمَ عَلَيْهِ سُرُورَهُ بِعَلِيِّ بْنِ يَحْيَى، ثُمَّ قَامَ الْفَتْحُ مِنْ فَوْرِهِ فَدَخَلَ عَلَى الْمُتَوَكِّلِ فَعَرَّفَهُ مَكَانَهُ فَأَذِنَ لَهُ وَاسْتَجْلَسَهُ، وَأَمَرَ أَنْ يُخْلَعَ عَلَيْهِ تُخَلَعَ عَلَيْهِ خِلَعُ الْمُجَالَسَةِ، فَكَانَ آنَسَ خَلْقِ اللهِ بِهِ وَأَغْلَبَهُمْ عَلَيْهِ وَعَلَى الْفَتْحِ، وَتَقَدَّمَ الْجُلَسَاءَ جَمِيعًا عِنْدَهُ وَوَثِقَ بِهِ حَتَّى عَزَمَ عَلَى إِدْخَالِهِ مَعَهُ إِلَى الْحُرَمِ إِذَا جَلَسَ مَعَهُنَّ. وَذَاكَ أَنَّهُ شَكَا إِلَى الْفَتْحِ أَنَّهُ إِذَا قَعَدَ مَعَ الْحُرَمِ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَنْ يَسْتَرِيحُ إِلَيْهِ وَيَأْنَسُ بِهِ وَقَالَ: قَدْ عَزَمْتُ أَنْ أُدْخِلَ عَلِيَّ بْنَ يَحْيَى فَأَسْتَرِيحَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ الْفَتْحُ: مَا يَصْلُحُ لِذَلِكَ غَيْرُهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ عَلِيَّ بْنَ يَحْيَى فَقَالَ لِلْفَتْحِ: أَنَا قَدَّرْتُ أَنْ أَتَخَلَّصَ مِنْ هَذَا بِكَ، فَوَكَّدْتَ عَلَى الْأَمْرَ فِيهِ لَسْتُ أَفْعَلُ. فَقَالَ لَهُ الْفَتْحُ: إِنَّ هَذَا

(١) القريع: السيد الرئيس المختار من أهل عصره (٢) بذهم طراً: فاقهم وبذهم جميعاً (٣) مذعنين: مطيعين خاضعين

الَّذِي نَدَبَكَ إِلَيْهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَنْزِلَةٌ لَيْسَ فَوْقَهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْخُصُوصِ، فَقَالَ: قَدْ عَلِمْتُ ذَلِكَ وَشَكَرْتُ تَفَضُّلَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيَّ فِيهِ، وَلَكِنْ فِي الْأَمْرِ شَيْءٌ يَسْمَعُهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَتَسْمَعُهُ، ثُمَّ يَتَفَضَّلُ بِالْإِعْفَاءِ مِنْهُ. قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: قَدْ عَلِمْتَ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَشَدُّ النَّاسِ غَيْرَةً، وَأَنَّ النَّبِيذَ رُبَّمَا أَسْرَعَ إِلَيَّ، وَلَسْتُ آمَنُ بَعْضَ هَذِهِ الْأَحْوَالِ، وَأَنْ يَنْسَى عِنْدَ غَلَبَةِ النَّبِيذِ مَا كَانَ مِنْهُ فَيَقُولَ: مَا يَصْنَعُ هَذَا مَعِي عِنْدَ حُرَمِي؟ فَيُعَجِّلَ عَلَى بِشَيْءٍ لَا يُسْتَدْرَكُ، وَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ هَذَا عَمَلٌ[1]، قَالَ: فَقَالَ الْمُتَوَكِّلُ: تَخَلَّصْتَ يَا عَلِيُّ مِنِّي بِأَلْطَفِ حِيلَةٍ، وَأَعْفَاهُ. قَالَ يَحْيَى: وَحَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَكِّلُ يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ: يَا عَلِيُّ، لَكَ عِنْدِي ذَنْبٌ - قَالَ هَذَا وَنَحْنُ بِدِمَشْقَ - قَالَ: فَأَكْبَرْتُ ذَلِكَ وَقُمْتُ قَائِمًا بَيْنَ يَدَيْهِ وَقُلْتُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سُخْطِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، مَا الذَّنْبُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَلَعَلَّهُ كَذِبُ كَاشِحٍ أَوْ بَغْيُ حَاسِدٍ، فَقَالَ: لَا خَيْرَ فِيمَنْ أَثِقُ بِهِ. قَالَ فَقُلْتُ: يَتَفَضَّلُ عَلَيَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِتَعْرِيفِي الذَّنْبَ، فَإِنْ كَانَ لِي عُذْرٌ اعْتَذَرْتُ، وَإِلَّا اعْتَرَفْتُ وَعُذْتُ بِعَفْوِ

---

(١) أي وقت أعمل فيه للخلاص

أَميرِ المُؤْمنِينَ. فَقَالَ: أَتحتَاجُ إلى شَىْءٍ وَتَسأَلَ غَيْرِى؟ فَقُلْتُ: وَمَا ذَاكَ يَا أَميرَ المُؤْمنِينَ؟ قَالَ: أَخبَرَنِي بَخْتَيشُوعُ (١) أَنَّكَ وَجَهْتَ إِلَيْهِ وَاسْتَقْرَضْتَ مِنهُ عِشْرِينَ أَلفَ دِرْهَمٍ، فَلِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ؟ وَمَا ذَلِكَ، وَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَسأَلَنِي فَأَصِلَكَ؟ أَتَأْنَفُ مِنْ مَسْأَلَتِي؟ فَقُلْتُ: يَا أَميرَ المُؤْمنِينَ، مَا مَنَعَنِي ذَلِكَ، وَإِنَّ صِلَاتِ أَميرِ المُؤْمنِينَ مُتَتَابِعَةٌ عِنْدِى مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ، وَلَكِنَّ بَخْتَيشُوعَ مِمَّنْ آنَسُ بِهِ، فَاسْتَعَرْتُ مِنْهُ هَذِهِ الدَّرَاهِمَ عَلَى ثِقَةٍ مِنِّى بِأَنَّ تَفَضُّلَ أَميرِ المُؤْمنِينَ غَيْرُ مُتَأَخِّرٍ عَنِّى فَأَرُدُّهَا مِنْ مَالِهِ، قَالَ: فَقَالَ لِى: قَدْ عَفَوْتُ لَكَ عَنْ هَذِهِ المَرَّةِ فَلَا تَعُدْ إِلَى مِثْلِهَا، وَإِنِ احْتَجْتَ فَلَا تَسأَلْ غَيْرِى أَوْ تَبْذُلْ وَجْهَكَ لَهُ، ثُمَّ خَدَمَ عَلِيُّ بْنُ يَحْيَى المُنْتَصِرَ بْنَ المُتَوَكِّلِ فَغَلَبَ عَلَيْهِ أَيْضاً، وَقَدَّمَهُ المُنْتَصِرُ عَلَى جَمَاعَةِ جُلَسَائِهِ وَقَلَّدَهُ أَعْمَالَ الحَضْرَةِ كُلَّهَا «العِمَارَاتِ وَالمُسْتَغَلَّاتِ وَالمَرَمَّاتِ وَالحَظَائِرِ وَكُلَّ مَا عَلَى شَاطِىءِ دِجْلَةَ إِلَى البَطِيحَةِ مِنَ القُرَى» ثُمَّ

(١) بختيشوع بن جورجس هو طبيب يونانى الاصل، اتصل بهارون الرشيد وخدمه وكانت له منزلة عنده. وكان أبوه جورجس طبيب أبى جعفر المنصور وابنه يدعى جبرائيل بن بختيشوع كان من أمهر الأطباء، اتخذه جعفر بن يحيى البرمكى طبيبه الخاص، وحظى عند الخلفاء ونال منهم أموالا لم ينلها أحد غيره منهم. «عبد الخالق»

خَدَمَ المُسْتَعِينَ بِاللهِ فَقَدَّمَهُ وَأَحَبَّهُ وَأَحَلَّهُ مَحَلَّهُ مِنَ الْخُلَفَاءِ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَهُ ، وَأَقَرَّهُ المُسْتَعِينُ عَلَى مَا تَقَلَّدَهُ مِنْ أَعْمَالِ الْحَضْرَةِ ، ثُمَّ حَدَثَتِ الْفِتْنَةُ وَانْحَدَرَ مَعَ المُسْتَعِينِ إِلَى مَدِينَةِ السَّلَامِ فَلَمْ يَزَلْ مَعَهُ إِلَى أَنْ خُلِعَ المُسْتَعِينُ ، فَأَقَامَ عَلِيُّ بْنُ يَحْيَى يَغْدُو وَيَرُوحُ إِلَيْهِ بَعْدَ الْخَلْعِ إِلَى أَنْ حَلَّهُ مِنَ الْبَيْعَةِ الَّتِي كَانَتْ فِي عُنُقِهِ ، وَلَمْ يَكُنِ المُسْتَعِينُ قَبْلَ الْخَلْعِ بِسَنَةٍ يَأْكُلُ إِلَّا مَا يُحْمَلُ إِلَيْهِ مِنْ مَنْزِلِ عَلِيِّ بْنِ يَحْيَى فِي الْجَوْنِ إِلَى دَارِ أَبِي الْعَبَّاسِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ طَاهِرٍ فَيُفْطِرُ عَلَيْهِ ، وَكَانَ يَصُومُ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ .

قَالَ يَحْيَى بْنُ عَلِيٍّ : قَالَ لِي أَبِي : صِرْتُ إِلَى المُسْتَعِينِ لَمَّا صِيرَ بِهِ إِلَى قَصْرِ الرُّصَافَةِ فَوَجَدْتُ عِنْدَهُ : قُرْبَ دَايَةَ الْمُعْتَزِّ وَعِيسَى بْنَ فَرْخَانْشَاهْ وَهُمْ يَسْأَلُونَهُ عَنْ جَوْهَرِ الْخِلَافَةِ ، فَقَالَتْ لِي قُرْبُ : يَا أَبَا الْحَسَنِ « بَسْ » مَا كَانَ لَنَا مِنْكَ نَصِيبٌ ؟ يَاهَذَا ، كَاتَبَنَا النَّاسُ كُلُّهُمْ غَيْرَكَ . قَالَ قُلْتُ : أَمَا إِنَّ ذَاكَ لَيْسَ لِتَقْصِيرٍ فِيمَا يَجِبُ عَلَيَّ مِنْ حَقِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَكِّلِ رَحِمَهُ اللهُ وَمِنْ حَقِّ وَلَدِهِ ، وَلَكِنْ كَانَ فِي عُنُقِي طَوْقٌ يَحْظُرُ عَلَيَّ ذَلِكَ ، قَالَ : قَالَتْ - بَارَكَ اللهُ فِيكَ - . قَالَ : ثُمَّ خَلَصَ الْأَمْرُ

لِلمُعْتَزّ ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ طَلَبَهُ لِلمُنَادَمَةِ عَلِيُّ بْنُ يَحْيَى فَشَخَصَ إِلَى سُرَّ مَنْ رَأَى ، فتلقاهُ أَميرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُعْتَزُّ حِينَ قَدِمَ عَلَيْهِ أَجْمَلَ لِقاءٍ وَخَلَعَ عَلَيْهِ وَوَصَلَهُ، وَقَلَّدَهُ الْأَسْوَاقَ وَالْعِمَارَاتِ وَمَا كَانَ يَتَقَلَّدُهُ قَبْلَ خِلَافَتِهِ ، وَخُصَّ بِهِ وَغَلَبَ عَلَيْهِ حَتَّى تَقَدَّمَ عِنْدَهُ عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ . قَالَ : فَأَخْبَرَنِي أَبِي أَنَّهُ حَسَبَ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنَ الْمُعْتَزِّ مِنْ صِلَتِهِ وَرِزْقِهِ مُنْذُ خَدَمَهُ إِلَى أَنْ تَصَرَّمَتْ أَيَّامُهُ ، فَكَانَ مَبْلَغُهُ ثَلَاثَةً وَثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ . وَقَلَّدَهُ الْمُعْتَزُّ الْقَصْرَ الْكَامِلَ فَبَنَاهُ وَوَصَلَهُ عِنْدَ فَرَاغِهِ مِنْهُ بِخَمْسَةِ آلَافِ دِينَارٍ وَأَقْطَعَهُ ضَيْعَةً . وَفِي الْمُعْتَزِّ يَقُولُ عَلِيُّ بْنُ يَحْيَى :

بَدَا لَابِسًا بُرْدَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ... بِأَحْسَنَ مِمَّا أَقْبَلَ الْبَدْرُ طَالِعَا

سَمِيُّ النَّبِيِّ وَابْنُ وَارِثِهِ الَّذِي ... بِهِ اسْتَشْفَعُوا أَكْرِمْ بِذَلِكَ شَافِعَا !

فَلَمَّا عَلَا الْأَعْوَادَ قَامَ بِخُطْبَةٍ ... تَزِيدُ هُدَى مَنْ كَانَ لِلْحَقِّ تَابِعَا

وَكُلُّ عَزِيزٍ خَشْيَةً مِنْهُ خَاشِعٌ (1) ... وَأَنْتَ تَرَاهُ خَشْيَةَ اللهِ خَاشِعَا

(1) فى الأصل « خاشعاً »

فَأَمَّا الْمُهْتَدِي فَإِنَّهُ حَقَدَ عَلَيْهِ أَشْيَاءَ كَانَتْ تَجْرِي بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فِي مَجَالِسِ الْخُلَفَاءِ، فَانْحَرَفَ عَنْهُ الْمُهْتَدِي لِمَيْلِهِ إِلَى الْمُتَوَكِّلِ، فَكَانَ الْمُهْتَدِي يَقُولُ: لَسْتُ أَدْرِي كَيْفَ يَسْلَمُ مِنِّي عَلِيُّ بْنُ يَحْيَى؟ إِنِّي لَأَهُمُّ بِهِ فَكَأَنِّي أُصْرَفُ عَنْهُ، وَوَهَبَ اللهُ لَهُ السَّلَامَةَ مِنَ الْمُهْتَدِي إِلَى أَنْ مَضَى لِسَبِيلِهِ، وَكَانَتْ أَيَّامُهُ قَصِيرَةً، ثُمَّ أَفْضَى الْأَمْرُ إِلَى الْمُعْتَمِدِ عَلَى اللهِ فَحَلَّ مِنْهُ مَحَلَّهُ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الْخُلَفَاءِ وَقَدَّمَهُ عَلَى النَّاسِ جَمِيعاً، وَوَصَلَهُ وَقَلَّدَهُ مَا كَانَ يَتَقَلَّدُ مِنْ أَعْمَالِ الْحَضْرَةِ، وَقَلَّدَهُ بِنَاءَ الْمَعْشُوقِ فَبَنَى لَهُ أَكْثَرَهُ، وَكَانَ الْمُوَفَّقُ مِنْ مَحَبَّتِهِ وَتَقْدِيمِهِ وَجَمِيلِ الذِّكْرِ لَهُ فِي مَجْلِسِهِ إِذَا ذُكِرَ عَلِيٌّ[1] أَفْضَلَ مَا يَكُونُ وَلِيُّ نِعْمَةٍ، وَكَانَ يَذْكُرُهُ كَثِيراً فِي مَجَالِسِهِ، وَيَصِفُ أَيَّامَهُ مَعَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَكِّلِ وَأَحَادِيثَهُ وَيَحْكِيهَا لِجُلَسَائِهِ وَيُعَجِّبُهُمْ مِنْ ذَكَائِهِ وَمَعْرِفَتِهِ وَفَضْلِهِ. وَتُوُفِّيَ فِي آخِرِ أَيَّامِ الْمُعْتَمِدِ سَنَةَ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ وَدُفِنَ بِسَامَرَّا، وَشِعْرُهُ كَثِيرٌ وَمَشْهُورٌ، رَأَيْتُ الْعُلَمَاءَ الْقُدَمَاءَ يُكْثِرُونَ الْعَجَبَ

---

(١) خبر كان

بِهِ وَلَيْسَ عِنْدِي كَذَلِكَ، فَلِذَلِكَ أَقْلَلْتُ مِنَ الْإِتْيَانِ بِهِ إِلَّا مَا كَانَ فِي ضِمْنِ خَبَرٍ.

وَلَهُ مِنَ الْوَلَدِ الذُّكُورِ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ وَكُنْيَتُهُ أَبُو عِيسَى، وَأَبُو الْقَاسِمِ عَبْدُ اللهِ، وَأَبُو أَحْمَدَ يَحْيَى، وَأَبُو عَبْدِ اللهِ هَارُونُ.

﴿ ٣٤ — عَلِيُّ بْنُ يُوسُفَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ الْوَاحِدِ * ﴾

على بن يوسف القفطى

ابْنِ مُوسَى بْنِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ رَبِيعَةَ ابْنِ الْحَارِثِ بْنِ قُرَيْشِ بْنِ أَبِي أَوْفَى بْنِ أَبِي عَمْرِو بْنِ عَادِيَةَ بْنِ حَيَّانَ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ تَيْمِ بْنِ شَيْبَانَ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ عُكَابَةَ بْنِ صَعْبِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ، أَبُو الْحَسَنِ الْقِفْطِيُّ يُعْرَفُ بِالْقَاضِي الْأَكْرَمِ، أَحَدُ الْكُتَّابِ الْمَشْهُورِينَ الْمُبَرِّزِينَ فِي النَّظْمِ وَالنَّثْرِ، وَكَانَ أَبُوهُ الْقَاضِي الْأَشْرَفُ كَاتِباً أَيْضاً وَمُنْشِئاً، وَكَانَتْ أُمُّهُ امْرَأَةً مِنْ بَادِيَةِ الْعَرَبِ مِنْ قُضَاعَةَ، وَأُمُّهَا جَارِيَةٌ حَبَشِيَّةٌ كَانَتْ لِأُخْتِ أَبِي عَزِيزٍ قَتَادَةَ الْحَسَنِيِّ أَمِيرِ مَكَّةَ، تَزَوَّجَهَا أَحَدُ بَنِي عَمِّهَا الْعَلَوِيِّينَ وَجَاءَتْ مِنْهُ بِأَوْلَادٍ، ثُمَّ مَاتَ عَنْهَا فَتَزَوَّجَهَا رَجُلٌ مِنْ بَلِيٍّ فَجَاءَتْ مِنْهُ بِبَنِينَ وَبَنَاتٍ مِنْهُمْ أُمُّ الْقَاضِي الْأَكْرَمِ — أَدَامَ اللهُ عُلُوَّهُ —، وَكَانَ

(*) راجع بغية الوعاة

وَالِدُهُ الأَشْرَفُ خَرَجَ يَشْتَرِي فَرَساً مِنْ تِلْكَ الْبَوَادِي ، وَقَدْ قَارَبُوا أَرْضَ مِصْرَ لِلنُّجْعَةِ فَرَآهَا فَوَقَعَتْ مِنْهُ بِمَوْقِعٍ فَتَزَوَّجَهَا وَنَقَلَهَا إِلَى أَهْلِهِ ، وَكَانَتْ رُبَّمَا خَرَجَتْ فِي الْأَحْيَانِ إِلَى الْبَادِيَةِ اسْتِرْوَاحاً عَلَى مَا أَلِفَتْهُ وَنَشَأَتْ عَلَيْهِ ، وَيَخْرُجُ ابْنُهَا مَعَهَا مُدَّةً (١) ، قَالَ : وَكَانَتِ امْرَأَةً صَالِحَةً مُصَلِّيَةً حَسَنَةَ الْعِبَادَةِ فَصِيحَةَ اللَّهْجَةِ ، وَكَانَتْ إِذَا أَرَدْتُ سَفَراً اشْتَغَلَتْ بِمَا يُصْلِحُ أُمُورِي فِي السَّفَرِ وَهِيَ تَبْكِي وَتَقُولُ :

أُجَهِّزُ زَيْداً لِلرَّحِيلِ وَإِنَّنِي
بِتَجْهِيزِ زَيْدٍ لِلرَّحِيلِ ضَنِينُ

وَحَدَّثَنِي — أَطَالَ اللهُ بَقَاءَهُ — قَالَ : كُنْتُ وَأَنَا صَبِيٌّ قَدْ قَدِمْتُ مِنْ مِصْرَ وَاسْتَصْحَبْتُ سِنَّوْراً أَصْبَهَانِيًّا عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ الصَّبْوَةُ ، وَاتَّفَقَ أَنْ وَلَدَتْ عِدَّةً مِنَ الْأَوْلَادِ فِي دَارِنَا ، فَنَزَلَ سِنَّوْرٌ ذَكَرٌ فَأَكَلَ بَعْضَ تِلْكَ الْجِرَاءِ فَغَمَّنِي ذَلِكَ ، وَأَقْسَمْتُ أَنْ لَا بُدَّ لِي مِنْ قَتْلِ الَّذِي أَكَلَهَا ، فَصَنَعْتُ شَرَكاً وَنَصَبْتُهُ فِي عُلِّيَّةٍ فِي دَارِنَا وَجَلَسْتُ ، فَإِذَا بِالسِّنَّوْرِ قَدْ وَقَعَ فِي

---

(١) وتوفي علي بن يوسف القفطي صاحب الترجمة في شهر رمضان سنة ست وأربعين وستمائة بحلب ، ودفن بظاهر حلب مقام إبراهيم عليه السلام

الْحِبَالَةِ[١] ، فَصَعِدْتُ إِلَيْهِ وَبِيَدِي عُكَّازٌ وَفِي عَزْمِي هَلَاكُهُ ، وَكَانَ لَنَا جِيرَةٌ وَقَدْ خَرِبَ الْحَائِطُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ وَنَصَبُوا فِيهِ بَارِيَةً[٢] إِلَى أَنْ يَحْضُرَ الصُّنَّاعُ ، وَكَانَ لِرَبِّ تِلْكَ الدَّارِ بِنْتَانِ لَمْ يَكُنْ فِيمَا أَظُنُّ أَحْسَنَ مِنْهُمَا صُورَةً وَجَمَالًا وَشَكْلًا[٣] وَدَلَالًا ، وَكَانَتَا مَعْرُوفَتَيْنِ بِذَلِكَ فِي بَلَدِنَا وَكَانَتَا بِكْرَيْنِ ، فَلَمَّا هَمَمْتُ بِقَتْلِهِ إِذَا قَدِ انْكَشَفَ جَانِبُ الْبَارِيَةِ فَوَقَعَتْ عَيْنِي عَلَى مَا يَبْهَرُ الْمَشَايِخَ ، فَكَيْفَ الشُّبَّانُ؟ حُسْنًا وَجَمَالًا ، وَإِذَا هُمَا تُومِئَانِ إِلَيَّ بِالْأَصَابِعِ تَسْأَلَانِي إِطْلَاقَهُ ، قَالَ : فَأَطْلَقْتُهُ وَنَزَلْتُ وَفِي قَلْبِي مَا فِيهِ لِكَوْنِي كُنْتُ أَوَّلَ بُلُوغِي وَالْوَالِدَةُ جَالِسَةٌ فِي الدَّارِ لِمَرَضٍ كَانَ بِهَا . فَقَالَتْ لِي : مَا أَرَاكَ قَتَلْتَهُ كَمَا كَانَ عَزْمُكَ . فَقُلْتُ لَهَا : لَيْسَ هُوَ الْمَطْلُوبَ ، إِنَّمَا هُوَ سِنَّوْرٌ غَيْرُهُ . فَقَالَتْ : مَا أَظُنُّ الْأَمْرَ عَلَى ذَلِكَ ، وَلَكِنْ هَلْ أُومِئَ إِلَيْكَ بِالْأَصَابِعِ حَتَّى تَرَكْتَهُ؟ فَقُلْتُ: مَنْ يُومِئُ إِلَيَّ ؟ وَلَا أَعْرِفُ مَعْنَى كَلَامِكِ . فَقَالَتْ عَلَى ذَلِكَ : يَا بُنَيَّ اسْمَعْ مِنِّي مَا أَقُولُ لَكَ :

---

(١) الحبالة : المصيدة (٢) البارية : الحصير ، فكأنهم جعلوا سترا من البارى
(٣) الشكل والدلال بمعنى

ثِنْتَانِ لَا أَرْضَى انْتِهَا كَهُمَا   عِرْسُ الْخَلِيلِ وَجَارَةُ الْجَنْبِ (١)

وَكَانَ مَعَ هَذَا الْبَيْتِ بَيْتٌ آخَرُ أُنْسِيتُهُ. قَالَ: فَوَاللهِ لَكَأَنَّ مَاءً وَقَعَ عَلَى نَارٍ فَأَطْفَأَهَا، فَمَا صَعِدْتُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى سَطْحٍ وَلَا غُرْفَةٍ إِلَى أَنْ فَارَقْتُ الْبِلَادَ، وَلَقَدْ جَاءَ الصَّيْفُ فَاحْتَمَلْتُ حَرَّهُ وَلَمْ أَصْعَدْ إِلَى سَطْحٍ فِي تِلْكَ الصَّيْفِيَّةِ، ثُمَّ وَجَدْتُ هَذَا الْبَيْتَ فِي أَبْيَاتِ الْأَحْوَصِ بْنِ مُحَمَّدٍ مِنْهَا:

قَالَتْ وَقُلْتُ تَحَرَّجِي وَصِلِي
حَبْلَ امْرِئٍ كَلِفٍ بِكُمْ صَبِّ
صَاحِبْ إِذَا بَعْلِي فَقُلْتُ لَهَا: الْغَدْرُ أَمْرٌ لَيْسَ مِنْ طِبِّي (٢)
ثِنْتَانِ لَا أَصْبُو لِوَصْلِهِمَا   عِرْسُ الْخَلِيلِ وَجَارَةُ الْجَنْبِ
أَمَّا الْخَلِيلُ فَلَسْتُ خَائِنَهُ   وَالْجَارُ أَوْصَانِي بِهِ رَبِّي
الشَّوْقُ أَقْتُلُهُ بِرُؤْيَتِكُمْ   قَتْلَ الظَّمَا بِالْبَارِدِ الْعَذْبِ

قَالَ لِي: وُلِدْتُ فِي أَحَدِ رَبِيعَيْ سَنَةِ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ وَخَمْسِمِائَةٍ

---

(١) قال صاحب العقد الفريد يفرق ما بين الأخلاق فى الأشخاص، فأورد لأبى نواس:

كان الشباب مطية الجهل   ومحسن الضحكات والهزل
والباعثى والناس قد رقدوا   حتى أتيت حليلة البعل

ثم أورد بيتين للأحوص هذا أحدها، وقد جاء المؤلف ببقية الأبيات فيما بعد

(٢) الطب بالكسر: الشأن والعادة   « عبد الخالق »

بمدينة قفط من الصعيد الأعلى إحدى[1] الجزائر الخالدات حيث الأرض الأربعة وعشرون في أول الإقليم الثاني، وبها قبر قبط بن مصر بن سام بن نوح.

ونشأ[2] بالقاهرة. اجتمعت بخدمته في حلب فوجدته جم الفضل، كثير النبل، عظيم القدر، سمح الكف، طلق الوجه حلو البشاشة، وكنت ألازم منزله ويحضر أهل الفضل وأرباب العلم، فما رأيت أحداً فاتحه في فن من فنون العلم كالنحو واللغة والفقه والحديث وعلم القرآن والأصول والمنطق والرياضة والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل وجميع فنون العلم على الإطلاق إلا قام به أحسن قيام، وانتظم في وسط عقدهم أحسن انتظام.

وله تصانيف أذكرها فيما بعد إن شاء الله تعالى. أنشدني لنفسه بحلب في جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة وستمائة:

ضدان عندي قصرا همتي | وجه حيي ولسان وقاح
إن رمت أمراً خانني ذو الحيا | ومقولي يطمعني في النجاح
فأنني في حيرة منهما | لي مخلب ماض وما من جناح

(١) في الأصل: « أحد » (٢) هذا ابتداء كلام للمؤلف

شِبْهُ جَبَانٍ فَرَّ مِنْ مَعْرَكٍ
خَوْفاً وَفِي يُمْنَاهُ عَضْبُ(١) الْكِفَاحْ

وَأَنْشَدَنِي — أَدَامَ اللهُ عُلُوَّهُ — فِي أَعْوَرَ لِنَفْسِهِ:

شَيْخٌ لَنَا يُعْزَى(٢) إِلَى مُنْذِرٍ مُسْتَقْبَحُ الْأَخْلَاقِ وَالْعَيْنْ
مِنْ عَجَبِ الدَّهْرِ، تَحَدَّثْ بِهِ بِفَرْدِ عَيْنٍ وَلِسَانَيْنْ

وَمِمَّا أَمْلَاهُ عَلَيَّ — أَدَامَ اللهُ عُلُوَّهُ — مِنْ مَنْثُورِ كَلَامِهِ مِنْ فَصْلٍ: وَأَمَّا سُؤَالُهُ عَنْ سَبَبِ التَّأَخُّرِ وَالتَّجَمُّعِ، وَالتَّوَقُّفِ عَنِ التَّطَاوُلِ فِي طَلَبِ الرِّيَاسَةِ وَالتَّوَسُّعِ، وَالتَّعَجُّبُ مِنَ الْتِزَامِي قَعْرَ الْبَيْتِ، وَارْتِضَائِي بَعْدَ السَّبْقِ بِأَنْ أَكُونَ السُّكَّيْتَ، فَلَا تَنْسُبْنِي فِي ذَلِكَ إِلَى تَقْصِيرٍ، وَكَيْفَ؟ وَلِسَانِي فِي اللُّسْنِ غَيْرُ أَلْكَنٍ(٣)، وَبَنَانِي فِي الْبَيَانِ غَيْرُ قَصِيرٍ، وَلَقَدْ أَعْدَدْتُ لِلرِّيَاسَةِ أَسْبَابَهَا، وَلَبِسْتُ لِكِفَاحِ أَهْلِهَا جِلْبَابَهَا، وَمَلَكْتُ مِنْ مَوَادِّهَا نِصَابَهَا(٤)، وَتَسَلَّمْتُ لِأَحْلَاسِهَا(٥)، وَضَارَبْتُ أَضْرَابَهَا، وَبَارَيْتُهُمْ(٦) فِي مَيْدَانِ الْفَضَائِلِ، فَكُنْتُ السَّابِقَ وَكَانُوا الْفُسْكُلَ(٧)، وَظَنَنْتُ أَنِّي قَدْ حَلَلْتُ مِنَ الدَّوْلَةِ

---

(١) العضب: السيف القاطع (٢) أي ينسب (٣) أي غير عيي ولا ثقيل لا يفصح (٤) أي حظا وفيرا منها (٥) أي ما يركب عليها (٦) باريتهم: سابقتهم (٧) أي المتأخرين

أَمْكَنَ [١] مَكَانِهَا، وَأَصْبَحْتُ إِنْسَانَ عَيْنِهَا وَعَيْنَ إِنْسَانِهَا، فَإِذَا الظُّنُونُ مُخْلَفَةٌ، وَشِفَارُ [٢] عُيُونِ الْأَعْدَاءِ مُرْهَفَةٌ [٣]، وَالْفِرْقَةُ الْمَظْنُونَةُ بِالْإِنْصَافِ غَيْرُ مُنْصِفَةٍ، وَصَارَ مَا اعْتَمَدْتُهُ مِنْ أَسْبَابِ التَّقْرِيبِ مُبْعِدًا، وَمَنِ اعْتَقَدْتُهُ لِي مُسَاعِدًا غَدَا عَلَيَّ مُسْعِدًا [٤]، وَمَنْ أَعْدَدْتُهُ لِمُرَادِي مَوْرِدًا أَصْبَحَ لِمَثَالِبِي مُورِدًا، وَجُسْتُ [٥] مَقَاصِدَ الْمَرَاشِدِ فَوَجَدْتُهَا بِهِمْ [٦] مُقْفَلَةً، وَمَتَى أَظْهَرْتُ فَضِيلَةً اعْتَمَدُوا فِيهَا تَعْطِيلَ الْمُشَبِّهَةِ وَشُبَهَ الْمُعَطِّلَةِ [٧]، وَإِذَا رَكِبْتُ أَشْهَبَ النَّهَارِ لِنَيْلِ مَرَامٍ رَكِبُوا أَدْهَمَ اللَّيْلِ لِنَقْضِ ذَلِكَ الْإِبْرَامِ، وَإِنْ سَمِعُوا مِنِّي قَوْلًا أَذَاعُوا، وَإِنْ لَمْ يَسْمَعُوا اخْتَلَقُوا مِنَ الْكَذِبِ مَا اسْتَطَاعُوا، وَقَدْ صِرْتُ كَالْمُقِيمِ وَسْطَ أَفَاعٍ لَا يَأْمَنُ لَسْعَهَا، وَكَالْمُجَاوِرِ لِنَارٍ يَتَّقِي شَرَّهَا وَيَسْتَكْفِي لَذْعَهَا. وَاللهُ الْمَسْئُولُ تَوْسِيعَ الْأُمُورِ إِذَا ضَاقَتْ مَسَالِكُهَا، وَهُوَ

---

(١) أى أثبت وأعلى منزلة فيها (٢) الشفار: منابت شعر الجفون

(٣) أى شاخصة (٤) مسعدا: معينا (٥) أى التمست (٦) أى بسببهم

(٧) يريد أنه عند ما تظهر فضيلة يتعمدون ويقولون فيها ما ينفيها، ويوجدون فيها الشبه كما تفعل المشبهة «طائفة تلبس أمر الله وصفاته على الناس» ويقصدون إليه كما يقصد المعطلة «الذين يقولون بتعطيل بعض الصفات» فيعطلون فضيلته «عبد الخالق»

المَرْجُوُّ لإِصْلاحِ قُلُوبِ الْمُلُوكِ عَلَى مَمَالِيكِهِمْ ، إِذْ هُوَ رَبُّ الْمَمْلَكَةِ وَمَالِكُهَا . وَهَأَنَا جَاثِمٌ جُثُومَ اللَّيْثِ فِي عَرِينِهِ ، وَكَامِنٌ كُمُونَ الْكَمِيِّ(١) فِي كَمِينِهِ ، وَأَعْظَمُ مَا كَانَتِ النَّارُ لَهَبًا إِذَا قَلَّ دُخَانُهَا ، وَأَشَدُّ مَا كَانَتِ السُّفُنُ جَرْيًا إِذَا سَكَنَ سُكَّانُهَا ، وَالْجِيَادُ تُرَاضُ لِيَوْمِ السِّبَاقِ ، وَالسِّهَامُ تُكَنُّ فِي كَنَائِنِهَا(٢) لإِصَابَةِ الأَحْدَاقِ ، وَالسُّيُوفُ لَا تُنْتَضَى(٣) مِنَ الأَغْمَادِ إِلَّا سَاعَةَ الْجِلَادِ(٤) ، وَاللَّآلِئُ لَا تَظْهَرُ مِنَ الأَسْفَاطِ(٥) إِلَّا لِلتَّعْلِيقِ عَلَى الأَجْيَادِ . وَبَيْنَمَا أَنَا كَالنَّهَارِ الْمَاتِعِ(٦) طَابَ بَرْدَاهُ ، إِذْ تَرَانِي كَالسَّيْفِ الْقَاطِعِ خَشُنَ حَدَّاهُ ، وَلِكُلٍّ أَقْوَامٍ أَقْوَالٌ ، وَلِكُلِّ مَجَالٍ أَبْطَالُ نِزَالٍ ، وَسَيَكُونُ نَظَرِي ـ بِمَشِيئَةِ اللهِ ـ الدَّائِمَ وَنَظَرُهُمْ لَمْحَةً ، وَرِيحِي فِي هَذِهِ الدَّوْلَةِ الْمَنْصُورَةِ عَادِيَةً(٧) ، وَرِيحُهُمْ فِيهَا نَفْحَةً ، وَهَأَنَا مُقِيمٌ تَحْتَ كَنَفِ إِنْعَامِهَا ، رَاجٍ وَابِلَ إِكْرَامِهَا مِنْ هَاطِلِ غَمَامِهَا ، مُنْتَظِرٌ لِعَدُوِّي وَعَدُوِّهَا أَنْكَأَ سِهَامِهَا مِنْ وَبِيلِ انْتِقَامِهَا ،

(١) الكمى : الشجاع أو لابس السلاح (٢) الكنانة : وعاء السهام وتسمى الخريطة أيضا (٣) أي لاتستل (٤) الجلاد : المضاربة (٥) الأسفاط : الأوعية (٦) الماتع : الطويل (٧) نسبة إلى عاد قوم هود ، الذين أرسل الله عليهم ريحا عاتية أتت عليهم .

وَأَمْلَى عَلَيَّ قالَ: كَتَبْتُ إِلَى أَبِي الْقَاسِمِ بْنِ أَبِي الْحَسَنِ شِيثٍ - وَكَانَ قَدِ انْصَرَفَ عَنِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ بِأَمْرٍ مِنَ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ - : مَقْدَمُ سَعْدٍ مُؤْذِنٌ بِسُمُوٍّ وَمَجْدٍ لِلْمَجْلِسِ الْجَمَالِيِّ لَا زَالَ غَادِيًا فِي السَّعَادَةِ وَرَائِحًا، مَمْنُوحًا مِنَ اللهِ بِالنِّعَمِ وَ(١) مَانِحًا، مُيَسَّرًا لَهُ أَرْجَحُ الْأَعْمَالِ كَمَا لَمْ يَزَلْ عَلَى الْأَمَاثِلِ رَاجِحًا، مُوَضَّحًا لَهُ قَصْدُ السَّبِيلِ كَوَجْهِهِ الَّذِي مَا بَرِحَ مُسْفِرًا وَاضِحًا ،قَدْ رَدَّ اللهُ بِأَوْبَتِهِ مَا نَزَحَ مِنَ السُّرُورِ، وَأَعَادَ بِعَوْدَتِهِ الْجَبْرَ إِلَى الْقَلْبِ الْمَكْسُورِ، وَلَأَمَ بِإِلْمَامِهِ صُدُوعًا فِي الصُّدُورِ، وَالْوَاجِبُ التَّفَاؤُلُ بِالْعَوْدِ إِذِ الْعَوْدُ أَحْمَدُ، وَأَلَّا تَخْطُرَ الطِّيَرَةُ بِبَالٍ إِذْ نَهَى عَنِ التَّطَيُّرِ أَحْمَدُ، بَلْ يُقَالُ: انْقَلَبَ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا، وَتَوَطَّنَ مِنَ النِّعْمَةِ الظَّاهِرِيَّةِ جَنَّةً وَحَرِيرًا، وَدَعَا عَدُوُّهُ لِعَوْدِهِ ثُبُورًا(٢)، وَصَلِيَ مِنْ نَارِ حَسَدِهِ سَعِيرًا، أَسْعَدَ اللهُ مَصَادِرَهُ وَمَوَارِدَهُ، وَوَفَّرَ مَكَارِمَهُ وَمَحَامِدَهُ، وَأَيَّدَ سَاعِدَهُ وَمُسَاعِدَهُ.

وَأَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ - أَدَامَ اللهُ عُلُوَّهُ - مِنْ قَصِيدَةٍ قَالَهَا فِي الْمَلِكِ الظَّاهِرِ غَازِي بْنِ يُوسُفَ بْنِ أَيُّوبَ صَاحِبِ حَلَبَ مَطْلَعُهَا:

---

(١) لم تكن هذه الواو موجودة فى الأصل (٢) اقتباس من قوله تعالى « لاتدعوا اليوم ثبورا » كما أن ماقبله كذلك .

لَا مَدْحَ إِلَّا لِلْمَلِيكِ الزَّمَانْ مَنِ الْمُنَى فِي بَابِهِ وَالْأَمَانْ
غِيَاثُ دِينِ اللهِ فِي أَرْضِهِ
إِنْ أَخْلَفَ الْبَرْقُ وَضَنَّ الْعَنَانْ(١)
فِي كَفِّهِ مَلْحَمَةٌ(٢) لِلنَّدَى مِثْلُ الَّتِي تُعْهَدُ يَوْمَ الطِّعَانْ
فَالْعُسْرُ مَصْرُوعٌ بِسَاحَاتِهِ
وَالْيُسْرُ سَامٍ فِي ظُهُورِ الرِّعَانْ(٣)
وَرَاحَتَاهُ رَاحَةٌ لِلْوَرَى عَلَى كَرِيمِ الْخُلْقِ مَخْلُوقَتَانْ
فَكَفُّهُ الْيُمْنَى لِبَسْطِ الْغِنَى
وَكَفُّهُ الْيُسْرَى لِقَبْضِ الْعِنَانْ(٤)

وَمِنْهَا:

تُعْرِبُ(٥) فِي الْهَيْجَاءِ أَسْيَافُهُ عَنْ حَرَكَاتٍ مِثْلِ لَفْظِ اللِّسَانْ
كَسْرٌ وَفَتْحٌ بِبِلَادِ الْعِدَى وَبَعْدَهُ ضَمٌّ لِمَالٍ مُهَانْ

وَمِنْهَا فِي صِفَةِ وَلَدَيْهِ:

بِكْرَانِ بَلْ بَدْرَانِ مَا يُكْسَفَانِ رَوْحَانِ لِلْمُلْكِ وَرَيْحَانَتَانْ

---

(١) أي عنان السماء، والمراد المطر (٢) أي معركة، والندى: الكرم، كناية عن نهاية الجود والعطاء (٣) الرعان: الجبال الطويلة (٤) العنان: زمام الدابة، والمراد عنان الملك (٥) تعرب: تنبىء «عبد الخالق»

لُؤْلُؤَتَا بَحْرٍ وَإِنْ شِئْتَ قُلْ ... يَاقُوتَتَا نَحْرٍ وَعِقْدَا لَبَانْ (١)
فَرْعَانِ فِي دَوْحَةِ عِزٍّ سَمَتْ ... غَيْثَانِ بَلْ بَحْرَانِ بَلْ رَحْمَتَانْ
سَيَمْلِكَانِ الْأَرْضَ حَتَّى يُرَى ... لِي مِنْهُمَا حَرَّانُ وَالرَّقَّتَانْ (٢)

وَمِنْهَا :

فَاسْلَمْ عَلَى الدَّهْرِ شَدِيدَ الْقُوَى
ذَا مِرَّةٍ (٣) مَاشَدَّ كَفٌّ بَنَانْ
وَاسْتَوْطِنِ الشَّهْبَاءَ (٤) فِي عِزَّةٍ
وَاخْسِسْ بِغُمْدَانٍ وَقَعْبَيْ (٥) لِبَانْ

وَأَنْشَدَنِي أَدَامَ اللهُ عُلُوَّهُ لِنَفْسِهِ مِنْ قَصِيدَةٍ :

إِذَا أَوْجَفَتْ (٦) مِنْكَ الْخُيُولُ لِغَارَةٍ
فَلَا مَانِعٌ (٧) إِلَّا الَّذِي مَنَعَ الْعَهْدُ
نَزَلْتَ بِأَنْطَاكِيَةٍ غَيْرَ حَافِلٍ
بِقِلَّةِ جُنْدٍ إِذْ جَمِيعُ الْوَرَى جُنْدُ

---

(١) الابان : الصدر أو وسطه (٢) بلاد معروفة (٣) المرة . قوة الخلق وشدته
(٤) كانت هذه الكلمة فى الأصل « الشبهاء » (٥) القعب : القدح الضخم الغليظ ، والشهباء : حلب ، وغمدان قصر ، يشير بقعبي لبان إلى قول الشاعر :

☆ تلك المكارم لا قعبان من لبن ☆ البيت

وسيأتى ذكره مع غيره من الأبيات ، وأخسس تعجب وصلت همزته (٦) أوجفت : اضطربت (٧) أى ليس من يمنع منك امرأ إلا العهد الذى يكون بينكما «عبدالخالق»

فَكَمْ أَهْيَفٍ (١) حَازَتْهُ هِيفُ رِمَاحِكُمْ
وَكَمْ نَاهِدٍ (٢) أَوْدَى بِهَا فَرَسٌ نَهْدُ

لَئِنْ حَلَّ فِيهَا ثَعْلَبُ الغَدْرِ لَاوِنًا
فَسُحْقًا لَهُ قَدْ جَاءَهُ الْأَسَدُ الْوَرْدُ

وَكَانَ قَدِ اغْتَرَّ اللَّعِينُ بِلِينِكُمْ
وَأَعْظَمُ نَارٍ حَيْثُ لَا لَهَبٌ يَبْدُو

جَنَى النَّحْلَ مُغْتَرًّا وَفِى النَّحْلِ آيَةٌ
فَطَوْرًا لَهُ سُمٌّ وَطَوْرًا لَهُ شَهْدُ (٣)

تَمُدُّكَ أَجْنَادُ الْمُلُوكِ تَقَرُّبًا
وَجُنْدُ السَّخِينِ الْعَيْنِ جَزْرٌ (٤) وَلَا مَدٌّ

تُهَنَّا بِهَا بِكْرًا خَطَبْتَ مِلَاكَهَا
فَأَعْطَتْ يَدَ الْمَخْطُوبِ وَانْتَظَمَ الْعِقْدُ

تَجَيْشُكَ مَهْرٌ وَالْبُنُودُ حُمُولُهُ
وَأَسْهُمُكُمْ تِبْرٌ وَسُمْرُ الْقَنَا نَقْدُ

وَلَهُ مِنَ التَّصَانِيفِ: كِتَابُ الضَّادِ وَالظَّاءِ وَهُوَ مَا اشْتَبَهَ

---

(١) أى ضامر البطن دقيق الخصر من الخيل (٢) ناهد من الخيل

(٣) يريد: جنى الشهد منك لما أظهرت له لين المعاملة ، ولم يدر أن النحل يكون سما كما يكون شهدا

(٤) الجزر: انحسار الماء عن الشط ، والمد: ارتفاع مائه وامتداده إلى البر

فِي اللَّفْظِ وَاخْتَلَفَ فِي الْخَطِّ، كِتَابُ الدُّرِّ الثَّمِينِ فِي أَخْبَارِ الْمُتَيَّمِينَ، كِتَابُ مَنْ أَلْوَتِ الْأَيَّامُ إِلَيْهِ فَرَفَعَتْهُ ثُمَّ الْتَوَتْ عَلَيْهِ فَوَضَعَتْهُ، كِتَابُ أَخْبَارِ الْمُصَنِّفِينَ وَمَا صَنَّفُوهُ، كِتَابُ أَخْبَارِ النَّحْوِيِّينَ كَبِيرٌ، كِتَابُ تَارِيخِ مِصْرَ مِنِ ابْتِدَائِهَا إِلَى مُلْكِ صَلَاحِ الدِّينِ إِيَّاهَا فِي سِتِّ مُجَلَّدَاتٍ، كِتَابُ تَارِيخِ الْمَغْرِبِ وَمَنْ تَوَلَّاهَا مِنْ بَنِي تُومَرْتَ، كِتَابُ تَارِيخِ الْيَمَنِ مُنْذُ اخْتُطَّتْ إِلَى الْآنَ، كِتَابُ الْمُحَلَّى فِي اسْتِيعَابِ وُجُوهِ كَلَّا، كِتَابُ الْإِصْلَاحِ لِمَا وَقَعَ مِنَ الْخَلَلِ فِي كِتَابِ الصِّحَاحِ لِلْجَوْهَرِيِّ، كِتَابُ الْكَلَامِ عَلَى الْمُوَطَّإِ لَمْ يَتِمَّ إِلَى الْآنَ، كِتَابُ الْكَلَامِ عَلَى الصَّحِيحِ لِلْبُخَارِيِّ لَمْ يَتِمَّ، تَارِيخُ مَحْمُودِ ابْنِ سُبُكْتِكِينَ وَبَنِيهِ إِلَى حِينِ انْفِصَالِ الْأَمْرِ عَنْهُمْ، كِتَابُ أَخْبَارِ السَّلْجُوقِيَّةِ مُنْذُ ابْتِدَاءِ أَمْرِهِمْ إِلَى نِهَايَتِهِ، كِتَابُ الْإِينَاسِ فِي أَخْبَارِ آلِ مِرْدَاسٍ، كِتَابُ الرَّدِّ عَلَى النَّصَارَى وَذِكْرِ مَجَامِعِهِمْ، كِتَابُ مَشْيَخَةِ زَيْدِ بْنِ الْحَسَنِ الْكِنْدِيِّ، كِتَابُ نُهْزَةِ الْخَاطِرِ وَنُزْهَةِ النَّاظِرِ فِي أَحْسَنِ مَا نُقِلَ مِنْ عَلَى ظُهُورِ الْكُتُبِ.

وَكَانَ الْأَكْرَمُ الْقَاضِي الْمَذْكُورُ جَمَّاعَةً لِلْكُتُبِ حَرِيصاً

عَلَيْهَا جِدًّا، لَمْ أَرَ مَعَ اشْتِمَالِي عَلَى الْكُتُبِ وَبَيْعِي لَهَا وَتِجَارَتِي فِيهَا أَشَدَّ اهْتِمَامًا مِنْهُ بِهَا، وَلَا أَكْثَرَ حِرْصًا مِنْهُ عَلَى اقْتِنَائِهَا، وَحَصَلَ لَهُ مِنْهَا مَا لَمْ يَحْصُلْ لِأَحَدٍ، وَكَانَ مُقِيمًا بِحَلَبَ، وَذَلِكَ أَنَّهُ نَشَأَ بِمِصْرَ وَأَخَذَ بِهَا مِنْ كُلِّ عِلْمٍ بِنَصِيبٍ، وَلِيَ وَالِدُهُ الْقَاضِي الْأَشْرَفُ النَّظَرَ بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ مِنْ قِبَلِ الْمَلِكِ الْعَزِيزِ عُثْمَانَ بْنِ صَلَاحِ الدِّينِ بْنِ أَيُّوبَ، وَصَحِبَهُ الْقَاضِي الْأَكْرَمُ وَذَلِكَ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَتِسْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ، وَأَقَامَ بِهَا مَعَ وَالِدِهِ مُدَّةً فَآنَسَ وُلَاةُ الْمَقْدِسِ مِنَ الْقَاضِي الْأَكْرَمِ ـ أَدَامَ اللهُ عِزَّهُ — شَرَفَ نَفْسٍ وَعُلُوَّ هِمَّةٍ، فَأَحَبُّوهُ وَاشْتَمَلُوا عَلَيْهِ، وَكَانُوا يَسْأَلُونَهُ أَنْ يَتَسَمَّ بِخِدْمَةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ، فَلَمْ يَكُنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مُسْتَقِلًّا، وَإِنَّمَا كَانَ يَسْأَمُ الْعَمَلَ وَيَعْتَمِدُ عَلَى رَأْيِهِ فِي تَدْبِيرِ الْأَحْوَالِ، وَكَانَ لَا يَدْخُلُ مَعَهُمْ إِلَّا فِيمَا لَا يَقُومُ غَيْرُهُ فِيهِ مَقَامَهُ، وَاتَّفَقَ مَا اتَّفَقَ بَيْنَ الْمَلِكِ الْعَادِلِ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَيُّوبَ وَبَيْنَ ابْنِ أَخِيهِ الْمَلِكِ الْأَفْضَلِ عَلِيِّ بْنِ صَلَاحِ الدِّينِ يُوسُفَ ابْنِ أَيُّوبَ ـ وَالْأَكْرَمُ حِينَئِذٍ بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ ـ فَاقْتَضَتِ الْحَالُ — لِاتِّسَامِهِ بِخِدْمَةٍ فِي حَيِّزِ الْمَلِكِ — أَنْ خَرَجَ مِنَ الْقُدْسِ فِيمَنْ خَرَجَ مِنْهَا مِنَ الْعَسَاكِرِ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَسِتِّمِائَةٍ، وَصَحِبَ فَارِسَ

الدِّينِ مَيْمُونًا الْقَصْرِيَّ وَإِلَى الْقُدْسِ وَنَابُلُسَ ، فَالْتَحَقَا بِالْمَلِكِ الظَّاهِرِ غَازِي بْنِ يُوسُفَ بْنِ أَيُّوبَ بِحَلَبَ فِي قِصَّةٍ يَطُولُ شَرْحُهَا ، فَلَمَّا حَصَلَ بِحَلَبَ كَانَ مَعَ مَيْمُونٍ الْقَصْرِيِّ عَلَى سَبِيلِ الصَّدَاقَةِ وَالْمَوَدَّةِ لَا عَلَى سَبِيلِ الْخِدْمَةِ وَالْكِتَابَةِ ، وَاتَّفَقَ أَنَّ كَاتِبَ مَيْمُونٍ وَوَزِيرَهُ مَاتَ ، فَأَلْزَمَهُ مَيْمُونٌ خِدْمَتَهُ وَالِاتِّسَامَ بِكِتَابَتِهِ ، فَفَعَلَ ذَلِكَ عَلَى مَضَضٍ وَاسْتِحْيَاءٍ ، وَدَبَّرَ أُمُورَهُ أَحْسَنَ تَدْبِيرٍ ، وَسَاسَ جُنْدَهُ أَحْسَنَ سِيَاسَةٍ وَتَدْبِيرٍ ، وَفَرَّغَ بَالَ مَيْمُونٍ مِنْ كُلِّ مَا يَشْغَلُ بِهِ بَالَ الْأُمَرَاءِ ، وَأَقْطَعَ(١) الْأَجْنَادَ إِقْطَاعَاتٍ رَضُوا بِهَا وَانْصَرَفُوا شَاكِرِينَ لَهُ ، لَمْ يُعْرَفْ مُنْذُ تَوَلَّى أَمْرَهُ إِلَى أَنْ مَاتَ مَيْمُونٌ جُنْدِيٌّ اشْتَكَى أَوْ تَأَلَّمَ ، وَكَانَ وَجِيهًا عِنْدَ مَيْمُونٍ الْمَذْكُورِ يَحْتَرِمُهُ وَيُعَظِّمُ شَأْنَهُ ، وَيَتَبَرَّكُ بِآرَائِهِ إِلَى أَنْ مَاتَ مَيْمُونٌ فِي لَيْلَةٍ صَبِيحَتُهَا ثَالِثَ عَشَرَ رَمَضَانَ سَنَةَ عَشْرٍ وَسِتِّمِائَةٍ ، فَأَقَرَّ الْمَلِكُ الظَّاهِرُ غَازِي بْنُ صَلَاحِ الدِّينِ خِزَانَتَهُ عَلَيْهِ وَهُوَ مُلَازِمٌ لِبَيْتِهِ مُتَشَاغِلٌ بِالْعِلْمِ وَتَصْنِيفِ الْكُتُبِ إِلَى أَنِ احْتَاجَ دِيوَانُهُ إِلَيْهِ ، فَعَوَّلَ

(١) أى أنعم على الجنود بقطع من الأرض مكافأة لهم على خدماتهم .

فِي إِصْلَاحِهِ عَلَيْهِ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مُجْتَنِبٌ غَيْرُ رَاضٍ ، وَحَدَّثَنِي أَدَامَ اللهُ عِزَّهُ قَالَ :

قَالَ حَدَّثَنِي وَالِدِي قَالَ : قَدِمْتُ مَعَ وَالِدِي إِلَى مِصْرَ أَوَّلَ قَدْمَةٍ وَلَمْ نَسْتَصْحِبْ دَوَابَّ ، لِأَنَّنَا انْحَدَرْنَا فِي السُّفُنِ وَقُلْتُ لِأَبِي : نَأْخُذُ مَعَنَا دَوَابَّ ؟ فَقَالَ : يَعْسُرُ أَمْرُهَا عَلَيْنَا فَدَعْنَا نَمْضِ بِالرَّاحَةِ فِي الْمَرْكَبِ ، وَإِذَ وَصَلْنَا مَا نَعْدَمُ مَا نَرْكَبُ ، فَلَمَّا وَصَلْنَا إِلَى مِصْرَ خَرَجْنَا نَمْشِي إِلَى أَنْ جَاءَ بِي إِلَى سُوقِ وَرْدَانَ ، وَهُنَاكَ تِلْكَ الْحَمِيرُ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْبِغَالِ ، فَقَالَ لِي وَالِدِي : ارْكَبْ أَيَّهَا شِئْتَ لِنَمْضِيَ إِلَى الْقَاهِرَةِ ، فَامْتَنَعْتُ وَقُلْتُ : وَاللهِ لَا رَكِبْتُ حِمَاراً قَطُّ . فَقَالَ : لَا بُدَّ مِنَ الْمُضِيِّ إِلَى الْقَاهِرَةِ فَمَا تَصْنَعُ ؟ قُلْتُ لِأَبِي (١) : نُؤَخِّرُ الْمُضِيَّ الْيَوْمَ حَتَّى نَشْتَرِيَ مَرْكُوباً إِمَّا فَرَساً وَإِمَّا بَغْلَةً أَرْكَبُهَا أَنَا وَاصْنَعْ أَنْتَ بِنَفْسِكَ مَا تَشَاءُ ، فَعَذَلَنِي فَلَمْ أَرْعَوِ فَاجْتَازَ بِنَا رَجُلٌ لَهُ هَيْئَةٌ وَشَارَةٌ فَتَقَدَّمَ وَالِدِي إِلَيْهِ وَقَالَ لَهُ : يَا أَخِي ، تَعْرِفُ الْقَاضِيَ الْأَشْرَفَ أَبَا الْحَجَّاجِ يُوسُفَ بْنَ الْقَاضِي الْأَمْجَدِ أَبِي إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ الشَّيْبَانِيَّ الْقِفْطِيَّ ؟ فَقَالَ : لَا أَعْرِفُهُ . قَالَ : امْضِ فِي أَمَانِ اللهِ . ثُمَّ مَرَّ بِهِ آخَرُ فَسَأَلَهُ

---

(١) كانت هذه الكلمة فى الأصل : « قال أبى » ، وقد أشار إليها هامش الأصل وقال : يريد : قلت أنا « عبد الخالق »

مِثْلَ ذَلِكَ السُّؤالِ حَتَّى سَأَلَ جَمَاعَةً فَلَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ مَنْ يَعْرِفُهُ ، فَالْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ لِى : وَيْلَكَ ، إِذَا كُنْتَ فِى مَدِينَةٍ لَا يَعْرِفُكَ بِهَا أَحَدٌ فَمَا تَصْنَعُ بِهَذَا التَّخَرُّقِ (١) وَالتَّرْتِيبِ فِى الْمَرْكُوبِ؟ ارْكَبْ وَدَعْ عَنْكَ الْكِبْرِيَاءَ وَالْعَظَمَةَ الَّتِى لَا تُجْدِى هَهُنَا شَيْئًا . قَالَ : فَرَكِبْتُ حِينَئِذٍ وَمَضَيْنَا إِلَى الْقَاهِرَةِ ، وَكَانَ لِهَذَا السَّبَبِ مُتَفَقِّدًا الْخُيُولَ الْمَشْهُورَةَ بِالْجَوْدَةِ وَكَثْرَةِ الثَّمَنِ حَتَّى لَقَدْ حَدَّثَنِى : أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ دِحْيَةَ الْحَافِظَ وَقَدْ سُئِلَ عَنِ الْقَاضِى الْأَشْرَفِ الْقِفْطِىِّ فَقَالَ : أَلَيْسَ هُوَ صَاحِبَ الْخُيُولِ الْمُسَوَّمَةِ (٢) وَالْعَبِيدِ الرُّوقَةِ (٣) ؟ فَمَا أَوْلَاهُ إِذَنْ بِقَوْلِ عَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ :

إِنِّى وَإِنْ كُنْتُ ابْنَ سَيِّدِ عَامِرٍ
وَفَارِسَهَا الْمَشْهُورَ فِى كُلِّ مَوْكِبِ
فَمَا سَوَّدَتْنِى عَامِرٌ عَنْ وِرَاثَةٍ
أَبَى اللهُ أَنْ أَسْمُو بِأُمٍّ وَلَا أَبِ
وَلَكِنَّنِى أَحْمِى حِمَاهَا وَأَتَّقِى
أَذَاهَا وَأَرْمِى مَنْ رَمَاهَا بِمَنْكِبِ

(١) أى التوسع (٢) المسومة : المعلمة (٣) أى الحسان ، وهو يستعمل بلفظ واحد مع المفرد والمثنى والجمع مذكراً كان أومؤنثاً

فَصلٌ: قَالَ الأَكْرَمُ مِنْ إِنْشَائِى مِنْ جُمْلَةِ كِتَابٍ أُنْشِأَتْ عَنِ الْمَقَرِّ الأَشْرَفِ الْمَلَكِىِّ الظَّاهِرِىِّ عِنْدَ رَحِيلِ عَسْكَرِ الفِرَنْجِ عَنْ حِصْنِ الْخَوَابِى: وَلَمَّا وَرَدَتِ الرَّايَةُ الْبَاطِنِيَّةُ صَدَرَتْ فِى نَجْدَتِهِمُ الْعَسَاكِرُ الظَّاهِرِيَّةُ تَحْتَ الأَلْوِيَةِ الإِمَامِيَّةِ النَّاصِرِيَّةِ وَسَارَ فِى الْمُقَدِّمَةِ أَلْفُ فَارِسٍ مِنْ أَمْجَادِ الأَنْجَادِ(١) وَأَمْثَالِ الأَطْوَادِ(٢) وَهُمُ الَّذِينَ لَا يَثْنُونَ(٣) عَنِ الطَّعْنِ عِنَانًا، وَلَا يَسْأَلُونَ عِنْدَ الانْتِدَابِ إِلَى الْكَرِيهَةِ عَمَّا قِيلَ بُرْهَانًا، وَلَمَّا الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَتَرَاءَى الْفَرِيقَانِ، قَمَعَ حِزْبَ الإِنْجِيلِ حِزْبُ الْقُرْآنِ، وَخَفَضَ صَوْتَ النَّاقُوسِ صَوْتُ الأَذَانِ، وَفَلَّ جَيْشُ بْنِ يُوسُفَ جَمْعَ بَنِى إِسْحَاقَ، وَعَلَا عَلَمُ الأَحْمَرِ عَلَى بَنِى الأَصْفَرِ أَهْلِ الشِّقَاقِ، وَحَرَّكَتِ الأَهْوِيَةُ أَلْسُنَ الأَلْوِيَةِ بِأَصْوَاتِ النُّجْحِ فَقَالَتْ بِلِسَانِ الْحَالِ: تَعَالَ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ مِنَ الْقِتَالِ، فَقَدْ جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ، وَمَا أَوْدَتْ مِنَ الْمُنَاجَزَةِ(٤) قُوَّةُ جَانِبٍ وَلَا شِدَّةُ مُحَاجَزَةٍ، وَإِنَّمَا مَنَعَ(٥) جَبَلٌ وَعْرٌ ضَاقَ مَسْلَكُهُ، وَتَعَذَّرَ مَجَالُهُ عَلَى الْفُرْسَانِ وَمُعْتَرَكُهُ، وَامْتَنَعَتْ مِنْهُ أَسْبَابُ النِّزَالِ، « وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ

(١) الانجاد: الشجعان الذين لا يعجزهم أى أمر، وفى الأصل « أمجاد » بدلا من أنجاد

(٢) الطود: الجبل العظيم المرتفع (٣) أى يمنعون (٤) المناجزة: المبارزة والمقاتلة (٥) أى جعلهم فى منعة

كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ » .
فَقُلِعَتِ الْقَلْعَةُ مِنْ خِنَاقِهَا ، وَأَفْلَتَتْ مِنْ يَدِ الْقَابِضِ بِسَاقِهَا ، وَاشْتَغَلَ الْعَدُوُّ عَنْهَا بِإِعْمَالِ رَأْيِهِ فِي الْخَلَاصِ ، وَذَلِكَ لِمَا تَحَقَّقَهُ مِنْ تَرَادُفِ الْعَسَاكِرِ الْمَنْصُورَةِ وَلَاتَ [1] حِينَ مَنَاصٍ ، وَلَمَّا اجْتَمَعُوا لِلْمُشَاوَرَةِ تَنَاقَضَتْ مِنْهُمُ الْآرَاءُ عِنْدَ الْمُحَاوَرَةِ ، وَأَوْجَبَ ذَلِكَ اخْتِلَافاً مِنْ جَمِيعِهِمْ قَضَى بِافْتِرَاقِ جُمُوعِهِمْ ، وَبَاتُوا لَيْلَةَ الاثْنَيْنِ وَلَهُمْ ضَوْضَاءُ ، ثُمَّ أَصْبَحُوا وَقَدْ خَلَا مِنْهُمُ الْفَضَاءُ ، لَمْ يُلْفَ مِنْهُمْ أَحَدٌ ، وَلَا وُجِدَ لِمَنْزِلِهِمْ إِلَّا النُّؤْيُ [2] وَالْوَتِدُ ، وَذَلِكَ لِرَأْيٍ أَجْمَعُوا عَلَيْهِ لَمَّا تَحَقَّقُوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ الْهَرَبِ إِلَّا إِلَيْهِ ، وَلِلْوَقْتِ نَدَبَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ خَلَّدَ اللهُ مُلْكَهُ جَمَاعَةً مِنَ الصُّنَّاعِ لِإِصْلَاحِ مُخْتَلِّهَا ، وَرَفْعِ مَا فُرِّقَ مِنْ تَلِّهَا ، وَحَمْلِ إِلَيْهَا مَا عَدِمَتْهُ مِنَ الْآلَةِ عِنْدَ الْقِتَالِ . وَتَقَدَّمَ إِلَى رَئِيسِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ بِحَمْلِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الذَّخِيرَةِ وَالْمَالِ ، وَقَدْ شَرَعَ وَالشُّرُوعُ مُلْزِمٌ بِالْإِكْمَالِ .

حَدَّثَنِي الصَّاحِبُ الْوَزِيرُ الْأَكْرَمُ أَدَامَ اللهُ تَمْكِينَهُ قَالَ :

---

(١) أي ليس هذا وقت الخلاص والمفر (٢) حفير حول البناء أو الخيمة يمنع السيل من الوصول إليها

خَرَجْتُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ خَامِسَ عَشَرَ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ ثَمَانِي عَشْرَةَ وَسِتَّمِائَةٍ إِلَى ظَاهِرِ مَدِينَةِ حَلَبَ عَلَى سَبِيلِ التَّسْيِيرِ ، فَرَأَيْتُ عَلَى جَانِبِ قُوَيْقٍ (١) عِدَّةَ مَشَايِخَ بِيضِ اللِّحَى، وَقَدْ سَكِرُوا مِنْ شُرْبِ الْخَمْرِ وَهُمْ عُرَاةٌ يُصَفِّقُونَ وَيَرْقُصُونَ عَلَى صُورَةٍ مُنْكَرَةٍ بَشِعَةٍ فَاسْتَعَذْتُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، وَرَجَعْتُ مَغْمُومًا بِذَلِكَ وَبِتُّ تِلْكَ اللَّيْلَةَ ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ وَرَكِبْتُ لِلطُّلُوعِ إِلَى الْقَلْعَةِ اسْتَقْبَلَنِي رَجُلٌ صُعْلُوكٌ فَقَالَ : انْظُرْ فِي حَالِي نَظَرَ اللهُ إِلَيْكَ يَوْمَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ الْمُتَّقُونَ ، فَقُلْتُ لَهُ : مَا خَبَرُكَ ؟ قَالَ : أَنَا رَجُلٌ صُعْلُوكٌ وَكَانَ لِي دَابَّةٌ أَسْتَرْزِقُ عَلَيْهَا لِلْعَائِلَةِ (٢) فَاتَّهَمَنِي الْوَالِي بِالْخُيُولِ بِسَرِقَةِ مِلْحٍ ، فَأَخَذَ دَابَّتِي ثُمَّ طَالَبَنِي بِجِبَايَةٍ فَقُلْتُ : خُذِ الدَّابَّةَ . فَقَالَ : قَدْ أَخَذْتُهَا وَأُرِيدُ جِبَايَةً أُخْرَى . فَقُلْتُ لَهُ : أَبْشِرْ بِمَا يَسُرُّكَ وَطَلَعْتُ إِلَى صَاحِبِ الْأَمْرِ يَوْمَئِذٍ ، وَهُوَ الْأَمِيرُ الْكَبِيرُ أَتَابَكُ طُغْرُلُ الظَّاهِرِيُّ وَقُلْتُ : رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ مُبَاحَةٌ، النَّاسُ مُشْتَرِكُونَ فِيهَا : الْكَلَأُ ، وَالْمَاءُ ، وَالْمِلْحُ ».

---

(١) قويق : نهر مدينة حلب (٢) الكلام هنا مرصوص بدون نظر إلى بلاغة أو رق في الأسلوب ، وما أشبهه بترجمة أحمد المأموني التي سلفت « عبد الخالق »

وَقَدْ جَرَى كَيْتَ وَكَيْتَ وَلَا يَلِيقُ بِمِثْلِكَ ، وَأَنْتَ عَامَّةَ وَقْتِكَ جَالِسٌ عَلَى مُصَلَّاكَ مُسْتَقْبِلٌ الْقِبْلَةَ وَالسُّبْحَةُ فِي يَدِكَ أَنْ تَكُونَ مِثْلُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فِي بَلَدِكَ . فَقَالَ : اُكْتُبِ السَّاعَةَ إِلَى جَمِيعِ النَّوَاحِي بِرَفْعِ الْجِبَايَاتِ وَمَحْوِ اسْمِهَا أَصْلًا ، وَأْمُرِ الْوُلَاةَ أَنْ يَعْمَلُوا بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ، وَمَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ حَدٌّ مِنَ الْحُدُودِ الشَّرْعِيَّةِ يُقَامُ فِيهِ عَلَى الْفَوْرِ ، وَلَا يُلْتَمَسُ مِنْهُ شَيْءٌ آخَرُ ، وَمُرِ السَّاعَةَ بِإِرَاقَةِ كُلِّ خَمْرٍ فِي الْمَدِينَةِ ، وَرَفْعِ ضَمَانِهَا ، وَاُكْتُبْ إِلَى جَمِيعِ النَّوَاحِي الَّتِي تَحْتَ حُكْمِي بِمِثْلِ ذَلِكَ ، وَأَوْعِدْ مَنْ يُخَالِفُ ذَلِكَ عُقُوبَتَنَا فِي الدُّنْيَا عَاجِلًا ، وَعُقُوبَةَ الْخَالِقِ فِي الْآخِرَةِ آجِلًا ، فَخَرَجْتُ وَجَلَسْتُ فِي الدِّيوَانِ ، وَكَتَبْتُ بِيَدِي وَلَمْ أَسْتَعِنْ بِأَحَدٍ مِنَ الْكُتَّابِ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ كِتَابًا إِلَى وُلَاةِ الْأَطْرَافِ ثُمَّ أَنْشَدَ :

وَلَا تَكْتُبْ بِكَفِّكَ غَيْرَ شَيْءٍ
يَسُرُّكَ فِي الْقِيَامَةِ أَنْ تَرَاهُ

وَكَانَ الْمَحْصُولُ مِنْ ضَمَانِ مَا أُطْلِقَ مَا مِقْدَارُهُ مِائَتَا أَلْفِ دِرْهَمٍ فِي السَّنَةِ ، وَإِنْ أُضِيفَ إِلَيْهِ مَا يُسْتَقْبَلُ فِي السَّنَةِ

الآتِيَةِ مِنْ رُخْصِ الكُرُومِ وَتَعَطُّلِ ضَمانَاتِهَا وَقِلَّةِ دَخْلِهَا بِهٰذَا السَّبَبِ «كَانَ ذَلِكَ»[1] أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ أَوْ مَا يُقَارِبُهَا، وَكَانَ وَالِدُهُ القَاضِي الأَشْرَفُ أَبُو المَحَاسِنِ يُوسُفُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ مِنْ أَهْلِ الفَضْلِ البَارِعِ وَالبَلَاغَةِ المَشْهُورَةِ، وَكَانَ يَنُوبُ بِحَضْرَةِ السُّلْطَانِ صَلَاحِ الدِّينِ يُوسُفَ بْنِ أَيُّوبَ عَنِ القَاضِي الفَاضِلِ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الكُتَّابِ، وَكَانَ حَسَنَ الخَطِّ عَلَى طَرِيقَةِ ابْنِ مُقْلَةَ، فَاتَّفَقَ أَنْ طَالَ مُقَامُهُ بِالشَّامِ فِي صُحْبَةِ السُّلْطَانِ وَأَرَادَ الرُّجُوعَ إِلَى مِصْرَ طَلَبًا لِلرَّاحَةِ وَنَظَرًا فِي مَصَالِحِهِ، فَطَلَبَ مِنَ السُّلْطَانِ إِذْنًا فَقَالَ: يُحْتَاجُ فِي ذَلِكَ إِلَى إِذْنِ صَاحِبِكَ، فَكَتَبَ العِمَادُ إِلَى القَاضِي: يُلْتَمَسُ غَيْرُهُ لِيُؤْذَنَ لَهُ فَقَدْ طَالَتْ غَيْبَتُهُ عَنْ أَهْلِهِ، فَكَتَبَ القَاضِي فِي الجَوَابِ كِتَابًا يَقُولُ فِيهِ: وَأَمَّا التِمَاسُ العِوَضِ عَنِ الأَشْرَفِ القِفْطِيِّ فَكَيْفَ لِي بِغَيْرِهِ؟ وَهُوَ ذُو لِسَانٍ صَهْصَلِقٍ[2] مِنْطِيقٍ، وَخَاطِرٍ يُنْفِقُ عَنْ سَعَةٍ فِي كُلِّ مَضِيقٍ.

وَكَتَبَ إِلَى القَاضِي الفَاضِلِ رُقْعَةً وَضَمَّنَهَا البَيْتَ المَشْهُورَ:

إِذَا مِلْنَا نَمِيلُ عَلَى أَبِينَا كَأَنَّا نَمِيلُ إِلَى جَوَانِبِهِ

---

(١) لم تكن كلمتا «كان ذلك» موجودتين فى الأصل

(٢) الصهصلق: الشديد الصوت، والمنطيق: البليغ

فَكَتَبَ القَاضِى الجَوَابَ وَضَمَّنَهُ :

فَدَيْتُكَ مِنْ مَائِلٍ كَالغُصُونِ إِذَا مِلْنَ أَدْنَيْنَ مِنِّى الثِّمَارَا

وَتَزَهَّدَ وَالِدُهُ وَتَرَكَ العَمَلَ وَأَقَامَ بِاليَمَنِ إِلَى أَنْ مَاتَ بِهَا فِى رَجَبٍ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ وَسِتِّمَائَةٍ .

وَحَدَّثَنِى أَدَامَ اللهُ عُلُوَّهُ قَالَ : حَجَجْتُ فِى مَوْسِمِ سَنَةِ ثَمَانٍ وَسِتِّمَائَةٍ ، وَكَانَ وَالِدِى فِى صُحْبَتِى فَصَادَفْتُ بِمَكَّةَ جَمَاعَةً مِنْ أَهْلِ بَلَدِنَا ، وَكُنْتُ بَعِيدَ العَهْدِ بِلِقَاءِ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، فَرَآنِى رَجُلٌ فَالْتَحَقَ بِى كَمَا جَرَتِ العَادَةُ ، ثُمَّ عَادَ إِلَى مَنْ فِى صُحْبَتِهِ مِنْ بَلَدِنَا فَأَخْبَرَهُمْ بِنَا فَجَاءَ وَهُمْ إِلَى مَنْزِلِنَا فَقَضَوْا حَقَّنَا بِالسَّلَامِ وَالسُّؤَالِ وَالحُرْمَةِ ، ثُمَّ انْصَرَفُوا إِلَى رِحَالِهِمْ فَجَاءَ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِمَا حَضَرَهُ لَمْ يَحْتَفِلُوا لَهُ[1] ، وَكَانَ فِيمَا جَاءُونَا بِهِ ظَرْفٌ كَبِيرٌ مَمْلُوءٌ عَسَلًا ، وَآخَرُ سَمْنًا عَلَى جَمَلٍ وَهُوَ وِقْرُهُ[2] ، فَأَلْقَاهُ فِى خَيْمَتِنَا فَأَمَرْتُ الغِلْمَانَ أَنْ يَعْمَلُوا مِنْهُ حَيْسًا[3] فَيُكْثِرُوا عَلَى عَادَةِ تِلْكَ البِلَادِ ، وَأَكَلْنَا وَأَكْثَرْنَا زِيَادَةً عَلَى مَا جَرَتْ بِهِ عَادَتُنَا ، ثُمَّ طُفْنَا بِالبَيْتِ وَعُدْنَا إِلَى رِحَالِنَا وَنِمْتُ

(١) يريد بجملة لم يحتفلوا له : أنهم لم يجتمعوا لما قدموه إليه ، بل كان كل واحد يحضر وحده (٢) يريد : حمله الذى يقدر على حمله (٣) الحيس : طعام مركب من تمر وسمن وسويق .

فَرَأَيْتُ فِي النَّوْمِ كَأَنِّي فِي الْحَرَمِ أَطُوفُ، وَإِذَا رَجُلٌ شَدِيدُ الْأُدْمَةِ(١) مُشَوَّهُ الْخِلْقَةِ، فَأَخَذَ بِيَدِي وَأَخْرَجَنِي مِنَ الْحَرَمِ مِنْ بَابِ إِبْرَاهِيمَ فَإِذَا بِهِ قَدْ وَقَفَنِي عَلَى الظَّرْفَيْنِ بِعَيْنِهِمَا لَا أَرْتَابُ بِهِمَا فَقَالَ لِي: أَتَعْرِفُ هٰذَيْنِ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، هٰذَانِ ظَرْفَانِ جَاءَنَا بِهِمَا رَجُلٌ عَلَى سَبِيلِ الْهَدِيَّةِ، أَحَدُهُمَا سَمْنٌ وَالْآخَرُ عَسَلٌ، فَقَالَ لِي: لَيْسَ الْأَمْرُ كَذٰلِكَ، ثُمَّ حَطَّ يَدَهُ عَلَى بَطْنِهِمَا وَعَصَرَ فَخَرَجَ مِنْ فَمِهِمَا(٢) نَارٌ أَحْسَسْتُ بِلَفْحِهَا فِي وَجْهِي، وَجَعَلْتُ أَمْسَحُ فَمِي مِنْ شِدَّةِ حَرِّهِمَا وَانْزَعَجْتُ مِنْ هَوْلِ مَا رَأَيْتُ، وَقُمْتُ مِنْ فِرَاشِي خَائِفًا فَمَا اسْتَطَعْتُ النَّوْمَ إِلَى الْغَدَاةِ، وَاجْتَمَعْتُ بِمُهْدِيهِمَا وَكَانَ يُعْرَفُ بِابْنِ الشُّجَاعِ فَقُلْتُ لَهُ: أَخْبِرْنِي عَنْ هٰذَيْنِ الظَّرْفَيْنِ مَا خَبَرُهُمَا؟ فَقَالَ: اشْتَرَيْتُهُمَا وَجِئْتُ بِهِمَا، فَقُلْتُ: يَا هٰذَا، هَلْ فِيهِمَا شُبْهَةٌ؟ فَتَحَلَّفَ أَنَّهُمَا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ، فَأَخْبَرْتُهُ بِالْحَالِ فَبَكَى حِينَئِذٍ، وَمَدَّ يَدَهُ فَأَخَذَ بِيَدِي وَعَاهَدَنِي أَنْ يَخْرُجَ مِنْ عُهْدَتِهِ وَقَالَ: وَاللّٰهِ مَا أَعْرِفُ أَنَّ فِي مَالِي شُبْهَةً، إِلَّا أَنَّ لِي أُخْتَيْنِ مَا أَنْصَفْتُهُمَا فِي تَرِكَةِ أَبِيهِمَا،

---

(١) الأدمة: قال في القاموس بعد أن فسر الأدمة بعدة ألوان: ومنها السمرة

(٢) كانت هذه الكلمة في الأصل «فيها». «عبد الخالق»

وَأَنَا أُعَاهِدُ اللهَ أَنِّي أَرْجِعُ مِنْ وَجْهِي هَذَا وَأُعْطِيهِمَا حَتَّى أُرْضِيَهُمَا.

قَالَ الصَّاحِبُ — أَدَامَ اللهُ عُلُوَّهُ: فَعَلِمْتُ أَنَّهَا لِي مَوْعِظَةٌ، فَعَاهَدْتُ اللهَ أَلَّا آكُلَ بَعْدَهَا مِنْ طَعَامٍ لَا أَعْرِفُ مِنْ أَيْنَ وَجْهُهُ؟ فَكَانَ لَا يَأْكُلُ لِأَحَدٍ طَعَامًا وَيَقُولُ: النَّاسُ لَا يَعْرِفُونَ بَوَاطِنَ الْأُمُورِ وَيَظُنُّونَنِي أَفْعَلُ[1] ذَلِكَ كِبْرًا، وَمِنْ أَيْنَ لِي بِمَا يَقُومُ بِعُذْرِي عِنْدَهُمْ؟ ثُمَّ كُنْتُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي حَضْرَتِهِ بِمَنْزِلِهِ الْمَعْمُورِ وَقَدْ عَادَ مِنَ الْقَلْعَةِ بِحَلَبَ فَقَالَ لِي: جَرَتِ الْيَوْمَ طَرِيفَةٌ، فَقُلْتُ لَهُ: هَاتِ خَبَرَهَا — أَدَامَ اللهُ إِمْتَاعَنَا بِكَ —، فَمَا زِلْتَ تَأْتِي بِالطَّرَائِفِ وَالطُّرَفِ.

فَقَالَ: حَضَرْتُ الْيَوْمَ فِي مَجْلِسِ الْمَلِكِ الرَّحِيمِ أَتَابَكَ طُغْرُلَ الظَّاهِرِيِّ وَحَضَرَتِ الْمَائِدَةُ وَفِيهَا طَعَامُ الْمُلُوكِ: شِوَاءٌ وَشَرَائِحُ وَسَنْبُوسَكٌ[2] وَحَلَاوَاتٌ وَغَيْرُهَا كَمَا جَرَتِ الْعَادَةُ، فَتَأَمَّلْتُهُ فَنَفَرَتْ نَفْسِي مِنْهُ وَلَمْ تَقْبَلْهُ مَعَ كَوْنِي قَدْ قَارَبْتُ الظُّهْرَ وَلَمْ أَتَغَدَّ

(١) كانت هذه الكلمة فى الأصل: « أقول » (٢) كانت فى الأصل « سنبوسج » بالجيم، وقد بحثت عنها فى كتب اللغة، فوجدت المذكور فيها سنبوسك وهو المشهور، على أنى علمت أن الجيم كثيرا ما تكتب كافا كما تقول فى جوجك: كنك، وفى انجلترا: انكلترا، وسبق أنى رأيت مؤلفا فى وريقات قديم الطبع فيه مثل هذه الأشياء.

فَلَمْ أَنبَسِطْ وَلَا مَدَدْتُ يَدِي إِلَيْهِ . فَقَالَ لِي : مَالَكَ لَا تَأْكُلُ وَكَانَ قَدْ عَرَفَ عَادَتِي ؟ فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ نَفْسِي لَا تَقْبَلُ هَذَا الطَّعَامَ وَلَا تَشْتَهِيهِ . فَقَالَ : لَعَلَّكَ شَبْعَانُ ، فَقُلْتُ : لَا وَاللهِ ، إِلَّا أَنِّي أَجِدُ فِي نَفْسِي نُفُوراً مِنْهُ ، فَأَشَارَ إِلَى غُلَامٍ فَدَخَلَ دَارَهُ وَجَاءَ بِمَائِدَةٍ عَلَيْهَا عِدَّةُ غَضَائِرَ (١) مِنَ الدَّجَاجِ فَلَمْ تَقْبَلْ نَفْسِي إِلَّا دَجَاجَةً وَاحِدَةً مَعْمُولَةً تَحْتَ رُمَّانٍ فَمَدَدْتُ يَدِي إِلَيْهَا وَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا .

قَالَ : فَرَأَيْتُ أَبَاكَ وَهُوَ يَتَعَجَّبُ فَقُلْتُ لَهُ : مَا الْخَبَرُ ؟ فَقَالَ : اعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ فِي هَذَا الطَّعَامِ شَيْءٌ أَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ وَجْهُهُ وَهُوَ مِنْ عَمَلِ مَنْزِلِي غَيْرَ هَذِهِ الدَّجَاجَةِ ؟ وَأَمَّا (٢) الْبَاقِي فَجَاءَنَا مِنْ جِهَةٍ مَا (٣) نَفْسِي بِهَا طَيِّبَةٌ ، وَتَشَارَكْتُ أَنَا وَهُوَ فِي تِلْكَ الدَّجَاجَةِ مَعَ بَعْضِ حَبِّ الرُّمَّانِ ، وَكَانَ أَبَاكَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ مَالِ الْجَوَالِي (٤) فَقَطْ ، فَجَعَلْتُ أَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ (٥) . فَقَالَ أَدَامَ اللهُ عُلُوَّهُ : اعْلَمْ أَنَّنِي لَا أَحْسَبُ هَذَا كَرَامَةً لِي وَلَكِنِّي أَعُدُّهُ نِعْمَةً مِنَ اللهِ فِي حَقِّ ، فَإِنَّ امْتِنَاعِي لَمْ يَكُنْ عَنْ شَيْءٍ كَرِهْتُهُ

---

(١) أي أشياء ناعمة طيبة ، مفردها غضيرة (٢) كانت العبارة في الأصل . والباق الخ

(٣) ما : نافية (٤) جمع جالية ، وقد تقدم معناها ، والغرض أنه يأكل مما ليس له

(٥) هذه الجملة من كلام الراوى ، وفاعل قال ضمير يعود على الصاحب « عبد الخالق »

وَلا رَيْبَ اطَّلَعَتْ عَلَيْهِ، ولَكِنْ كانَ انْقِبَاضاً وَنُفْرَةً لاأَعْرِفُ سَبَبَهَا، وَلا الإبَانَةَ على مَعْنَاها.

كَانَ صَفِيُّ الدِّينِ الأَسْوَدُ عِنْدَ نُزُولِ الْمَلِكِ الأَشْرَفِ بِحَلَبَ قَدْ عَرَضَ كِتَاباً لَهُ يُعْرَفُ بِالتَّذْكِرَةِ لِابْنِ مُسَيْلِمَةَ «وَكَانَ مَعْرُوفاً بِالْبَغَاء» أَحَدِ كُتَّابِ مِصْرَ يَشْتَمِلُ عَلَى قَوَانِينِ الْكِتَابَةِ وَآئِينِ الدَّوْلَةِ الْعَلَوِيَّةِ، وَأَخْبَارِ مُلُوكِ مِصْرَ الْمُتَقَدِّمِينَ فِي اثْنَيْ عَشَرَ مُجَلَّداً، وَدُفِعَ لَهُ فِيهِ مَاسَمَحَ بِبَيْعِهِ، وَعُرِضَ عَلَى الصَّاحِبِ الْكَبِيرِ جَمَالِ الدِّينِ الأَكْرَمِ أَدَامَ اللهُ عُلاهُ وَكَبَتَ أَعْدَاءَهُ، فَأَرَادَ شِرَاءَهُ وَاتَّفَقَ رَحِيلُ الْمَلِكِ الأَشْرَفِ إِلَى الْجَزِيرَةِ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ ثَمَنَهُ وَزِيَادَةً فِي مِثْلِهِ وَافِرَةً، فَلَمَّا عَلِمَ صَفِيُّ الدِّينِ أَنَّ الْمُشْتَرِيَ هُوَ الْوَزِيرُ أَدَامَ اللهُ عُلُوَّهُ ضَنَّ بِالْكِتَابِ وَاغْتَبَطَ، وَاحْتَجَّ وَخَلَطَ، وَزَعَمَ أَنَّهُ قَدَّمَهُ لِلْخِزَانَةِ الأَشْرَفِيَّةِ، فَكَتَبَ الصَّاحِبُ الْوَزِيرُ إِلَى أَبِي عَلِيٍّ الْقِيلَوِيِّ — وَكَانَ وَسِيطَهُ فِي شِرَا الْكِتَابِ الْمَذْكُورِ — مَاهَذِهِ نُسْخَتُهُ :

العِزُّ لِلَّهِ وَحْدَهُ

أَتَانِي كِتَابٌ مِنْ حَبِيبٍ فَشَاقَنِي
إِلَيْهِ وَزَادَ الْقَلْبَ وَجْداً عَلَى وَجْدِ
وَكِدْتُ لِمَا أَضْمَرْتُ مِنْ لَاعِجِ الْهَوَى
وَوَجْداً عَلَى مَافَاتَ أَقْضِي مِنَ الْوَجْدِ

وُقِفَ عَلَى الْكِتَابِ الْكَرِيمِ الصَّادِرِ عَنِ الْمَجْلِسِ السَّامِي الْقَضَائِيِّ الْعِزِّيِّ — لَازَالَتْ سِيَادَتُهُ تَتَجَدَّدُ، وَسَعَادَتُهُ تَتَأَكَّدُ، وَفَوَاضِلُهُ تَتَرَدَّدُ، وَفَضَائِلُهُ عَنْ مَجْلِسِهِ تَصْدُرُ، وَفِي الْمَجَالِسِ تُورَدُ — وَعَلِمْتُ إِشَارَتَهُ فِي التَّذْكِرَةِ الْمُسَيْلِمِيَّةِ وَالنِّيَّةَ فِي حَمْلِهَا إِلَى الْخِزَانَةِ الْأَشْرَفِيَّةِ، وَلَقَدْ زُفَّتْ إِلَى أَجَلِّ خَاطِبٍ، وَرَقِيَتْ بَعْدَ انْحِطَاطِهَا إِلَى أَسْنَى الْمَرَاتِبِ، فَإِنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ بِكْرَ فِكْرٍ أَكَابِرَ، فَمَا هِيَ إِلَّا بِنْتُ عِدَّةِ آبَاءٍ، وُلِدَتْ عَلَى فِرَاشِ عَوَاهِرَ، كَانَ عَلَيْهِ الْبِغَاءُ فِي الْعَالَمِينَ عَلَامَةً، أَعْنِي ابْنَ مُسَيْلِمَةَ ذَا الدَّاءِ، وَأَسْأَلُ اللهَ السَّلَامَةَ، فَجَاءَتْ ذَاتَ غَرَامٍ لَا يَشْفِي قَطْمَهَا إِلَّا السُّودَانُ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَكُونَ نَاكِحَهَا الثَّانِيَ لِاتِّفَاقِ الْأَلْوَانِ، وَأَبَى اللهُ لَهَا إِلَّا أَنْ تُهْدَى إِلَى الْمَقَرِّ

الأَرْفَع ، وَأَنْ يقعَ (١) الابْتِنَاءُ بِالْبَغْيِ مِنَ الْهُمَامِ الأَرْوَعِ ، وَلَسْتُ يَائِساً عَلى عدَمِهَا ، وَلَا رَاجِياً (٢) شِفَاءَ كَلْمِي بِكَلِمِهَا :

تَحَمَّلَ أَهْلُهَا عَنِّى فَبَانُوا عَلَى آثَارِ مَنْ ذَهَبَ الْعَفَاءُ

وَكَأَنِّى بِسَامِيهِ عَرَضَ هَذَا الْكِتَابَ عَلَى مَنْ لَا أُسَمِّيهِ ، فَقَرَنَ حَاجِبَيْهِ ، وَلَوَى شَفَتَيْهِ ، وَلَمَسَ عُثْنُونَهُ تَعَجُّباً ، وَأَمَالَ عِطْفَيْهِ تَظَرُّفاً وَقَالَ : أَذْكَرَنِي سَجْعَ الْكُهَّانِ ، وَأَسْمَعَنِي قَعْقَعَةَ صَعْصَعَةَ بْنِ صَوْحَانَ ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا يَصِفُونَ ، وَإِنَّمَا هِيَ نَفْثَةُ مَصْدُورٍ ، صَدَرَ نَافِثُهَا بِصَفْقَةِ الْمَغْبُونِ ، وَأَمَّا سُؤَالُهُ عَمَّا حَصَلَ مِنَ الْكُتُبِ فِي غَيْبَتِهِ ،

فَمَا هِيَ إِلَّا الْبَحْرُ جَادَ بِدُرِّهِ وَمَكَّنَنِي مِنْ لُجِّهِ وَسَوَاحِلِهْ

حَصَلَ مِنْ نَفَائِسِهَا أَعْلَاقٌ نَفِيسَةٌ ، وَأَضْحَتْ عَلَى بُغْضِ الْمُزَاحِمِ عَلَيْهَا مَوْقُوفَةً حَبِيسَةً ، لَوِ امْتَدَّتْ يَدٌ إِلَيْهَا لَشُلَّتْ ، وَلَوْ سَعَتْ إِلَيْهَا قَدَمٌ لَمَا أَقَلَّتْ جُثَّتَهَا وَلَا اسْتَقَلَّتْ ، لَا ابْنُ الْعَدِيمِ يَعْدَمُهَا ، وَلَا الْقَيْلَوِيُّ يُقَلِّلُهَا ، وَلَا الصَّفِيُّ يَصْطَفِيهَا ، وَلَا الْمُجِدُّ يَخْتَزِلُهَا ،

(١) كانت هذه الكلمة فى الأصل : « يضع » (٢) فى الأصل : « راج »

خَلَا لَكِ الْجَوُّ فَبِيضِى وَاصْفِرِى

وَتَعْدَادُ الْمُجَدَّدِ مِنْهَا يَقْصُرُ عَنْهُ الْكِتَابُ، وَيَقْصُرُ دُونَهُ الْخِطَابُ، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ.

٣٥ – أَبُو عَلِيٍّ الْمَنْطِقُ *

أبو على المنطق

لَمْ أَظفَرْ بِاسْمِهِ وَهُوَ مُجِيدٌ. قَالَ الْخَالِعُ: هُوَ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَتَنَقَّلَ عَنْهَا فِى الْبِلَادِ، وَمَدَحَ عَضُدَ الدَّوْلَةِ وَابْنَ عَبَّادٍ، وَانْقَطَعَ مُدَّةً مِنَ الزَّمَانِ إِلَى نَصْرِ بْنِ هَارُونَ، ثُمَّ إِلَى أَبِى الْقَاسِمِ الْعَلَاءِ بْنِ الْحَسَنِ الْوَزِيرِ، وَكَانَ جَيِّدَ الطَّبَقَةِ فِى الشِّعْرِ وَالْأَدَبِ عَالِماً بِالْمَنْطِقِ قَوِىَّ الرُّتْبَةِ فِيهِ، وَجَمَعَ دِيوَانَهُ وَكَانَ نَحْوَ أَلْفَ بَيْتٍ، وَمَوْلِدُهُ سَنَةَ سِتٍّ وَثَلَاثِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ، وَمَاتَ بِشِيرَازَ بَعْدَ سَنَةِ تِسْعِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ، وَكَانَ ضَعِيفَ الْحَالِ ضَيِّقَ الرِّزْقِ عَارِفاً [١].

« وَجَدْتُ عَلَى حَاشِيَةِ الْأَصْلِ مَاهٰذَا صُورَتُهُ: « إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ». مَايَحْتَاجُ مُسْتَدِلٌّ عَلَى أَنَّ الْأَرْزَاقَ لَيْسَتْ بِالاسْتِحْقَاقِ بِأَقْوَى مِنْ هٰذَا الرَّجُلِ، فَإِنَّهُ لَوْ وُفِّىَ حَقَّهُ لَكَانَ أَعْظَمَ قَدْراً مِنَ الْمُتَنَبِّى، لِأَنَّهُ لَيْسَ بِدُونِهِ فِى الشِّعْرِ جَوْدَةً وَصِحَّةَ مَعْنًى وَمَتَانَةَ لَفْظٍ وَحَلَاوَةَ اسْتِعَارَةٍ وَسَلَاسَةَ كَلَامٍ،

(١) رجل عارف: صبور

(*) لم نعثر على من ترجم له فيما رجعنا إليه من مظان

وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ مَزَّاحاً طَيِّبَ الْعِشْرَةِ حَادَّ النَّادِرَةِ، وَأُصِيبَ بِعَيْنِهِ فِي آخِرِ عُمْرِهِ، وَلَهُ فِي ذَلِكَ أَشْعَارٌ كَثِيرَةٌ. وَهَذَا الْقَدْرُ حَكَاهُ الْخَالِعُ مِنْ خَبَرِهِ وَلَمْ يَعْرِفْ غَيْرَ ذَلِكَ. وَمِنْ شِعْرِهِ:

يَارِيمُ وَجْدِي فِيكِ لَيْسَ يَرِيمُ (١)
بَيْنَ الضُّلُوعِ وَإِنْ رَحَلْتِ مُقِيمُ
لَا تَحْسَبِي قَلْبِي كَرَبْعِكِ خَالِياً
فِيهِ وَإِنْ عَفَتِ الرُّسُومُ رُسُومُ (٢)
تَبْلَى الْمَنَازِلُ وَالْهَوَى مُتَجَدِّدٌ وَتَبِيدُ خَيْمَاتٌ وَيَبْقَى الْخِيمُ (٣)

وَمِنْ شِعْرِهِ لَمَّا أُصِيبَ بِبَصَرِهِ:

مَا لِلْهُمُومِ إِذَا مَا هِيمُهَا (٤) وَرَدَتْ
عَلَيَّ لَمْ تُفْضِ مِنْ وِرْدٍ إِلَى صَدَرٍ (٥)
كَأَنَّمَا وَافَقَ الْأَعْشَابَ رَائِدُهَا
لَدَى حِمَايَ فَقَدْ أَلْقَى عَصَا السَّفَرِ
إِنْ يَجْرَحِ الدَّهْرُ مِنِّي غَيْرَ جَارِحَةٍ
فَفِي الْبَصَائِرِ مَا يُغْنِي عَنِ الْبَصَرِ

(١) أى لايفارق (٢) رسوم مبتدا خبره فيه (٣) الخيم: الطبع
(٤) الهيم جمع أهيم: الابل العطاش (٥) الورد: الاقبال على الماء، والصدر: الرجوع عن الماء. يريد أنها لاتفارقه

وَلَهُ فِي الْخَمْرِ :

وَقَهْوَةٍ مِثْلَ رَقْرَاقِ السَّرَابِ غَدَا
حَبَبُ الْمِزَاجِ عَلَيْهَا جَيْبَ مَزْرُورِ
تَخَالُ إِنْ بَثَّ فِيهَا الْمَاءُ لُؤْلُؤَهُ
مَا بَيْنَ عِقْدَيْنِ مَنْظُومٍ وَمَنْثُورِ
سَلَلْتَهَا مِثْلَ سَلِّ الْفَجْرِ صَارِمَهُ
وَأَحْجَمَ اللَّيْلُ فِي أَثْوَابِ مَوْتُورِ
كَأَنَّهَا إِذْ بَدَتْ وَالْكَأْسُ تَحْجُبُهَا
رُوحٌ مِنَ النَّارِ فِي جِسْمٍ مِنَ النُّورِ
إِذَا تَعَاطَيْتُ مَحْزُونًا أَبَارِقَهَا
لَمْ يَعْدُنِي كُلُّ مَفْرُوحٍ وَمَسْرُورِ
أُمْسِي غَنِيًّا وَقَدْ أَصْبَحْتُ مُفْتَقِرًا
كَأَنَّنِي الْمَلْكُ بَيْنَ النَّايِ وَالزِّيرِ (١)

وَلَهُ فِي نَصْرِ بْنِ هَارُونَ :

يَنَالُ عُلَاهُ مَا السُّهَا عَنْهُ عَاجِزٌ (٢)
وَيَسْقِي نَدَاهُ مَنْ تَجَاوَزَهُ الْقَطْرُ

---

(١) يقول : أمسى غنيا وكنت فقيرا فى الصباح ، وذاك من شربى الخمر ، فهو يشعر بالغنى والملك إذا ماصحبهما السماع (٢) يريد أن علاه ينال ما بعد حتى مايعجز السها عنه ، والسها : كوكب بعيد العلو ، وقوله : يسقى نداه ، الخ يريد به أن كرم هذا الممدوح وعطاءه يعمان جميع المحتاجين « عبد الخالق »

وَيَصْنَعُ فِى الْأَعْدَاءِ خَوْفُ انْتِقَامِهِ
مِنَ الْقَتْلِ مَالَا تَصْنَعُ الْبِيضُ وَالسُّمْرُ
لَأَعْطَيْتَ حَتَّى اسْتَنْزَرَ(١) الْغَيْثُ فِعْلَهُ
وَآمَنْتَ حَتَّى قِيلَ لَمْ يُخْلَقِ الذُّعْرُ

وَلَهُ فِيهِ أَيْضاً :

بِهِ تَخْضَرُّ أَغْصَانُ الْأَمَانِى وَيُجْبَرُ عِنْدَهُ الْأَمَلُ الْكَسِيرُ
وَتَبْسِمُ نَائِبَاتُ الدَّهْرِ عَنْهُ كَمَا ابْتَسَمَتْ عَنِ الشَّنَبِ الثُّغُورُ
لَقَدْ سَهُلَتْ بِكَ الْأَيَّامُ حَتَّى لَقَالَ النَّاسُ لَمْ تَكُنِ الْوُعُورُ
وَكَيْفَ أَخَافُ دَهْراً ؟ أَنْتَ بَيْنِى
وَبَيْنَ صُرُوفِهِ أَبَداً سَفِيرُ

وَلَهُ مِنْ قَصِيدَةٍ فِى ابْنِ مَعْرُوفٍ :

فِى الْبَرْقِ لِى شَاغِلٌ عَنْ لَمْعَةِ(٢) الْبَرْقِ
بَدَا وَكَانَ مَتَى مَا يَبْدُ لِى يَشُقِ(٣)
مُنَفِّراً(٤) سِرْبَ نَوْمِى عَنْ مَرَاتِعِهِ
كَأَنَّمَا اشْتُقَّ مَعْنَاهُ مِنَ الْأَرَقِ

---

(١) استنزر : استقل ، والمعنى أن الغيث بعد غيثه الذى يجود به قليلا ، فالضمير فى فعله راجع إلى الغيث (٢) كانت هذه الكلمة فى الأصل : ملة (٣) البرق الأول : مكان ، والثانى : برق السحاب (٤) حال من الفاعل فى بدا «عبد الخالق»

أَخُو ثَنَايَا الَّتِي بِالْقَلْبِ مُذْ ظَعَنَتْ
أَضْعَافُ مَا بِوِشَاحَيْهَا مِنَ الْقَلَقِ (١)

مَا كَانَ يَسْرِقُ مِنْ حِرْزِ الْجُفُونِ كَرًى
لَوْ أَنَّهُ مِنْ لَمَاهَا غَيْرُ مُسْتَرِقِ (٢)

وَلَهُ :

نَوَارُ وَهْيَ نَوَارٌ مِنْ مُسَاعَفَتِي
وَهِنْدُ وَهْيَ بِبِيضِ الْهِنْدِ تَعْتَصِمُ (٣)

تِرْبَانِ إِنْ تَكُ مِنَ جَدْوَاهُمَا تَرِبَتْ
يَدُ الْمُحِبِّ فَوِجْدَانُ الْهَوَى عَدَمُ (٤)

غَضُّ الْمُحَيَّا إِذَا لَاحَظْتَ وَجْنَتَهُ
كَادَتْ لِحَاظُكَ فِي دِيبَاجِهَا تَسِمُ (٥)

(١) أضعاف مبتدا خبره بالقلب ، والجملة صلة ، والثنايا : الأسنان ، وقد شبه البرق بأسنانها فى البريق واللمعان (٢) لو أن البرق لم يسرق من لماها لما قدر على سرقة الكرى من الجفون ، واللمى : سمرة فى الشفة ، أوشربة سواد فيها ، ويقصد الشاعر به بريق الأسنان ولمعانها (٣) نوار الأولى : علم ، والثانية بمعنى نفور ، وهند الأولى : علم ، والثانية : لحاظها إذ جعلها مثل سيوف الهند مضاء وإصابة

(٤) تربت يداه : لا أصاب خيرا وقيل معناها لله دره ، وقيل : أصاب التراب وعلى كل حال فالمراد أنه نال شيئاً ولكنه كالعدم ، و وجدان الهوى عدم مهما نلت من المحبوب ، فان جدواه لاتوازن شيئا مما يفعله الهوى (٥) غض المحيا : نضر الوجه ، ولحاظك تكاد تجعل علامة فى وجنتيه إذا نظرت إليه ، وفى هذا البيت تشبيه وجه بالديباج

« عبد الخالق »

وَلَهُ يُعَاتِبُ :

صَافَيْتُ فَضْلَكَ لَا مَا أَنْتَ بَاذِلُهُ
وَعَاشِقُ الْفَضْلِ يُغْرَى كُلَّمَا عُذِلَا

إِنِّى أُعِيذُكَ مِنْ قَوْلِى لِسَائِلِهِ [1] :
لَقَدْ حَدَوْتُ وَلَـٰكِنْ لَمْ أَجِدْ جَمَلَا

وَقَالَ فِى صَمْصَامِ الدَّوْلَةِ :

لَا عَضَّنِى الدَّهْرُ الْخَئُونُ فَإِنَّهُ
قَدْ كَانَ قَبْلَ رُقَاكَ صِلًّا أَرْقَمَا [2]

أَنْتُمْ بِحَارٌ جَارِيَاتٌ بِالنَّدَى
لَـٰكِنَّهَا فِى الرَّوْعِ جَارِيَةٌ دَمَا

وَلَهُ :

لَيْثٌ أَبُو شِبْلَيْنِ لَمْ يُسْلِمْهُمَا [3]
كَرَمُ الْجُدُودِ وَلَا سُمُوُّ جُدُودِ

لِلْمَجْدِ سِرٌّ لَمْ يُضَيَّعْ فِيهِمَا وَالرَّاحُ سِرٌّ فِى جَنَى الْعُنْقُودِ

---

(١) يريد السائل عن الفضل ، ومقول القول : لقد حدوت ، فهو يقول لصاحبه : إنى أربأ بك عن قولى : لقد حدوت ولكن الخ (٢) رقى جمع رقية ، والمراد : ما تعوذ به من عطاياه فأمن عض الدهر ، والصل الأرقم : الحية الخبيثة المنقطة

(٣) يريد : لم يسلمها إلى غير المطلوب ما ثبتا عليه من كرم الجدود وإقبال الحظوظ ، والبيت بعده غاية فى الابداع «عبد الخالق»

وَلَهُ :

أَكُفُّكُمُ تُعْطِي وَيَمْنَعُنَا الْحَيَا
وَأَقْلَامُكُمْ تَمْضِي وَتَنْبُو الصَّوَارِمُ
وَإِنَّ أَبَا الْعَبَّاسِ إِنْ يَكُ لِلْعُلَا
جَنَاحاً فَأَنْتُمْ لِلْجَنَاحِ الْقَوَادِمُ
مَضَى وَبَقِيتُمْ أَبْحُراً وَأَهِلَّةً وَزَهْرُ الرُّبَا يَبْقَى وَتَمْضِي الْغَمَائِمُ

وَلَهُ :

قَوْلِي يُقَصِّرُ عَنْ فَعَالِكْ تَقْصِيرَ جَدِّكَ عَنْ كَمَالِكْ
وَالْحَمْدُ يَنْبُتُ كُلَّمَا هَطَلَتْ سَمَاءٌ مِنْ نَوَالِكْ

وَلَهُ(١) :

كَأَنَّ دَبِيبَهَا فِي كُلِّ عُضْوٍ
دَبِيبُ النَّوْمِ فِي أَجْفَانِ سَارِي
صَدَعْتُ بِهَا رِدَاءَ الْهَمِّ عَنِّي كَمَا صَدَعَ الدُّجَى وَضَحُ النَّهَارِ

وَلَهُ مِنْ قَصِيدَةٍ فِي عَضُدِ الدَّوْلَةِ يَذْكُرُ الصَّدْقَ :

مَا زِلْتَ تُنْصِفُ فِي قَضَايَاكَ الْعُلَا
قُلْ لِي : فَمَا بَالُ الضُّحَى يَتَظَلَّمُ ؟

(١) يظهر أنه يصف الخمر

أَهْدَيْتَ رَوْنَقَهُ إِلَى جِنْحِ الدُّجَى
فَاعْتَنَّ (١) أَشْهَبَ وَهْوَ طِرْفٌ أَدْهَمُ

حَتَّى كَأَنَّ اللَّيْلَ صُبْحٌ مُشْرِقٌ
وَكَأَنَّ ضَوْءَ الصُّبْحِ لَيْلٌ مُظْلِمُ

هِيَ لَيْلَةٌ لَبِسَتْ رِضَاكَ فَأَشْرَقَتْ
مِنْ بَعْدِ مَا كَانَتْ بِسُخْطِكَ تُظْلِمُ

مَا كَانَ فِي ظَنِّ امْرِىءٍ مِنْ قَبْلِهَا (٢)
أَنَّ الْمُلُوكَ عَلَى اللَّيَالِي تَحْكُمُ

وَلَهُ :

أَنَامَ جُفُونَ الْحِقْدِ وَالْحِقْدُ سَاهِرٌ
وَأَيْقَظَ طَرْفَ الْمَجْدِ وَالْمَجْدُ نَائِمُ

إِذَا أَشْكَلَتْ يَوْماً لُغَاتُ انْتِقَامِهِ
عَلَى مَعْشَرٍ فَالْمُرْهَفَاتُ تَرَاجِمُ

وَمَنْ شَاجَرَ الْأَيَّامَ عَنْ مَأْرَاتِهَا
فَأَمْضَى لِسَانَيْهِ الْقَنَا وَالصَّوَارِمُ

---

(١) اعتن : بدا أمامك واعترض . والشهب : بياض يصدعه سواد

(٢) كانت هذه الكلمة فى الأصل : بعدها

وَلَهُ مِنْ قَصِيدَةٍ :

وَقَفْنَا بِهَا وَالشَّوْقُ يَفْرِى قُلُوبَنَا
لَوَاعِجُهُ وَالصَّبْرُ غَيْرُ مُطَاوِعِ

سُقِيتِ (١) رُجُوعَ الظَّاعِنِينَ فَإِنَّنَا
نُجِلُّكَ عَنْ سُقْيَا الْغَمَامِ الْهَوَامِعِ

فُجِعْنَا بِأَبْكَارِ الْمُنَى يَوْمَ خَاطَبَتْ
رُبُوعَكَ أَبْكَارُ الْخُطُوبِ الْفَوَاجِعِ

وَمِنْهَا :

وَخَيْلٍ إِذَا كَظَّ (٢) الطِّرَادِ أَرَاحَهَا
أَصَابَتْ بِحَرِّ الطَّعْنِ بَرْدَ الشَّرَائِعِ

تَكَادُ تَرَى بِالسَّمْعِ حَتَّى كَأَنَّمَا
نَوَاظِرُهَا مَخْلُوقَةٌ فِى الْمَسَامِعِ

إِذَا مَا دَجَا لَيْلُ الْكَرِيهَةِ أَطْلَعَتْ
نُجُومَ قَنًا يَغْرُبْنَ بَيْنَ الْأَضَالِعِ

---

(١) يدعو لها بالسقيا ، وهذه السقيا التى يقصدها هى رجوع أهلها الظاعنين إليها

(٢) كظ الطراد : شدته ، والشرائع جمع شريعة : موارد الماء ، يقول الشاعر : إن هذه الخيل إذا أسلمتها شدة الطراد والقتال إلى الراحة بعد انتهاء الحرب فإنها تصيب أى تجد بدلا من حر الطعن برد الشرائع .

وَلَهُ :

عَلَى عَجَلٍ أَلَمَّ بِهِ الْخَيَالُ ... فَإِنْ تَرَاهُ بَعْدَكُمْ مُحَالُ

فَبَاتَ مُعَانِقًا وَالْجِيدُ وَهْمٌ ... وَمُرْتَشِفًا وَأَحْلَى الرِّيقِ آلُ

لَدَى لَيْلٍ كَأَنَّ النَّجْمَ فِيهِ ... عَلَى خَدِّ الظَّلَامِ الْجَوْنِ خَالُ

يُضَامُ الرُّمْحُ لَيْسَ لَهُ مَدَارٌ ... وَيَكْبُو الطَّرْفُ لَيْسَ لَهُ مَجَالُ

طُبِعْتُ عَلَى الْوَفَاءِ الْمَحْضِ قِدْمًا ... كَمَا طُبِعَتْ عَلَى الْقَطْعِ النِّصَالُ

وَمِنْهَا :

تَوَسَّمَتِ الْقَوَابِلُ فِيهِ مَجْدًا ... فَقَالَتْ : أَوَّلُ الْبَدْرِ الْهِلَالُ

وَأَطْرَبُ مَا يَكُونُ إِلَى الْعَطَايَا ... إِذَا غَنَّى فَأَسْمَعَهُ السُّؤَالُ

مُصَاحِبُ هِمَّةٍ خَفَّتْ عَلَيْهَا ... مِنَ الْأَيَّامِ أَعْبَاءٌ ثِقَالُ

كَرُمْتَ فَلَوْ سَأَلْنَاكَ الْمَسَاعِي (١) ... وَهَبْتَ وَغَيْرُهَا تَهَبُ الرِّجَالُ

وَأَكْرَمُ مَنْ قَرَاكَ فَتًى عَلَيْهِ ... بَنُو الدُّنْيَا وَأُمُّهُمُ عِيَالُ

وَقَالَ فِي الْوَزِيرِ ابْنِ صَالِحَانَ :

عَلَى الطَّيْفِ أَنْ يَغْشَى الْعَمِيدَ الْمُتَيَّمَا

وَلَيْسَ عَلَيْهِ رَدُّ نَوْمٍ تَصَرَّمَا

---

(١) يريد مساعيه التى يسمو إليها وهى مما يضن به الانسان ولكنه سمح بكل شىء وغيره من الرجال لا يهب كما تهب ، وإنما يعطى غير المساعى ، ولهذا جعله أكرم قار ، وجعل العالم من بنين وأمهات عيالا عليه .

خَيَالٌ سَرَى يَبْغِي خَيَالًا وَمُغْرَمٌ
بِلُبْسِ قَمِيصِ اللَّيْلِ يَمَّمَ مُغْرَمَا

دَنَا وَالظَّلَامُ الْجَوْنُ غَضٌّ شَبَابُهُ
فَأَهْدَى إِلَيْهِ الشَّيْبَ لَمَّا تَبَسَّمَا[1]

أَتِلْكَ اللَّآلِي مِنْ ثَنَايَاهُ أُلِّفَتْ
عَلَيْهِ عُقُودًا أَمْ تَقَلَّدَ أَنْجُمَا[2]

أَمَا وَالْحِمَا إِنَّ الْكَرَى لَسَمِيُّهُ
عَلَى مُقْلَتِي مُذْ أَخْلَقَتْ جِدَّةُ الْحِمَا[3]

لَأَشْكَلَ حَتَّى مَا يَعُودُ بَنُو الْهَوَى
مَعَالِمَهُ الْأَنْضَاءَ إِلَّا تَوَهُّمَا[4]

وَلَيْلٍ أَكَلْنَا الْعِيسَ تَحْتَ رِوَاقِهِ
بِأَيْدِي سُرًى تُثْنِي الرَّوَاسِمَ أَرْسُمَا[5]

(١) يقول : جاءه الخيال والليل حالك السواد ، فلما تبسم أضاء الظلام، فالشيب مراد به الضوء (٢) ومن هنا يقول : أثنايا المحبوب الشبيهة باللآلىء نظمت عليه عقودا أم ما نراه نجوما ؟ وهذا تجاهل العارف . (٣) يقسم بحمى حبيبه أن الكرى مذ أخلقت جدة الحمى برحيل أهله إذ صار كالثوب الخلق لأشكل ، فجواب القسم فى البيت التالى : لأشكل . (٤) يريد صار مشكلا حتى أن المحبين لا يعودون معالمه المنزلة إلا توهما ، وأما أنهم ينامون فلا شىء من هذا . (٥) أكلنا العيس تجوز مراد به : أنهم ركبوا العيس إذ رواق الليل ممدود ، وكأن الآكل أيدى السرى التى جعلت العيس كالرسوم الباقية من الديار إذ هزلت من السرى ، والرواسم : الابل « عبد الخالق »

بَهِيمٌ نَضَوْنَا بُرْدَهُ وَهُوَ مُخْلِقٌ
وَكُنَّا لَبِسْنَاهُ قَشِيباً مُسَهَّمَا [١]

هَدَاهَا [٢] إِلَى مَغْنَى الْوَزِيرِ نَسِيمُهُ
وَمِنْ شَرَفِ الْأَخْلَاقِ أَنْ تَتَنَسَّمَا

يَصُوبُ عَلَى الْعَافِينَ مُزْنُ بَنَانِهِ   فَيُكْبِتُ حُسَّاداً وَيُنْبِتُ أَنْعُمَا

وَلَهُ :

غَيُّ الْهَوَى لِلصَّبِّ غَايَةُ رُشْدِهِ   فَذَرِيهِ مِنْ حَلِّ الْمَلَامِ وَعَقْدِهِ
قَرُبَتْ مَرَاكِبُ وَعْظِهِ وَلَجَاجُهُ   فِي الْحُبِّ يُنْتِجُ قُرْبُهُ مِنْ بُعْدِهِ
وَاللَّيْلُ تُكْحَلُ مُقْلَتَاهُ بِإِثْمِدٍ   وَالْأُفْقُ يُزْهِرُ دُرُّهُ [٣] فِي عِقْدِهِ
فَكَأَنَّ زِنْجِيًّا تَبَسَّمَ ثَغْرُهُ   إِسْفَارُ ذَاكَ اللَّوْنِ فِي مِرْبَدِهِ [٤]

تَعَبُ الْفَتَى جِسْرٌ إِلَى [٥] رَاحَاتِهِ
يُفْضِي وَنَهْضَةُ جَدِّهِ فِي جِدِّهِ

وَإِذَا ابْنُ عَزْمٍ لَمْ يَقُمْ مُتَجَرِّداً   لِلْحَادِثَاتِ فَصَارِمٌ فِي غِمْدِهِ

---

(١) البهيم : الليل ، والقشيب : الجديد ، والمسهم : المخطط ، ونضاه من برده : جرده منه (٢) الضمير فى هداها راجع للعيس (٣) يقول : إن الليل قد حلك سواده كأنما كحل بإثمد ، والأفق أزهرت نجومه الدرية (٤) جملة تبسم خبر كأن ، وكأن ومعموليها خبر مقدم ، وإسفار مبتدأ مؤخر ، يريد أن الليل مظلم تسفر فيه النجوم الزاهرة كأنه زنجى يبتسم ، فشبه إسفار ضوء النجوم فى مربد الليل الحالك السواد بزنجى يبتسم (٥) إلى راحاته متعلق بيفضى « عبد الخالق »

فَالسَّيْفُ سُمّيَ في النَّوائِبِ عُدَّةً لِمَضَائِهِ فيهنَّ لا لِفرِنْدِهِ

وَمِنَ الْمَدْحِ :

نُثْنِي عليْهِ وإنْ تَكرَّمَ غيْرُهُ فتَراهُ مشكُورًا بما لَمْ يُسْدِهِ

عِلْمًا بأَنَّ بَنِي السَّماحِ تعلَّمُوا مِنْهُ فَكُلُّ صَنِيعَةٍ مِنْ عِنْدِهِ

وَلَهُ في عضُدِ الدَّوْلَةِ :

أَرَبْعَ الصِّبَا غَالَتْكَ بعْدِي يدُ الصَّبَا

وَصَعَّدَ طرفُ الْبَيْنِ فيكَ وَصَوَّبَا؟؟

لَئِنْ رَمَقَتْ عَيْنُ النَّوَى حُورَ عِينِهِ(1)

فَبِنَّ لَقَدْ غَادَرْنَ قَلْبًا مُعَذَّبَا

تَأَوَّدْنَ قُضْبَانًا وَلُحْنَ أَهِلَّةً

وَغَازَلْنَ غِزْلانًا وَلاحَظْنَ رَبْرَبَا

وَمِنْهَا :

رَدَدْتَ شَبَابَ الْمُلْكِ نَضْرًا وَلَمْ يَزَلْ

بِغَيْرِكَ مُغْبَرَّ الْمَفَارِقِ أَشْيَبَا

فَلَوْ كَانَتِ الأَيَّامُ قَبْلَكَ رَحَّبَتْ

بِشَخْصٍ لَقَالَتْ إِذْ تَرَاءَيْتَ مَرْحَبَا

---

(1) يريد العين جمع عيناء : واسعة العين الشبيهات بالحور

وَلَهُ قصيدَةٌ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الْعَلَّافِ يَتَشَوَّقُهُ :

كَأَنَّ الْبَيْنَ تِرْبُ الْمَوْتِ لَكِنْ
يُوَارِي فِي الضَّنَا لَا فِي الثِّيَابِ

وَلَوْلَا أَنَّ فَرْطَ الشَّوْقِ وَاشٍ
بِحُبِّكَ لَاسْتَزَدْتُكَ ضِعْفَ مَا بِي

جَمَعْتَ غَرَائِبَ الْآدَابِ حَتَّى إِذَا قُرِنَتْ إِلَى النِّعَمِ الرِّغَابِ

ظَلِلْتُ مُنَادِياً فِي كُلِّ أُفْقٍ بِصَوْتِ الْبَذْلِ حَيَّ عَلَى انْتِهَابِ

وَلَهُ مِنْ قَصِيدَةٍ فِي الْعَلَاءِ بْنِ الْحَسَنِ الْوَزِيرِ :

أَعَاطِي كُئُوسَ اللَّهْوِ كُلَّ غَرِيرَةٍ
إِذَا مَا انْثَنَتْ قَدَّتْ فُؤَادَكَ بِالْقَدِّ

تُلَاحِظُ عَنْ سِحْرٍ وَتُسْجِرُ عَنْ دُجًى
وَتُسْفِرُ عَنْ صُبْحٍ وَتَبْسِمُ عَنْ عِقْدِ (١)

إِذَا نَثَرَتْ أَيْدِي الصِّبَا دُرَّ لَفْظِهَا
نَظَمْنَ عَلَى الْأَحْشَاءِ عِقْدًا مِنَ الْوَجْدِ

كَمَا نَظَمَتْ كَفَّا أَبِي الْقَاسِمِ الْعُلَا
نِظَامَ لَآلِي السِّمْطِ بِالنَّثْرِ لِلرِّفْدِ

(١) من أبدع أنواع التقسيم ، إذ لحاظها سحر ، وشعرها المسجر ليل ، ووجهها صبح ، ومبسمها عقد من الدر ، وشعر مسجر : مسترسل

إِذَا اتَّصَلَتْ أَقْلَامُهُ بِظُبَاتِهِ
تَقَطَّعَ مَا بَيْنَ الطَّوَائِلِ وَالْحِقْدِ
فَلَا يَهْنَأِ الْأَعْدَاءَ أَنَّ مَكَانَهُ
خَفِيٌّ فَقَدْ تَخْفَى الشَّرَارَةُ فِي الزَّنْدِ

وَلَهُ :

نِعَمٌ لَوَ أَنَّ النَّاسَ وُرْقُ حَمَائِمٍ
لَغَدَتْ لَهُمْ بَدَلًا مِنَ الْأَطْوَاقِ
وَمَوَاهِبٌ تَمْضِي وَيَبْقَى ذِكْرُهَا سِمَةً عَلَى وَجْهِ الزَّمَانِ الْبَاقِي

وَلَهُ :

أَرَاعَكَ صِدْقُ الطَّيْفِ أَمْ كَذِبُ الْحُلْمِ
وَكَمْ مِنْ خَيَالٍ وَشْكُ إِلْمَامِهِ لَمَمْ
سَرَى وَالدُّجَى قَدْ حَالَ صِبْغُ قَمِيصِهِ
وَفِي ذَيْلِهِ نَارٌ مِنَ الصُّبْحِ تَضْطَرِمْ
كَأَنَّ نُهُوضَ الْفَجْرِ فِي أُخْرَيَاتِهِ
بَدَاءُ بَيَاضِ الشَّيْبِ فِي أَسْوَدِ اللِّمَمْ
أَمِينٌ عَلَى سِرِّ الْمَعَالِي وَسَيْفُهُ
عَلَى مُهَجِ الْأَعْدَاءِ فِي الرَّوْعِ مُتَّهَمْ

وَلَهُ مِنْ قصيدةٍ فِي الدُّلْجِيّ

لَأَصْبِرَنَّ عَلَى مَاسَامَنِي زَمَنِي
صَبْرُ الكَرِيمِ عَلَى الإِقْلالِ إِكْثَارُ

مَدَحْتُ قَوْمًا فَإِنْ خَاضَ اللِّسَانُ بِهِمْ
فَسَوْفَ يَعْقُبُ ذَاكَ الخَيْضَ أَطْهَارُ

إِذَا المُعَمَّرُ تِرْبُ المَجْدِ أَلْثَمَنِي رُكْنِي يَدٍ ثَمَدُ مَاتَسْدِيهِ تَيَّارُ[(١)]
يَدٌ هِيَ الغَيْثُ أَوْ فِيهَا مَوَاطِنُهُ فَكُلُّ مَاصَافَحَتْهُ فَهُوَ نُوَّارُ
هُنَاكَ أَخْطَبُ وَالعَلْيَا مَنَابِرُهَا مَنْصُوبَةٌ وَجَبِينُ الدَّهْرِ حُوَّارُ[(٢)]

وَلَهُ :

وَأَبْنَاءِ حَاجَاتٍ أَدَارَتْ عَلَيْهِمُ
يَدُ السَّيْرِ كَأْسَ الأَيْنِ وَاللَّيْلُ دَامِسُ

يَمِيلُونَ فَوْقَ العِيسِ حَتَّى كَأَنَّهُمْ
شُرُوبٌ تَسَاقَى وَالرِّحَالُ المَجَالِسُ

أَصَاخُوا وَقَدْ غَنَّيْتُهُمْ بِاسْمِ مَاجِدٍ
لِأَقْلَامِهِ تَعْنُو الرِّمَاحُ المَدَاعِسُ[(٣)]

---

(١) إذا مكنني من لثم ركني يده فهناك أخطب ، وجعل ثمد يده أى قليلها جعله تيارا ، وأصل الثمد : البقية القليلة من الماء (٢) الحوار : الدقيق الأبيض يشبه به جبين الدهر (٣) رمح مدعس : كثير الطعن

وَلَمَّا بَلَغْنَاهُ تَهَلَّلَ عَارِضٌ سَقَى صَوْبُهُ الدُّنْيَا وَمَثْوَاهُ فَارِسُ

وَقَالَ فِي الْوَزِيرِ ابْنِ صَالِحَانَ

هُوَ الْبَرْقُ إِلَّا زَفْرَةٌ تَتَضَرَّمُ وَعَبْرَةُ مُشْتَاقٍ تَسُحُّ وَتَسْجُمُ

تَبَسَّمَ حَتَّى كَادَ يَبْكِي وَرُبَّمَا تَرَاءَى فَأَبْكَى الْبَارِقُ الْمُتَبَسِّمُ (١)

وَلَمَّا أَلَمَّ الطَّيْفُ شَكَّكَ أَيْنَا لِدِقَّةِ شَخْصَيْنَا الْخَيَالُ الْمُسَلِّمُ ؟

مَزَجْتُ كُئُوسَ الرِّيقِ مِنْهُ بِأَدْمُعِي

فَبِتُّ أُسَقَّى قَهْوَةً مَزْجُهَا دَمُ

فَلَيْتَ فُؤَادِي ذَابَ فِي جَفْنِ مُزْنَةٍ

بِهَا رُوِّيَتْ دُورٌ ظِمَاءٌ وَأَرْسُمُ (٢)

وَخَرْقٍ (٣) رَحِيبِ الْبَاعِ لَوْ نِيطَ طُولُهُ

بِعُرْوَةِ عُمْرٍ لَمْ تَكَدْ تَتَصَرَّمُ

رَمَيْتُ فَمَا أَشْوَيْتُ (٤) ثُغْرَةَ نَحْرِهِ

وَمَا كُلُّ مَا تَرْمِي بِهِ الْعِيسَ يُسْهِمُ

---

(١) التركيب : ربما تراءى البارق الباسم فأبكى . (٢) يتمنى أن يكون فؤاده ذائبا فى جفن مزنة أروت رسوما ودورا ظماء ، فيكون قد أروى بقلبه دار الحبيبة

(٣) الخرق : الصحراء ، وصفها بالسعة والطول حتى أنها لو نيطت بعمر ، فان العمر يتصرم وهى لاتكاد تتصرم (٤) أشوى الجمل : أصاب شواه ، والشوى : ما ليس مقتلا كالأطراف ، وقحف الرأس ، وثغرة النحر ، فهو يقول : رميت بجملى فى هذه الفلاة فما تعب ، ولذلك يقول : ليس كل ما ترمي به العيس يجعلها ضامرة ، ويسهم : معناه يصيبها بالداء « عبد الخالق »

بَلَغْنَا بِهَا مَغْنَاهُ وَهِيَ أَهِلَّةٌ
فَلَاحَتْ لَنَا أَخْلَاقُهُ وَهِيَ أَنْجُمُ

وَلَهُ يَمْدَحُ :

يُصِيخُ إِلَى اللَّيْلِ حَتَّى كَأَنَّمَا سُرَى إِبِلِي فِي مَسْمَعَيْهِ سِرَارُ
وَكَمْ خَامِلٍ أَمْطَاهُ حَارِكَ[1] رُتْبَةٍ
حَرَاكٌ وَيَعْلُو التُّرْبُ حِينَ يُثَارُ
فَأَلَيْتَ أَنْ تَقْرِرْ[2] عُيُونُ رَكَائِبِي
وَلَا غَرْوَ غَايَاتُ السُّيُولِ قَرَارُ
مَدَدْتَ إِلَى طَعْنِ الْكُمَاةِ عَزَائِمًا
طِوَالُ الْعَوَالِي بَيْنَهُنَّ قِصَارُ
فَمَا كَرُمَتْ كَرْمَانُ حَتَّى افْتَكَكْتَهَا
وَلَا أَصْحَرَتْ حَتَّى ارْتَجَتْكَ صُحَارُ[3]
إِذَا صَدَّ وَجْهُ الْبَحْرِ عَنْهَا تَيَقَّنَتْ
بِأَنَّكَ بَدْرٌ فِي يَدَيْهِ بِحَارُ

(١) الحارك : أعلى الكاهل ، (٢) اضطر الشاعر أن يقول : تقرر بالسكون

(٣) صحار وكرمان : مدينتان ، يقول : إن كرمان لم تهدأ حتى افتككتها من العدو ، وما أصحرت عزائمك : أى برزت إلى الصحراء حتى رجتك صحار أن تمتلكها

« عبد الخالق »

وَلَهُ :

جَذِلٌ بِمَا يُعْطِيهِمُ فَكَأَنَّمَا   أَخَذَ المُؤَمِّلِ مِنْ نَدَاهُ عَطَاءُ

عَفْوٌ تَسِيلُ بِهِ الشِّعَابُ كَأَنَّمَا   فِيهِ الذُّنُوبُ وَقَدْ طَفَوْنَ غُثَاءُ

وَلَهُ :

وَلَمَّا ٱسْتَرَدَّ الصُّبْحُ عَارِيَةَ الدُّجَى   تَوَلَّى بَطِيئًا وَالدُّمُوعُ عِجَالُ

وَلَمْ أَرَ لِٱبْنِ الشَّوْقِ كَاللَّيْلِ سُلَّمًا   إِلَى حَاجَةٍ فِى الصُّبْحِ لَيْسَ تُنَالُ

كَرِيمٌ تَبَقَّتْ مِنْ سَجَايَاهُ فَضْلَةٌ   فَأَضْحَتْ عَلَى خَدَّيْهِ وَهِيَ جَمَالُ

وَلَهُ :

وَدَارِ وَغًى ثَنَتْهَا مُقْرَبَاتٌ   بَرَاقِعُهَا شُحُوبٌ أَوْ سُهُومُ

نَزَلْتَ بِعَسْكَرٍ لِلطَّيْرِ فِيهِ   عَسَاكِرُ حَوْلَ حَوْمَتِهَا تَحُومُ

بِحَيْثُ سَرَائِرُ الْأَغْمَادِ تَبْدُو   وَقَلْبُ النَّقْعِ لِلسَّارِى كَتُومُ

تَصَالَحَتِ الْحُتُوفُ عَلَى الْأَعَادِى   وَبِيضُكَ لِلطُّلَى مِنْهَا خُصُومُ

إِذَا أَوْرَدْتَهَا صَدَرَتْ رِوَاءً   وَخَلَّتْ هَامَ قَوْمٍ وَهْيَ هِيمُ

وَلَهُ :

إِنْ كَتَمَ اللَّيْلُ حَدَثَ الْعَبِقُ   عَنْهَا وَبَعْضُ الْحَدِيثِ يُنْتَشَقُ

رُدِّي عَلَى الْعَيْنِ فهي طَامِعَةٌ   كَأسَ رُقَادٍ أَرَاقَهَا الْأَرَقُ

وَلَهُ

عَلَيَّ إِذَا غَنَّيْتُ أَنْ تَطْرَبَ الْعُلَا   فَلَيْتَ فُؤَادِي لِلسُّرُورِ مُنَادِمُ

وَيَجْهَلُ قَوْلِي فِيكَ قَوْمٌ وَلَمْ يَكُنْ

لِيَفْهَمَ أَيْكٌ مَا تَقُولُ الْحَمَائِمُ

وَلَهُ :

غَدَاةَ صَدَقْتُ فَكَذَّبْتَنِي   وَلَوْلَا الشَّقَاوَةُ لَمْ أَصْدُقِ

وَقَدْ كُنَّ مَا طَلْنَنَا حِقْبَةً   فَلَيْتَ الْمِطَالَ عَلَيْنَا بَقِي

وَلَهُ :

دِمَنٌ مَرِضْنَ مِنَ الْبِلَى فَكَأَنَّمَا   تَأْتِي الرِّيَاحُ طُلُولَهَا عُوَّادَا

مِنْ كُلِّ مُدْنَفَةِ الرُّسُومِ كَأَنَّهَا

مِنْ قَبْلُ كَانَتْ لِلْمُحِبِّ فُؤَادَا

إِنْ لَمْ يَطِرْ شَرَرُ السُّرَى مِنِّي فَلَا

قَدَحَتْ يَدِي لِلْمَكْرُمَاتِ زِنَادَا

فِي كُلِّ لَيْلٍ ثَاكِلٍ (١) لِصَبَاحِهِ

وَكَأَنَّمَا كُسِيَ الظَّلَامَ حِدَادَا

---

(١) ثاكل . صفة لليل بمعنى فاقد يريد استمرار السرى وطول الليل ، فكنى عن ذلك بقوله ثاكل

دَاجٍ إِذَا زُرَّتْ عَلَى جُيُوبُهُ   كُنْتُ الْحُسَامَ وَكَانَتِ الْأَغْمَادَا

أَحْسِنْ بِأَخْلَاقِ الظَّلَامِ وَإِنْ جَلَا(١)

وَجْهًا تَعَوَّضَ بِالشُّحُوبِ سَوَادَا

جَمَلٌ وَلَكِنْ مَا يَلَذُّ رُكُوبَهُ

إِلَّا امْرُؤٌ يَجِدُ الْمُنَى أَقْتَادَا

يَلْقَاهُ نَشْوَانَ الْجُفُونِ وَإِنَّمَا   بَاتَتْ مُدَامَةُ مُقْلَتَيْهِ سُهَادَا(٢)

وَلَهُ :

مَنَازِلَ ذَاتِ الْوَقْفِ إِنِّى لَوَاقِفٌ

عَلَيْكِ وَمَاءُ الْقَلْبِ لَا الدَّمْعَ ذَارِفُ

بَلِيتِ وَلَمْ يَبْلَ الْجَدِيدُ مِنَ الْهَوَى

وَحُلْتِ وَمَا حَالَ الْغَرَامُ الْمُحَالِفُ

أَتَرْقَا جُفُونِى وَالْحَيَا عَنْكِ مُمْسِكٌ

وَيَرْفُقُ وَجْدِى وَالْبِلَى بِكِ عَانِفُ ؟

وَقَالُوا انْتَشَى مِنْ غَيْرِ كَأْسٍ وَلَوْ سُقُوا

هَوًى لَدَرَوْا أَنَّ السُّلَافَ السَّوَالِفُ

ضَعَائِفُ كَرَّاتِ اللَّحَاظِ وَإِنَّمَا   تُبَرِّحُ بِالْجَلْدِ الْقَوِىِّ الضَّعَائِفُ

---

(١) كانت هذه الكلمة فى الأصل : « خلا »   (٢) كانت هذه الكلمة فى الأصل : سوادا

وَلَهُ :

لَيْتَ النَّوَى تَرَكَتْنَا فِي يَدِ الْعَذَلِ
فَالسُّقْمُ بُؤْسٌ وَلَكِنْ لَيْسَ كَالأَجَلِ
صَارَ الصُّدُودُ لَهَا أُمْنِيَّةً مَعَهَا
وَمَنْ لِذَائِقِ طَعْمِ الْمَوْتِ بِالْعِلَلِ؟
وَالقَلْبُ أَوَّلُ مَنْ شَطَّ الْفِرَاقُ بِهِ
فَأَيْنَ مَسْرَحُ هَذَا الْخَوْفِ وَالْوَجَلِ؟

وَلَهُ فِي عَضُدِ الدَّوْلَةِ :

لَوْ أَنَّ بَعْضَ سَمَاحِهَا فِي مُزْنَةٍ
يَوْماً لَأَوْرَقَ مِنْ نَدَاهَا الْجَلْمَدُ
يَا رَاقِدَ الْأَسْيَافِ إِلَّا عَنْ وَغًى
جَفْنُ الْوَرَى فِي حَوْمَتَيْهِ مُسَهَّدُ
مَا بَالُ خَيْلِكَ مَا تُقَاتُ سِوَى السُّرَى
وَظُبَاكَ فِي غَيْرِ الطُّلَى مَا تُغْمَدُ
هَادَاتُ بِيضِ الْهِنْدِ عِنْدَكَ أَنْ تُرَى
حُمْراً كَمَا مَسَّ اللُّجَيْنَ الْعَسْجَدُ

وَلَهُ :

وَلَمْ أَرَ مِثْلَ الدَّهْرِ مُسْدِىَ نِعْمَةٍ
يَجُودُ بِهَا عَفواً وَيَأْخُذُهَا غَصبَا

إِذَا كُنْتَ عُذْرَ الدَّهْرِ فِى سُوءِ مَاجَنتْ
يَدَاهُ فَذَنْبٌ أَنْ تَعُدَّ لَهُ ذَنْبَا[1]

وَلَهُ :

مُضِىءُ فِرِنْدِ الْقَوْلِ مَاضِى شَبَاتِهِ
فَلَوْ لَمْ يَكُنْ وَشْياً لَقِيلَ مُهَنَّدُ

يُفَارِقُ فَاهُ وَهُوَ فِى الْحُسْنِ جَوْهَرٌ
وَيَلْقَى عِدَاهُ وَهُوَ فِى الْوَقْعِ جَلْمَدُ

وَلَهُ :

خِرْقٌ[2] تَصُولُ يَدُ الزَّمَانِ فَيَتَّقِى
وَيَجُودُ أَقْوَامٌ سِوَاهُ فَيُشْكَرُ

مُعْطٍ عَلَى شُكْرِ الصَّنِيعِ وَكُفْرِهِ
مَا كُلُّ مَا سَقَتِ الْغَمَائِمُ يُثْمِرُ

---

(١) المراد أنه لا يحق لك أن تعد للدهر ذنبا إذا كنت سببا فى سوء عمله واعتذر بأنك السبب (٢) الخرق : السيد الكريم ، والمراد أن الزمان من جنده ، فاذا صالت يد الزمان اتقى الناس هذا السيدالكريم ، كما أنه يشكر إذا جاد غيره « عبد الخالق »

دامَتْ لكَ النعمَا ودُمتَ لِآملٍ
آرَابُهُ عَنْ رَوْضِ غيرِكَ تَذْعَرُ (١)
وَبَقيتَ ما بَقِيَ القَرِيضُ فإنَّهُ عَلَقٌ عَلى كَرِّ الخُطُوبِ مُعَمَّرُ

وَلَهُ :

قَرْمٌ يَجُدُّ الحَيَا مِنْ جُودِهِ خَجَلُ
كَمَا بِقَلْبِ الرَّدَى مِنْ بَأْسِهِ وَجَلُ
فِى رَأْيِهِ مِنْ غِرَارَىْ سَيْفِهِ عِوَضٌ
وَفِى عَطَايَاهُ مِنْ صَوْبِ الحَيَا بَدَلُ

وَلَهُ :

ظَلَّتْ تَعَضُّ لِتَوْدِيعِى أَنَامِلَهَا نَخِلْتُهَا نَظَمَتْ دُرًّا عَلَى عَنَمِ
يَا رُبَّ لَا ثِمَةٍ فِى الحُبِّ لَوْ عَلِمَتْ
أَنِّى أَلَذُّ مَلَامِى فِيكَ لَمْ تَلُمِ

وَلَهُ :

إِنِّى إِذَا مَا الخِلُّ خَادَعَهُ عَنِّى الزَّمَانُ فَحَالَ عَنْ عَهْدِى
جَانَبْتُهُ وَلَوَ انَّهُ عُمُرِى وَقَطَعْتُهُ وَلَوَ انَّهُ زَنْدِى

---

(١) تذعر : تشرد وتخوف

وَلَهُ :

أَتَيْتُكَ طَوْعَ الشَّوْقِ أَمْسِ فَرَدَّنِي
عَلَى عَقِبِي عُذْرٌ لَهُ الْمَجْدُ لَائِمُ
وَقَالُوا ثَنَتْ أَجْفَانَهُ عَنْكَ غَفْوَةٌ
وَلَا غَرْوَ قَدْ تُغْفِي الْأُسُودُ الضَّرَاغِمُ
وَلَكِنْ نَسِيمُ الرَّاحِ نَمَّ وَرُبَّمَا
أَتَتْكَ بِمَا لَا رَيْبَ فِيهِ النَّمَائِمُ
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ ظَرْفُ الْعُلَى عُدْتُ مُنْشِداً :
وَأَنْتَ إِذَا اسْتَيْقَظْتَ أَيْضاً لَنَائِمُ

وَلَهُ :

يَدُ مُوسَى تَذُمُّ صُحْبَةَ فِيهِ هُوَ يَمْحُو سُطُورَ مَا تُولِيهِ
يَبْعَثُ النَّائِلَ الْجَسِيمَ فَيَقْفُو هُ بِمَنٍّ عَلَى الْعُفَاةِ سَفِيهِ
لَيْتَ أَنَّ الْمَشِيبَ مُهْدِيهِ مُوسَى وَهُوَ مُسْتَرْجِعٌ لِمَا يُهْدِيهِ
كَأَخِيهِ الزَّمَانِ يَأْخُذُ مَا يُعْـ
ـطِي . وَمَا ضَلَّ مُقْتَدٍ بِأَخِيهِ (١)

---

(١) ماضل مقتد بأخيه جملة معناها : أن من يقفو أثر أخيه لا يضل
« عبد الخالق »

وَلَهُ :

وَمَا قُلْتُ إِلَّا مَا عَلِمْتُ وَلَمْ أَكُنْ
كَحَامِدِ وِرْدٍ لَمْ يَذُقْ طَعْمَ غِبِّهِ
وَذَنْبُ زَمَانِي أَهْلُهُ غَيْرَ أَنَّنِي
أَرَاكَ لَهُ عُذْراً مَحَا شَطْرَ ذَنْبِهِ

﴿ ٣٦ – عَلِيُّ بْنُ يُوسُفَ يُعْرَفُ بِابْنِ الْبَقَّالِ * ﴾

على بن يوسف بن البقال

يُكْنَى أَبَا الْحَسَنِ ، قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الْخَالِعُ: هُوَ مِنْ أَهْلِ بَغْدَادَ وَمِمَّنْ نَادَمَ الْمُهَلَّبِيَّ وَنَفَقَ عَلَيْهِ، وَكَانَتْ لَهُ مُحَاضَرَةٌ حَسَنَةٌ وَبِضَاعَةٌ فِي الْأَدَبِ صَالِحَةٌ ، وَطَبَقَةٌ فِي الشِّعْرِ جَيِّدَةٌ ، يَذْهَبُ مَذْهَبَ النَّامِي فِي التَّطْبِيقِ وَالتَّجْنِيسِ وَطَلَبِ الصَّنْعَةِ ، وَكَانَ بِكَثْرَةِ نَوَادِرِهِ وَمِزَاحِهِ مُسْتَطَاباً مُتَقَبَّلًا ، وَكَانَ حَسَنَ الْيَسَارِ جَمِيلَ الزِّيِّ يَلْبَسُ الدُّرَّاعَةَ ، وَخَلَّفَ لَمَّا مَاتَ مَا يَزِيدُ عَلَى مِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، وَكَانَتْ وَفَاتُهُ فِي أَيَّامِ شَرَفِ الدَّوْلَةِ بْنِ عَضُدِ الدَّوْلَةِ ، وَمَنْزِلُهُ فِي سِكَّةِ الْعَجَمِ مِنَ الزُّبَيْدِيَّةِ بِالْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْ مَدِينَةِ السَّلَامِ ، وَخَلَّفَ ابْنَةً وَزَوْجَةً فَأَحَبَّتِ امْرَأَتُهُ أَحَدَ بَنِي الْمُنَجِّمِ وَزَوَّجَتِ ابْنَتَهَا بِهِ ، فَأَنْفَقَتِ الْمَالَ عَلَيْهِ وَمَاتَتِ

(*) راجع بغية الوعاة

الزَّوْجَةُ(١) وَلازَمَتْهُ أُمُّهَا تَخْدُمُهُ كَمَا تَخْدُمُ الْمُنْقَطِعَاتُ .

قَالَ : وَكَانَ ابْنُ الْبَقَّالِ بَخِيلًا جَشِعاً ، وَكَانَ يَتَلَقَّانِي فِي أَيَّامِ عَضُدِ الدَّوْلَةِ فَيَقُولُ : يَا سَيِّدِي مَاعِنْدَكَ مِنْ حَدِيثِ الشُّعَرَاءِ ؟ فَأَقُولُ : قَدْ أَمَرَ لَهُمْ بِمَالٍ وَلَكَ بِجَائِزَةٍ سَنِيَّةٍ مِنْهَا كَذَا وَكَذَا ، وَمِنْهَا كَذَا وَكَذَا وَأُكْثِرُ عَلَيْهِ فَيَقُولُ :

مُنًى إِنْ تَكُنْ حَقًّا تَكُنْ أَحْسَنَ الْمُنَى
وَإِلَّا فَقَدْ عِشْنَا بِهَا زَمَنًا رَغْدَا

وَلَقِيَنِي مَرَّةً وَالسَّلَامِيُّ مَعِي فَسَأَلَنِي عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ فَأَجَبْتُهُ بِمِثْلِ الْجَوَابِ الْمُقَدَّمِ ذِكْرُهُ ، فَقَالَ لَهُ السَّلَامِيُّ : يَكْذِبُ ، وَاللهِ مَا أَمَرَ إِلَّا بِقَطْعِ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ ، فَقَالَ : « حَوَالَيْنَا الصُّدُودُ وَلَا عَلَيْنَا » . وَأَنْشَدَ الْخَالِعُ لِابْنِ الْبَقَّالِ يُعَاتِبُ بَعْضَ أَصْدِقَائِهِ :

وَإِنِّي فِي اسْتِعْطَافِ رَأْيِ مُحَمَّدٍ عَلَيَّ وَمَدِّي نَحْوَ مَعْرُوفِهِ يَدِي
لَكَالْمُبْتَغِي — مِنْ بَعْدِ تِسْعِينَ حِجَّةً تَقَمُّصَهَا — رَجْعَ الشَّبَابِ الْمُجَدَّدِ
وَمَا أَشْكُو اعْتِدَاءً مِنْكَ لَوْلَاهُ مَادَرَتْ صُرُوفُ اللَّيَالِي فِي الْهَوَى كَيْفَ تَعْتَدِي

(١) أى ابنته

فَلِلَّهِ قَلْبِي حِينَ أَدْعُو إِلَى الْهَوَى وَأَعْلَمُ حقًّا أَنَّهُ غَيْرُ مُهْتَدِي

وَلَهُ :

وَلَمَّا وَقَفْنَا لِلْوَدَاعِ وَدُونَنَا
عُيُونٌ تَرَامَى بِالظُّنُونِ ضَمِيرُهَا
أَمَاطَتْ عَنِ الشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ بُرْقُعًا
فَغَيَّبَنَا عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ نُورُهَا

وَلَهُ :

يَا مُذْنِبًا وَيَقُولُ إِنِّي مُذْنِبٌ مَا إِنْ سَمِعْتُ بِظَالِمٍ يَتَظَلَّمُ
لَكَ صُورَةٌ ذَلَّ الْجَمَالُ لِحُسْنِهَا
تَقْضِي بِجَوْرٍ فِي النُّفُوسِ وَتَحْكُمُ
وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّ طَرْفَكَ مُشْعَرٌ
سُقْمًا وَأَنْتَ بِسُقْمِهِ لَا تَعْلَمُ

وَلَهُ :

يَا طَرْفَهَا هَبْ لِطَرْفِي لَذَّةَ الْوَسَنِ
وَاسْتَبْقِ مَا لَا يُقِلُّ الثَّوْبَ مِنْ بَدَنِي
حَاشَاكَ فِيَّ مِنَ الشَّكْوَى وَإِنْ ذَهَبَتْ
عَيْنِي مِنَ الدَّمْعِ أَوْ قَلْبِي مِنَ الْحَزَنِ

وَلَا أَقُولُ وَلَوْ أَتلَفْتَنِي أَسفاً
يَا لَيْتَ مَا كَانَ مِنْ حُبِّيكَ لَمْ يَكُنِ

وَلَهُ :

لَئِنْ كَانَ طَرْفِي فَازَ مِنْكَ بِنَظْرَةٍ
لَقَدْ عَادَ طَرْفِي بِالْبَلَاءِ عَلَى قَلْبِي
جَعَلْتَ الْهَوَى ذَنبِي فَإِنْ كُنْتُ مُذْنِباً
بِهِ فَإِلَيْكَ الْعُذْرَ مِنْ ذَلِكَ الذَّنْبِ
وَلَمَّا رَأَيْتُ الْبُعْدَ مِنْكَ مُقَرِّبِي
تَبَاعَدْتُ كَيْ أَحْظَى عَلَى الْبُعْدِ بِالْقُرْبِ
مُحَمَّدُ لَا تَجْمَعْ إِلَى الْهَجْرِ غَدْرَةً
فَحَسْبِي الَّذِي بِي مِنْ فِرَاقِكَ يَا حَسْبِي

وَلَهُ يَمْدَحُ الْمُهَلَّبِيَّ :

أَنَوَارُ أَنْتِ كَمَا دُعِيتِ نَوَارُ؟
لَمْ تَقْضِ مِنْكِ قَضَاءَهَا الْأَوْطَارُ
يَا لَحْظَةً لَحْظُ الْحِمَامِ مُعِيدُهَا مَا كَانَ مِنْكِ لِنَاظِرٍ إِنْظَارُ
وَإِذَا تُسَاقِطُكَ الْحَدِيثَ تَخَالُهُ كَأْساً عَلَيْكَ مِنَ الْعُقَارِ تُدَارُ

إِنِّى ذَكَرْتُكِ وَالْغَرَامُ مُوَاصِلٌ
نَفَساً عَلَيْكِ يَهِيجُهُ التَّذْكَارُ
مُتَوَقِّدٌ مِنْهُ الضَّمِيرُ كَأَنَّمَا نِيرَانُهُ مِنْ وَجْنَتَيْكِ تُعَارُ
هُوَ فِى الْجُفُونِ إِذَا مَرَتْهُ زَفْرَةٌ
مَاءٌ يَمُورُ وَفِى الْجَوَانِحِ نَارُ
وَلَرُبَّ لَيْلٍ مِنْ ذُرَاكِ خِمَارُهُ لِلنَّجْمِ فِيهِ مِنَ الْغَمَامِ خِمَارُ
قَدْ قُلْتُ حِينَ طَلَعْتِ فِيهِ كَبَدْرِهِ(١)
أَرَأَيْتَ كَيْفَ تَشَابَهُ الْأَقْمَارُ؟
يَا صَاحِبَىَّ قِفَا بِنَجْدٍ عَبْرَةً
حَيْثُ الدُّمُوعُ إِذَا ابْتَدَرْنَ بِدَارُ
فِى مَنْزِلٍ لَبِسَتْ بِمَا لَبِسَ الْبِلَى
مِنِّى الْمَشِيبَ عَذَائِرٌ وَعِذَارُ
وَلَئِنْ مَحَتْكِ يَدُ الْخُطُوبِ فَمَا أَمَّحَى(٢)
لِهَوَى دِيَارِكِ فِى الْفُؤَادِ دِيَارُ
وَلَرُبَّمَا اهْتَزَّتْ رُبُوعُكِ بِالنَّدَى
وَتَنَفَّسَتْ بِنَسِيمِكِ الْأَسْحَارُ

(١) كانت هذه الكلمة فى الأصل : « يبدره » (٢) أصلها : انمحى أدغمت النون فى الميم

وَمِنْهَا فِى الْمَدْحِ :

وَإِذَا بَدَا يَوْمَ الْكَرِيهَةِ ضَاحِكًا فَهُنَاكَ تَسْكُبُ دَمْعَهَا الْأَعْمَارُ(١)

حَتَّى إِذَا بَصُرُوا بِعَقْدِ لِوَائِهِ عَقَدَتْ مَهَابَتَهَا بِهِ(٢) الْأَسْرَارُ

فِى شَرْبِ هَيْجَاءٍ إِذَا اصْطَبَحُوا الْقَنَا فَالطَّعْنُ سُكْرٌ وَالْحِمَامُ خُمَارُ(٣)

لَهُمُ مِنَ الْبِيضِ الرِّقَاقِ تَحِيَّةٌ فِى حَسْوِهَا وَمِنَ الدِّمَاءِ عُقَارُ

نَهَضَتْ بِعِبْءِ الْمُلْكِ مِنْكَ عَزَائِمٌ لِلدَّهْرِ بَيْنَ عِثَارِهِنَّ عِثَارُ

لَكَ هَضْبَةٌ فِى الْمُلْكِ قَحْطَانِيَّةٌ طُرُقُ الْحَوَادِثِ نَحْوَهَا أَوْعَارُ

بِجِبَالِ أَنْدِيَةِ الْوَقَارِ إِذَا احْتَبَوْا وَلُيُوثِ مَلْحَمَةِ الْوَغَى إِنْ ثَارُوا

عَجَبًا لِأَبْنَاءِ الْمُهَلَّبِ إِنَّهُمْ لَمْ يَعْدِلُوا فِى الْمَجْدِ حَتَّى جَارُوا

لَمْ يَطْوِهِمْ دَهْرٌ مَضَى إِلَّا لَهُمْ بِالْجُودِ فِى آثَارِهِ آثَارُ

فَعَطَاؤُكَ الرِّزْقُ الْمُقَسَّمُ فِى الْوَرَى وَالدَّهْرُ أَنْتَ وَسَيْفُكَ الْمِقْدَارُ

---

(١) كانت هذه الكلمة فى الأصل « الأعمار » (٢) كانت هذه الكلمة فى الأصل « بها » . (٣) كانت هذه الكلمة فى الأصل : « قار » .

وَلَهُ أَيْضاً فِي الْمُهَلَّبِيِّ :

لِعَيْنَيْكَ إِذْ سَارَ الْخَلِيطُ الْمُغَوِّرُ
عَلَى كُلِّ وَادٍ دَمْعَةٌ تَتَحَدَّرُ

نَعَمْ إِنَّ رَسْماً بَاتَ يَطْوِي بِهِ النَّوَى
مَحَاسِنَ كَانَتْ بِالْأَوَانِسِ تُنْشَرُ

أَرَى(١) وَانِياً مِنْ عَبْرَةٍ كَيْفَ لَا يَنِي
وَعَلَّمَ طَرْفاً رَاقِداً كَيْفَ يَسْهَرُ

وَقَفْنَا وَمِنْ أَلْحَاظِنَا وَقُلُوبِنَا
لَنَا رَائِدَا شَوْقٍ مُسِرٌّ وَمُظْهِرُ

يُحَلِّي رُبَى آرَامِهِ وَنُحُورَنَا
جُفُونٌ بِسِمْطَيْهَا مِنَ الدَّمْعِ جَوْهَرُ

فَمِنْ بَيْنِ مَعْقُودٍ يَبِينُ فَرِنْدُهُ
عَلَيْنَا وَمَحْلُولٍ عَلَيْهِنَّ يُنْثَرُ

وَسِرْبٍ رَمَيْنَ النَّجْمَ فِي أُخْرَيَاتِهِ
بِسَافِرَةٍ عَنْ وَجْهِهَا الشَّمْسُ تُسْفِرُ

بَدَتْ وَيَمِينُ الصُّبْحِ يَبْدُو لِثَامُهُ
فَلَمْ يَدْرِ لَيْلٌ أَيُّ صُبْحَيْهِ أَنْوَرُ ؟

(١) أرى فعل ماض ، فاعله ضمير يعود على رسما فى البيت قبله ، ووانيا مفعول أول ، وكيف لا ينى مفعول ثان

وَمَادَتْ فقلنا الْغُصْنُ جَادَتْ بِهِ النَّقَى
بِمَا آدَ مِنْ مَجْرَى الْوِشَاحِ الْمُؤَزَّرُ (١)
أَعَاطِلُ أَجْيَادِ الْأَمَانِي مِنَ الَّتِي
بِهَا الْوَفْرُ أَمْ مَا اسْتَنْهَلَكَ الْعِرْضُ أَوْفَرُ ؟
لَئِنْ عُدَّ فَخْراً لُبْسُكَ الْمَجْدَ مِنْ أَبٍ
فَلُبْسُ الْفَتَى مِنْ نَفْسِهِ الْمَجْدَ أَفْخَرُ
وَمَا يَنْفَعُ الْمُمْتَاحَ (٢) يَجْلُو مَوَارِداً
إِذَا كَانَ ظَمْآناً مِنَ الْوِرْدِ يَصْدُرُ
أَلَا بَادِرَا عَوْنَ الْعَوَانِي بِرِحْلَةٍ
يَذِلُّ لَهَا خَدٌّ مِنَ الْعِيسِ أَصْعَرُ
أَمَا تَرَيَانِ اللَّيْلَ يَحْذُو ظَلَامَهُ
بِوَجْهِ الْقَبِيصِيِّ (٣) الصَّبَاحُ الْمُنَوَّرُ
فَتًى يَعْتَرِي سَجْلَيْ نَدَاهُ وَبَأْسِهِ
لَهَاذِمُ تُدْمِي أَوْ غَمَائِمُ تُمْطِرُ

(١) المؤزر صفة للغصن ، أو فاعل لآد ، والمعنى على أحد هذين المرادين
(٢) المتاح : الطالب للماء ، يريد أن طالب الماء لافائدة من اجتلائه الموارد مادام يصدر عنها ظمآن (٣) القبيصى : هو المهلى نسبة إلى قبيصة أحد أولاد المهلب « عبد الخالق »

وَكَالدَّهْرِ لَا يَدْرِي الَّذِي هُوَ رَائِمٌ
بِخَطْبٍ إِذَا مَا أَمَّهُ كَيْفَ يَحْذَرُ

وَيَوْمٍ رِمَاهُ النَّقْعُ مِنْهُ بِلَيْلَةٍ ... كَوَاكِبُهَا فِيهِ الْأَسِنَّةُ تُزْهِرُ

طَلَعْنَ مِنَ الْأَغْمَادِ فِي كُلِّ مَأْزِقٍ ... فَلَا خَائِنٌ إِلَّا لَهَا مِنْهُ مُضْمَرُ (١)

دَلَفْتَ كَأَنَّ الْمَوْتَ كَانَ مُؤَامِرًا ... سُيُوفَكَ مِنْهُ وَالنُّفُوسُ تَقَطَّرُ

بِمَجْرٍ (٢) لَهُ فِي كُلِّ فَجٍّ طَلِيعَةٌ ... وَفِي كُلِّ أَرْضٍ مِنْهُ ذَيْلٌ مُجَرَّرُ

سَحَبْتَ رِدَاءَ الْمَوْتِ فِيهِ بِوَقْعَةٍ
رِدَاءُ الْفَتَى فِيهِ مِنَ الطَّعْنِ أَقْمَرُ (٣)

وَأَضْحَكْتَ مِنْهُ الْجَوَّ وَالنَّقْعُ كَاتِمٌ
بِهِ الشَّمْسَ عَنْ شَمْسٍ (٤) بِهَا الْبِيضُ تُشْهَرُ

بِحَيْثُ شُفُوفُ الْأَتْحَمِيِّ مُفَاضَةٌ
إِذَا زَعْزَعَ الْخَطِّيُّ وَالتَّاجُ مِغْفَرُ (٥)

---

(١) مضمر اسم مكان من الاضمار ، والمراد به القلب (٢) المجر : الجيش العظيم (٣) أقمر : صفة لرداء الفتى ، والقمرة : بياض فيه كدرة ، أو اللون إلى الخضرة وهذا أنسب ، وفيه الثانية راجعة إلى الموت . (٤) يريد أن الوقعة حجبت فيها الشمس بالنقع وظهرت فيها شمس أخرى من البيض أى السيوف . (٥) الأتحمى : البرد ، والشفوف جمع شف : ما رق من الثياب ، والمغفر كمنبر : زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة ، أو حلق يتقنع بها المتسلح ، ومفاضة صفة للدرع المحذوفة ، أى سابغة ، فالمعنى أن مكان شفوف الأتحمى درعا سابغة ، ومكان التاج مغفرا فى وقت الحرب الذى أشار إليه بقوله زعزع الخطى

« عبد الخالق »

تُفَرِّقُ فِي تَفْرِيقِهَا الْهَامَ وَالْتَقَى
عَلَى قَدَرٍ فِيهَا الْحِمَامُ الْمُقَدَّرُ
عَزَائِمُ يَرْمِينَ الْخُطُوبَ كَأَنَّمَا
يُقَارِعُ مِنْهَا عَسْكَرَ الدَّهْرِ عَسْكَرُ

وَلَهُ فِي الْمُهَلَّبِيِّ أَيْضاً :

عِنْدِي لِذَا الدَّهْرِ إِعْقَابِي إِسَاءَتَهُ
بِالصَّفْحِ إِنْ أَعْقَبَ الْإِصْرَارَ بِالنَّدَمِ
أَمْسَتْ مَنَازِلُ مَنْ جَنَّتْ مُصَافِحَةً
أَيْدِي النُّحُولِ عَلَيْهَا أَيْدِيَ الْقِدَمِ
وَلَوْ مَلَكْتُ لَهَا السُّقْيَا وَهَامَتَهَا
تُكَفْكِفُ الْمَحْلَ عَنْهَا أَدْمُعُ الرِّحِمِ
لَقُلْتُ لِلسَّحِّ مِنْ أَيْدِي الْوَزِيرِ إِذَا
حَلَّتْ نَاحِلَةَ الْأَطْلَالِ لَا تَرِمِ
الْيَعْرُبِيُّ الَّذِي خَلَّى الطَّرِيقَ لَهُ
مَنْ بَاتَ يَأْخُذُ رُعْباً مِنْهُ بِاللَّقَمِ (١)

---

(١) اللقم كعنم : معظم الطريق أو وسطه ويكون كبصر ، والمعنى أنه من بنى يعرب ومن صفته أن من كان يبيت بمعظم الطرق ويستولى عليها خلى الطريق وأفسحه له رعبا منه « عبد الخالق »

يُزَاحِمُ اللَّيْلَ لَيْلٌ مِنْ جَحَافِلِهِ
وَيَقْذِفُ الْوَهَدَاتِ الْجُرْدَ بِالْأَكَمِ
أَطَارَ مِنْهُمْ قَذَاةً فِي عُيُونِهِمُ
لَوْ أَنَّهَا فِي جُفُونِ الدَّهْرِ لَمْ يَنَمِ
أَبْقَى لَهُ الْخَوْفَ فِي أَثْنَاءِ يَقْظَتِهِمْ
مَا بَاتَ يُرْسِلُهُ لَيْلًا إِلَى الْحُلُمِ (١)
عَافَتْ سُيُوفُكَ فِي الْهَيْجَا لُحُومَهُمُ
فَهُنَّ يَأْكُلْنَ مِنْهَا إِكْلَةَ الْبَشِمِ

وَلَهُ أَيْضًا فِيهِ :

رَوْعَةٌ بِالْفِرَاقِ قَبْلَ الْفِرَاقِ شَرِقَتْ بِالدُّمُوعِ مِنْهَا الْمَآقِي
جَدَّ جِدُّ الْبُكَا فَأَهْدَيْنَ بَاقِي الدْ
دَمْعِ مِنْهَا إِلَى كَرًى غَيْرِ بَاقِ
فَاضَ تَنْدَى بِهِ الْخُدُودُ وَلَوْ غَا
ضَ لَأَمْسَتْ مِنْهُ الْحَشَا فِي احْتِرَاقِ

(١) المعنى أن ما يرسله من الأحلام المزعجة إذا ناموا أبقى له خوفهم منه أثناء يقظتهم، وهذا كما قال السابق للشريف الرضى :

وعلى عدوك يا بن عم محمد رصدان ضوء الصبح والاظلام
فاذا تنبه رعته ، وإذا غفا سلت عليه سيوفك الأحلام

« عبد الخالق »

وَعذَارَى تُذْنيكَ مِنْ سِرْبِهَا الْعِيـ
ـسُ دُنُوَّ الْأَجْفَانِ لِلْأَحْدَاقِ
مُخْطَفَاتٍ لَوْ شِئْنَ مِنْ هَيَفِ الْـ
ـخَصْرِ تَبَدَّلْنَ خَاتَماً مِنْ نِطَاقِ
حَالِيَاتٍ تُبْدِى الْمَعَاصِمَ وَالسُّو
قَ وَتُخْفِى الْأَجْيَادَ فِى الْأَطْوَاقِ
لَا يَغُرَّنْكَ غَفْلَةُ الدَّهْرِ فَالْعَزْ مَةُ إِمْضَاؤُهَا مَعَ الْإِطْرَاقِ
قَدْ أَرَانَا ٱبْتِسَامَهُ الدَّهْرُ لَمَّا أَطْلَعَ الْجُودُ شَمْسَهُ بِالْعِرَاقِ
بِالْمُصَفَّى اللُّبَابِ وَالْأَرْوَعِ الْبَسْ سَامِ بِشْراً وَالْفَاتِقِ الرَّتَّاقِ
وَمُعِيرٍ مُعَانِدِى الْمُلْكِ حَدًّا مَاضِياً فِى شِقَاقِهِمْ وَالنِّفَاقِ
حِينَ حَرَّ الْهَوَى بِحَرَّانَ وَالْبِيـ ضُ لَهَا مِنْ غَمَائِمِ الْهَامِ سَاقِ
بَعْدَ مَا زَعْزَعَ الْجَزِيرَةَ بِالْـ
ـخَطِّىِّ يَكْرَعْنَ فِى الدِّمَاءِ الدِّفَاقِ (١)
وَأَطَارَتْ بِجَوِّ سِنْجَارَ الْمَوْ تَ ظُبَاهُ نَاراً بِلَا إِحْرَاقِ
فِى غَمَامٍ مِنَ الْعَجَاجِ وَوَبْلٍ يَسِمُ الْأَرْضَ مِنْ حَمِيمِ (٢) الْعِتَاقِ

---

(١) كانت هذه الكلمة فى الأصل : « الرقاق » (٢) المراد بحميم العتاق : عرق الخيل

حِينَ وَالَى بِهَا شَوَازِبَ (١) يُفْضِـ
ـينَ إِلَى كُلِّ دَارَةٍ (٢) مِنْ طِرَاقِ
كَالْحِاتٍ كَأَنَّمَا نَفَثَ الصُّـ
ـصَابَ الْعَوَالِى (٣) مِنْهُنَّ فِى الْأَشْدَاقِ

وَكَانَ ابْنُ الْبَقَّالِ يَتَرَفَّعُ عَنْ الِاخْتِلَاطِ بِالشُّعَرَاءِ وَيَتَكَبَّرُ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ الرُّؤَسَاءُ يُكْرِمُونَهُ وَيَقُومُونَ لَهُ إِذَا دَخَلَ إِلَيْهِمْ ، وَكَانَ ابْنُ الْعَمِيدِ يُقَدِّمُهُ عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ وَيُعَظِّمُهُ ، وَأَحْضَرَهُ الْمُهَلَّبِيُّ فَأَنْشَدَهُ بِحَضْرَةِ الْمُتَنَبِّي قَصِيدَةً فِيهِ .

قَالَ : حَدَّثَنِي الْإِمَامُ الْهَاشِمِيُّ قَالَ : قَالَ لِى الْمُتَنَبِّى : مَا رَأَيْتُ بِبَغْدَادَ مَنْ يَجُوزُ أَنْ يُقْطَعَ عَلَيْهِ اسْمُ شَاعِرٍ إِلَّا ابْنَ الْبَقَّالِ . قَالَ ابْنُ عَبْدِ الرَّحِيمِ : وَحَدَّثَنِي الْأُسْتَاذُ أَبُو الْحُسَيْنِ بْنُ مَحْفُوظٍ وَقَدْ جَرَى ذِكْرُ ابْنِ الْبَقَّالِ فَقَالَ : كَانَ أَقَلُّ مَا فِيهِ الشِّعْرَ ، فَغَلَبَ عَلَيْهِ وَعُرِفَ بِهِ ، وَإِنَّهُ كَانَ يَضْطَلِعُ بِعُلُومٍ كَثِيرَةٍ مِنْ جُمْلَتِهَا الْكَلَامُ ، وَكَانَ قَوِيًّا فِيهِ مُقَدَّمًا فِى الْمَعْرِفَةِ بِهِ ، وَكَانَ يَقُولُ بِتَكَافُؤِ الْأَدِلَّةِ وَهُوَ بِئْسَ الْمَذْهَبُ .

(١) الشوازب : الرماح (٢) الدارة : ما استدار من الرمل ، والطراق : الطرق ، والغرض أنها تفضى إلى كل مكان (٣) العوالى فاعل نفث ومنهن متعلق بنفث . « عبد الخالق »

﴿ ٣٧ – عِمَارَةُ بْنُ حَمْزَةَ الْكَاتِبُ مِنْ وَلَدِ أَبِي لُبَابَةَ * ﴾

عمارة بن حمزة الكاتب

مَوْلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، مَوْلَى السَّفَّاحِ، ثُمَّ مَوْلَى أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ. وَكَانَ تَيَّاهاً مُعْجَباً، جَوَاداً كَرِيماً، مَعْدُوداً فِي سَرَاةِ النَّاسِ، وَكَانَ فَصِيحاً بَلِيغاً، وَكَانَ أَعْوَرَ دَمِيماً (١)، وَكَانَ الْمَنْصُورُ وَالْمَهْدِيُّ بَعْدَهُ يُقَدِّمَانِهِ وَيَحْتَمِلَانِ أَخْلَاقَهُ، لِفَضْلِهِ وَبَلَاغَتِهِ وَكِفَايَتِهِ وَوُجُوبِ حَقِّهِ، وَوَلِيَ لَهُمَا أَعْمَالاً كِبَاراً.

وَلَهُ تَصَانِيفُ: مِنْهَا كِتَابُ رِسَالَةِ الْخَمِيسِ الَّتِي تُقْرَأُ لِبَنِي الْعَبَّاسِ، كِتَابُ رَسَائِلِهِ الْمَجْمُوعَةِ، كِتَابُ الرِّسَالَةِ الْمَاهَانِيَّةِ مَعْدُودَةٌ فِي كُتُبِ الْفَصَاحَةِ الْجَيِّدَةِ، وَكَانَ يُقَالُ: بُلَغَاءُ النَّاسِ عَشَرَةٌ: عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُقَفَّعِ، وَعِمَارَةُ بْنُ حَمْزَةَ، وَخَالِدُ بْنُ يَزِيدَ، وَحُجْرُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ حُجْرٍ، وَأَنَسُ بْنُ أَبِي شَيْخٍ، وَسَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، وَمَسْعَدَةُ، وَالْهِزَبْرُ بْنُ صَرِيحٍ، وَعَبْدُ الْجَبَّارِ بْنُ عَدِيٍّ، وَأَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ بْنِ صُبَيْحٍ. قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدُوسٍ: قَلَّدَ أَبُو الْعَبَّاسِ السَّفَّاحُ عِمَارَةَ

(١) كانت هذه الكلمة فى الأصل: « ذميما بالذال المعجمة »

(*) ترجم له فى فهرست ابن النديم

ابْنَ حَمْزَةَ بْنِ مَيْمُونٍ ، مِنْ وَلَدِ أَبِي لُبَابَةَ مَوْلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ الْعَبَّاسِ ضِيَاعَ مَرْوَانَ وَآلِ مَرْوَانَ ، خَلَا ضِيَاعٍ لِوَلَدِ عُمَرَ ابْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَإِنَّهَا لَمْ تُقْبَضْ ، وَضِيَاعِ مَنْ وَالَاهُمْ وَسَاعَدَهُمْ .

وَقَالَ الْخَطِيبُ : عِمَارَةُ مِنْ وَلَدِ عِكْرِمَةَ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ ، جُمِعَ لَهُ بَيْنَ وِلَايَةِ الْبَصْرَةِ ، وَفَارِسَ ، وَالْأَهْوَازِ ، وَالْيَمَامَةِ ، وَالْبَحْرَيْنِ ، وَالْعُرْضِ (١) ، وَهَذِهِ الْأَعْمَالُ جُمِعَتْ لِلْمُعَلَّى بْنِ طَرِيفٍ صَاحِبِ نَهْرِ الْمُعَلَّى ، وَلِمُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ . وَكَانَ عِمَارَةُ سَخِيًّا سَرِيًّا جَلِيلَ الْقَدْرِ ، رَفِيعَ النَّفْسِ ، كَثِيرَ الْمَحَاسِنِ ، وَلَهُ أَخْبَارٌ حِسَانٌ ، وَكَانَ أَبُو الْعَبَّاسِ يَعْرِفُ عِمَارَةَ بِالْكِبْرِ وَعُلُوِّ الْقَدْرِ وَشِدَّةِ التَّنَزُّهِ ، فَجَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ أُمِّ سَلَمَةَ بِنْتِ يَعْقُوبَ بْنِ سَلَمَةَ الْمَخْزُومِيَّةِ كَلَامٌ فَاخَرَتْهُ فِيهِ بِأَهْلِهَا ، فَقَالَ لَهَا أَبُو الْعَبَّاسِ : أَنَا أُحْضِرُكِ السَّاعَةَ عَلَى غَيْرِ أُهْبَةٍ مَوْلًى مِنْ مَوَالِيَّ ، لَيْسَ فِي أَهْلِكِ مِثْلُهُ . ثُمَّ أَمَرَ بِإِحْضَارِ عِمَارَةَ عَلَى الْحَالِ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا ، فَأَتَاهُ الرَّسُولُ فِي الْحُضُورِ فَاجْتَهَدَ فِي تَغْيِيرِ زِيِّهِ ، فَلَمْ يَدَعْهُ ، فَجَاءَ بِهِ إِلَى أَبِي الْعَبَّاسِ ، وَأُمُّ سَلَمَةَ

(١) العرض بالضم : بلدة من أعمال الشام

خَلْفَ السِّتْرِ ، وَإِذَا عِمَارَةُ فِي ثِيَابٍ مُمَسَّكَةٍ قَدْ لَطَّخَ لِحْيَتَهُ بِالْغَالِيَةِ، حَتَّى قَامَتْ(١) وَاسْتَتَرَ شَعْرُهُ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ تَرَانِي عَلَى مِثْلِ هَذَا الْحَالِ ، فَرَمَى إِلَيْهِ بِمُدْهُنٍ(٢) كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ فِيهِ غَالِيَةٌ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَتَرَى لَهَا فِي لِحْيَتِي مَوْضِعاً ؟ فَأَخْرَجَتْ إِلَيْهِ أُمُّ سَلَمَةَ عِقْداً وَكَانَ لَهُ قِيمَةٌ جَلِيلَةٌ ، وَقَالَتْ لِلْخَادِمِ : أَعْلِمْهُ أَنِّي أَهْدَيْتُهُ إِلَيْهِ فَأَخَذَهُ بِيَدِهِ ، وَشَكَرَ أَبَا الْعَبَّاسِ وَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَنَهَضَ ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ لِأَبِي الْعَبَّاسِ : إِنَّمَا أُنْسِيَهُ ، فَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ لِلْخَادِمِ : الْحَقْهُ بِهِ وَقُلْ لَهُ : هَذَا لَكَ ، فَلِمَ خَلَّفْتَهُ ؟ فَاتَّبَعَهُ الْخَادِمُ فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ قَالَ لَهُ : مَا هُوَ لِي ، فَارْدُدْهُ ، فَلَمَّا أَدَّى الرِّسَالَةَ قَالَ لَهُ : إِنْ كُنْتَ صَادِقاً فَهُوَ لَكَ ، وَانْصَرَفَ الْخَادِمُ بِالْعِقْدِ ، وَعَرَّفَ أَبَا الْعَبَّاسِ مَا جَرَى ، وَامْتَنَعَ مِنْ رَدِّهِ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ وَقَالَ : قَدْ وَهَبَهُ لِي فَاشْتَرَتْهُ بِعِشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ(٣) :

وَكَانَ عِمَارَةُ يَقُولُ : يُخْبَزُ فِي دَارِي أَلْفَا رَغِيفٍ فِي كُلِّ

---

(١) يريد أنها غلبت بلونها على شعره فاستتر (٢) المدهن بضم الميم والهاء : مايجعل فيه الدهن ، أو آلته ، وهو من النوادر التي جاءت على غير قياس .

(٣) يخيل إلى أن موضع الفخر هبته العقد على غلو ثمنه للخادم

يَوْمٍ ، يُؤْكَلُ مِنْهَا أَلْفٌ وَتِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ رَغِيفاً حَلَالًا ، وَآكُلُ مِنْهَا رَغِيفاً وَاحِداً حَرَاماً ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ (١) ، وَكَانَ يَقُولُ : مَا أَعْجَبَ قَوْلَ النَّاسِ : فُلَانٌ رَبُّ الدَّارِ ، إِنَّمَا هُوَ كَلْبُ الدَّارِ (٢) وَكَانَتْ نَخْوَةُ عِمَارَةَ وَتِيهُهُ يَتَوَاصَفَانِ (٣) وَيُسْتَسْرَفَانِ (٤) ، فَأَرَادَ أَبُو جَعْفَرٍ أَنْ يَعْبَثَ بِهِ ، وَخَرَجَ يَوْماً مِنْ عِنْدِهِ فَأَمَرَ بَعْضَ خَدَمِهِ أَنْ يَقْطَعَ حَمَائِلَ سَيْفِهِ لِيَنْظُرَ أَيَأْخُذُهُ أَمْ لَا ؟ وَسَقَطَ السَّيْفُ ، وَمَضَى عِمَارَةُ وَلَمْ يَلْتَفِتْ (٥)

وَحَدَّثَ مَيْمُونُ بْنُ هَارُونَ عَمَّنْ يَثِقُ بِهِ : أَنَّ عِمَارَةَ بْنَ حَمْزَةَ كَانَ مِنْ تِيهِهِ إِذَا أَخْطَأَ يَمْضِي عَلَى خَطَئِهِ وَيَتَكَبَّرُ عَنِ الرُّجُوعِ وَيَقُولُ : نَقْضٌ وَإِبْرَامٌ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ، الْخَطَأُ أَهْوَنُ مِنْ ذَلِكَ . وَكَانَ عِمَارَةُ بْنُ حَمْزَةَ يَوْماً يُمَاشِي الْمَهْدِيَّ فِي أَيَّامِ الْمَنْصُورِ وَيَدُهُ فِي يَدِهِ ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : مَنْ هَذَا أَيُّهَا الْأَمِيرُ ؟ فَقَالَ : أَخِي وَابْنُ عَمِّي عِمَارَةُ بْنُ حَمْزَةَ ، فَلَمَّا وَلَّى

---

(١) لم أدر سبب الحرمة ، ولعله يحرم على نفسه ما في بيته لأنه يقرى الضيفان فاذا بقى رغيف يرى نفسه بخيلا ، فاذا أكله استغفر الله خوف أن يكون فيه مطمع من غيره ، والعدد هنا الغرض منه المبالغة على ما أظن (٢) يريد أنه كالكلب إنما يأكل الفضلات

(٣) يتواصفان : أي يتحدث بوصافتهما ، وجودتهما وحسنهما .

(٤) يستسرفان : أي ينسبان إلى الاسراف ، ومجاوزة حد الاعتدال

(٥) أي أدرك المقصود وأن هناك عبثا فلم يلتفت « عبد الخالق »

الرَّجُلُ ذَكَرَ المَهْدِيُّ ذَلِكَ لِعِمَارَةَ كَالمَازِحِ ، فَقَالَ عِمَارَةُ : إِنَّمَا انْتَظَرْتُ أَنْ تَقُولَ : مَوْلَاىَ ، فَأَنفض وَاللهِ يَدِى مِنْ يَدِكَ ، فَضَحِكَ المَهْدِيُّ .

وَحُكِىَ عَنْ عِمَارَةَ بْنِ حَمْزَةَ أَنَّهُ قَالَ : انْصَرَفْتُ يَوْمًا مِنْ دَارِ أَبِى جَعْفَرٍ المَنْصُورِ بَعْدَ أَنْ بَايَعَ لِلْمَهْدِيِّ بِالعَهْدِ إِلَى مَنْزِلِى ، فَلَمَّا صِرْتُ إِلَيْهِ صَارَ إِلَىَّ المَهْدِيُّ فَقَالَ : قَدْ بَلَغَنِى أَنَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ قَدْ عَزَمَ عَلَى أَنْ يُبَايِعَ لِأَخِى جَعْفَرٍ بِالعَهْدِ بَعْدِى ، وَأُعْطِى اللهَ عَهْدًا لَئِنْ فَعَلَ لَأَقْتُلَنَّهُ .

قَالَ : فَمَضَيْتُ مِنْ فَوْرِى إِلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ، فَلَمَّا دَخَلْتُ إِلَيْهِ قَالَ : هِيهِ [1] يَا عِمَارَةُ ، مَا جَاءَ بِكَ ؟ قُلْتُ : أَمْرٌ حَدَثَ ، أَنَا ذَاكِرُهُ ، قَالَ : فَأَنَا أُخْبِرُكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تُخْبِرَنِى ، جَاءَكَ المَهْدِيُّ فَقَالَ لَكَ : كَيْتَ وَكَيْتَ ، قُلْتُ : وَاللهِ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ لَكَأَنَّكَ كُنْتَ ثَالِثَنَا ، قَالَ : قُلْ لَهُ : نَحْنُ أَشْفَقُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ نُعَرِّضَهُ لَكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ .

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يَزْدَادَ : قَلَّدَ المَنْصُورُ عِمَارَةَ بْنَ حَمْزَةَ الخَرَاجَ بِكُوَرِ دِجْلَةَ ، وَالأَهْوَازِ ، وَكُوَرِ فَارِسَ ، وَتُوُفِّىَ المَنْصُورُ

---

(١) هيه : كلمة استزادة أيضاً كايه ، وربما استعملت مكررة ، فيقال : هيه هيه .

سَنَةَ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ وَمِائَةٍ وَعُمَارَةُ يَتَقَلَّدُ جَمِيعَ هَذِهِ الكُوَرِ، وَبَلَغَ مُوسَى الهَادِي حَالُ بِنْتٍ لِعُمَارَةَ جَمِيلَةٍ فَرَاسَلَهَا، فَقَالَتْ لِأَبِيهَا ذَلِكَ: فَقَالَ: ابْعَثِي إِلَيْهِ فِي المَصِيرِ إِلَيْكِ، وَأَعْلِمِيهِ أَنَّكِ تَقْدِرِينَ عَلَى إِيصَالِهِ إِلَيْكِ فِي مَوْضِعٍ يَخْفَى أَثَرُهُ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ بِذَلِكَ، وَحَمَلَ مُوسَى نَفْسَهُ عَلَى المَصِيرِ إِلَيْهَا، فَأَدْخَلَتْهُ حُجْرَةً قَدْ فُرِشَتْ وَأُعِدَّتْ لَهُ، فَلَمَّا حَصَلَ فِيهَا دَخَلَ عَلَيْهِ عُمَارَةُ فَقَالَ لَهُ: «السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الأَمِيرُ» مَاذَا تَصْنَعُ هَهُنَا؟ أَتَّخَذْنَاكَ وَلِيَّ عَهْدٍ فِينَا، أَوْ فَحْلًا لِنِسَائِنَا؟ ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَبُطِحَ [1] فِي مَوْضِعِهِ، وَضَرَبَهُ عِشْرِينَ دِرَّةً خَفِيفَةً وَرَدَّهُ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَحَقَدَ الهَادِي ذَلِكَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا وَلِيَ الخِلَافَةَ دَسَّ عَلَيْهِ رَجُلًا يَدَّعِي عَلَيْهِ أَنَّهُ غَصَبَهُ الضَّيْعَةَ المَعْرُوفَةَ بِالبَيْضَاءِ بِالكُوفَةِ، وَكَانَتْ قِيمَتُهَا أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ، فَبَيْنَا الهَادِي ذَاتَ يَوْمٍ قَدْ جَلَسَ لِلْمَظَالِمِ وَعُمَارَةُ بْنُ حَمْزَةَ بِحَضْرَتِهِ إِذْ وَثَبَ الرَّجُلُ فَتَظَلَّمَ مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ الهَادِي: قُمْ فَاجْلِسْ مَعَ خَصْمِكَ، وَأَرَادَ إِهَانَتَهُ فَقَالَ: إِنْ كَانَتِ الضَّيْعَةُ لِي فَهِيَ لَهُ، وَإِنْ كَانَتْ لَهُ فَهِيَ لَهُ، وَلَا أُسَاوِي هَذَا النَّذْلَ

(١) بطح فى موضعه بالبناء للمجهول: أى ألقى على وجهه

فِي الْمَجْلِسِ ، ثُمَّ قَامَ وَانْصَرَفَ مُغْضَباً . وَقَلَّدَ الْمَهْدِيُّ عِمَارَةَ بْنَ حَمْزَةَ الْخَرَاجَ بِالْبَصْرَةِ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ يَسْأَلُهُ أَنْ يَضُمَّ إِلَيْهِ الْأَحْدَاثَ (١) مَعَ الْخَرَاجِ فَفَعَلَ ذَلِكَ ، وَقَلَّدَهُ الْأَحْدَاثَ مُضَافَةً إِلَى الْخَرَاجِ ، وَكَانَ عِمَارَةُ أَعْوَرَ دَمِيماً ، فَقَالَ فِيهِ بَعْضُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ :

أَرَاكَ وَمَا تَرَى إِلَّا بِعَيْنٍ وَعَيْنُكَ لَا تَرَى إِلَّا قَلِيلَا
وَأَنْتَ إِذَا نَظَرْتَ بِمِلْءِ عَيْنٍ تُخَذْ مِنْ عَيْنِكَ الْأُخْرَى كَفِيلَا
كَأَنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ بَعْدَ شَهْرٍ
بِبَطْنِ الْكَفِّ تَلْتَمِسُ السَّبِيلَا

وَمَدَحَهُ سَلَمَةُ بْنُ عَبَّاسٍ فَقَالَ

بَلَوْتُ وَجَرَّبْتُ الرِّجَالَ بِخِبْرَةٍ
وَعِلْمٍ وَلَا يُنْبِيكَ عَنْهُمْ كَخَابِرِ
فَلَمْ أَرَ أَحْرَى مِنْ عِمَارَةَ فِيهِمُ بِوُدٍّ وَلَا أَوْفَى بِجَارٍ مُجَاوِرِ
وَأَكْرَمُ عِنْدَ النَّائِبَاتِ بَدَاهَةً
إِذَا نَزَلَتْ بِالنَّاسِ إِحْدَى الدَّوَائِرِ

(١) يراد بها ما تحدد من النواحى ، أو ما تحدد من شئون الادارة

تَمَسَّكْ بِحَبْلٍ مِنْ عِمَارَةَ وَٱعْتَصِمْ

بِرُكْنٍ وَفِيٍّ عَهْدُهُ غَيْرُ غَادِرِ [1]

كَأَنَّ الَّذِي يَنْتَابُهُ [2] عَنْ جِنَايَةٍ ... يَمُتُّ بِقُرْبَى عِنْدَهُ وَأَوَاصِرِ

فَنِعْمَ مَعَاذُ الْمُسْتَجِيرِ وَمُنْزَلُ الْـ ... ـكَرِيمِ وَمَثْوَى كُلِّ عَانٍ وَزَائِرِ

وَلِعِمَارَةَ شِعْرٌ، مِنْهُ مَا أَنْشَدَهُ الْجَهْشِيَارِيُّ :

لَا تَشْكُوَنْ دَهْراً صَحِحْتَ بِهِ ... إِنَّ الْغِنَى فِي صِحَّةِ الْجِسْمِ

هَبْكَ الْإِمَامَ أَكُنْتَ مُنْتَفِعاً ... بِغَضَارَةِ [3] الدُّنْيَا مَعَ السُّقْمِ ؟

وَكَرِهَهُ أَهْلُ الْبَصْرَةِ لِتِيهِهِ وَعُجْبِهِ، فَذَكَرَ الْأَرْقَطُ : أَنَّهُ رَفَعَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ عَلَى عِمَارَةَ أَنَّهُ ٱخْتَانَ مَالًا كَثِيراً، فَسَأَلَهُ الْمَهْدِيُّ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : وَاللهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَمْوَالُ الَّتِي يَذْكُرُونَهَا فِي جَانِبِ بَيْتِي مَا نَظَرْتُ إِلَيْهَا، فَقَالَ : أَشْهَدُ إِنَّكَ لَصَادِقٌ وَلَمْ يُرَاجِعْهُ فِيهَا. وَدَخَلَ صَالِحُ بْنُ خَلِيلٍ النَّاسِكُ عَلَى الْمَهْدِيِّ فَوَعَظَهُ وَأَبْكَاهُ طَوِيلًا، وَذَكَرَ لَهُ سِيرَةَ الْعُمَرَيْنِ [4]، فَأَجَابَهُ الْمَهْدِيُّ : بِفَسَادِ الزَّمَانِ

(١) المعنى لا يغدر بعهده ، وقد أسند عدم الغدر للعهد على حد قوله تعالى : « عيشة راضية » أى صاحبها ، فهذا عهد غير غادر أى صاحبه

(٢) المعنى : أن الجانى عليه كأن له به صلة وقربى فهو لا يؤاخذه

(٣) الغضارة : النعمة والسعة وطيب العيش (٤) العمران : عمر بن الخطاب وأبو بكر رضى الله عنهما . « عبد الخالق »

وَتغيُّرِ أَهْلِهِ وَمَا حَدَثَ لَهُ مِنَ الْعَادَاتِ، وَذَكَرَ لَهُ جَمَاعَةً مِنْ أَصْحَابِهِ وَمَا لَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالنِّعْمَةِ، وَذَكَرَ فِيهِمْ عِمَارَةَ ابْنَ حَمْزَةَ وَقَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ لَهُ أَلْفَ دُوَاجٍ[1] بِوَبَرٍ، سِوَى مَا لَا وَبَرَ فِيهِ، وَسِوَى غَيْرِهَا مِنَ الْأَصْنَافِ الَّتِي يُتَدَثَّرُ[2] بِهَا. وَكَانَ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى بْنِ خَالِدِ بْنِ بَرْمَكَ شَدِيدَ الْكِبْرِ، عَظِيمَ التِّيهِ وَالْعُجْبِ، فَعُوتِبَ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: هَيْهَاتَ، هَذَا شَيْءٌ حَمَلْتُ عَلَيْهِ نَفْسِي، لِمَا رَأَيْتُهُ مِنْ عِمَارَةَ بْنِ حَمْزَةَ، فَإِنَّ أَبِي كَانَ يَضْمَنُ فَارِسَ مِنَ الْمَهْدِيِّ، فَحَلَّ عَلَيْهِ أَلْفُ أَلْفِ دِرْهَمٍ، فَأَخْرَجَ ذَلِكَ كَاتِبُ الدِّيوَانِ، فَأَمَرَ الْمَهْدِيُّ أَبَا عَوْنٍ عَبْدَ اللهِ ابْنَ يَزِيدَ بِمُطَالَبَتِهِ وَقَالَ لَهُ: إِنْ أَدَّى إِلَيْكَ الْمَالَ قَبْلَ أَنْ تَغْرُبَ الشَّمْسُ مِنْ يَوْمِنَا هَذَا وَإِلَّا فَأْتِنِي بِرَأْسِهِ، وَكَانَ مُتَغَضِّبًا عَلَيْهِ، وَكَانَتْ حِيلَتُهُ[3] لَا تَبْلُغُ عُشْرَ الْمَالِ، فَقَالَ لِي: يَا بُنَيَّ إِنْ كَانَتْ لَنَا حِيلَةٌ فَلَيْسَ إِلَّا مِنْ قِبَلِ عِمَارَةَ ابْنِ حَمْزَةَ وَإِلَّا فَأَنَا هَالِكٌ، فَامْضِ إِلَيْهِ فَمَضَيْتُ إِلَيْهِ، فَلَمْ يُعِرْنِي الطَّرْفَ، ثُمَّ تَقَدَّمَ مِنْ سَاعَتِهِ بِحَمْلِ الْمَالِ فَحُمِلَ إِلَيْنَا،

(١) الدواج بتخفيف الواو وتشديدها: اللحاف الذى يلبس (٢) يتدثر بها: مجهول تدثر الرجل بالثوب: اشتمل به (٣) يريد أنه لا يقدر أن يجمع بحيلته أكثر من عشر المال

فلمّا مضى شهرانِ جمعنا المالَ فقالَ أبي: امضِ إلى الشريفِ الحرِّ الكريمِ فأدِّ إليهِ مالَهُ، فلمّا عرّفتُهُ خبرَهُ غضبَ وقالَ: ويحكَ! أكنتُ قسطارًا[1] لأبيكَ؟ فقلتُ: لا، ولكنّكَ أحييتَهُ ومننتَ عليهِ، وهذا المالُ قدِ استغنى عنهُ. فقالَ: هوَ لكَ. فعدتُ إلى أبي فقالَ: لا، واللهِ ما تطيبُ نفسي لكَ بهِ، ولكنْ لكَ منهُ مائتا ألفِ درهمٍ، فتشبّهتُ بهِ حتّى صارَ خُلقًا لي لا أستطيعُ مفارقتَهُ.

وحدّثَ أبو الحسنِ عليُّ بنُ عمرَ الدّارقطنيُّ في كتابٍ لهُ صنّفهُ في السّخاء: حدّثنا القاضي الحسنُ بنُ إسماعيلَ، حدّثنا عبدُ اللهِ بنُ سعدٍ الورّاقُ، حدّثني هارونُ بنُ محمّدِ بنِ إسماعيلَ القرشيُّ قالَ: أخبرني عبدُ اللهِ بنُ أبي أيّوبَ المكّيُّ قالَ: بعثَ أبو أيّوبَ المكّيُّ بعضَ ولدِهِ إلى عمارةَ بنِ حمزةَ، فأدخلَهُ الحاجبُ، قالَ: ثمّ أدناني إلى سترٍ مسبلٍ فقالَ: ادخلْ، فدخلتُ فإذا هوَ مضطجعٌ محوّلٌ وجهَهُ إلى الحائطِ، فقالَ لي الحاجبُ: سلّمْ، فسلّمتُ ولمْ يردَّ عليَّ السّلامَ، فقالَ الحاجبُ: اذكرْ حاجتَكَ، فقلتُ لهُ: — جعلني اللهُ فداءَكَ —

(١) قسطارا: أي منتقدا للدراهم «صرافاً» من قسطر الدراهم: انتقدها

أَخُوكَ أَبُو أَيُّوبَ يُقْرِئُكَ السَّلَامَ ، وَيَذْكُرُ دَيْنًا بَهَضَهُ (١) وَسَتَرَ وَجْهَهُ ، وَيَقُولُ : لَوْلَاهُ لَكُنْتُ مَكَانَ رَسُولِي ، تَسْأَلُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَضَاءَهُ عَنِّي ، فَقَالَ : وَكَمْ دَيْنُ أَبِيكَ ؟ فَقُلْتُ : ثَلَاثُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، فَقَالَ : وَفِي مِثْلِ هَذَا أُكَلِّمُ الْأَمِيرَ ؟ يَا غُلَامُ : احْمِلْهَا مَعَهُ ، وَمَا الْتَفَتَ إِلَيَّ وَلَا كَلَّمَنِي غَيْرَ هَذَا .

قَالَ الدَّارَقُطْنِيُّ : حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي سَعِيدٍ ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ ابْنِ جَعْفَرِ بْنِ سُلَيْمَانَ الْهَاشِمِيُّ ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلَّامٍ الْجُمَحِيُّ ، حَدَّثَنَا الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ قَالَ : كَانَ أَبِي يَأْمُرُنِي بِمُلَازَمَةِ عِمَارَةَ بْنِ حَمْزَةَ ، قَالَ : فَاعْتَلَّ عِمَارَةُ وَكَانَ الْمَهْدِيُّ سَيِّءَ الرَّأْيِ فِيهِ ، فَقَالَ لَهُ أَبِي يَوْمًا : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَوْلَاكَ عِمَارَةُ عَلِيلٌ ، وَقَدْ أَفْضَى إِلَى بَيْعِ فَرْشِهِ وَكِسْوَتِهِ . فَقَالَ : غَفَلْنَا عَنْهُ ، وَمَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّهُ بَلَغَ إِلَى هَذِهِ الْحَالَةِ ! احْمِلْ إِلَيْهِ خَمْسَمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ يَا رَبِيعُ ، وَأَعْلِمْهُ أَنَّ لَهُ عِنْدِي بَعْدَهَا مَا يُحِبُّ . قَالَ : فَحَمَلَهَا أَبِي مِنْ سَاعَتِهِ وَقَالَ لِي : اذْهَبْ بِهَا

---

(١) بهضه : الدين وغيره ، وبهظه : فدحه وثقل عليه ، وهو بالظاء أكثر

إِلَى عَمِّكَ وَقُلْ لَهُ : أَخُوكَ يُقْرِئُكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ : أَذْكَرْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمْرَكَ ، فَاعْتَذَرَ مِنْ غَفْلَتِهِ عَنْكَ ، وَأَمَرَ لَكَ بِهَذِهِ الدَّرَاهِمِ وَقَالَ : لَكَ عِنْدِي مَا تُحِبُّ . قَالَ : فَأَتَيْتُهُ وَوَجْهُهُ إِلَى الْحَائِطِ ، فَسَلَّمْتُ فَقَالَ لِي : مَنْ أَنْتَ ؟ فَقُلْتُ لَهُ : ابْنُ أَخِيكَ الفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ . فَقَالَ : مَرْحَبًا بِكَ ، وَأَبْلَغْتُهُ الرِّسَالَةَ فَقَالَ : قَدْ كَانَ طَالَ لُزُومُكَ لَنَا ، وَقَدْ كُنَّا نُحِبُّ أَنْ نُكَافِئَكَ عَلَى ذَلِكَ وَلَمْ نَتَمَكَّنْ قَبْلَ هَذَا الْوَقْتِ ، انْصَرِفْ بِهَا فَهَذِهِ لَكَ . قَالَ: فَهِبْتُهُ أَنْ أَرُدَّ عَلَيْهِ ، فَتَرَكْتُ الْبِغَالَ عَلَى بَابِهِ وَانْصَرَفْتُ إِلَى أَبِي ، فَأَعْلَمْتُهُ الْخَبَرَ فَقَالَ لِي : يَا بُنَيَّ ، خُذْهَا — بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا — فَلَيْسَ عِمَارَةُ مِمَّنْ يُرَاجَعُ ، فَكَانَ أَوَّلَ مَالٍ مَلَكْتُهُ .

قَالَ ابْنُ عَبْدُوسٍ : وَكَانَ الْمَاءُ زَائِدًا فِي أَيَّامِ الرَّشِيدِ ، فَرَكِبَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ وَالقُوَّادُ لِيَعْرِفُوا الْمَوَاضِعَ الْمَخُوفَةَ مِنَ الْمَاءِ لِيَحْفَظُوهَا ، فَفَرَّقَ القُوَّادَ ، وَأَمَرَ بِإِحْكَامِ الْمُسَنَّيَاتِ ، وَسَارَ إِلَى الدُّورِ ، فَوَقَفَ يَنْظُرُ إِلَى قُوَّةِ الْمَاءِ وَكَثْرَتِهِ . فَقَالَ قَوْمٌ : مَا رَأَيْنَا مِثْلَ هَذَا الْمَاءِ ! فَقَالَ يَحْيَى : قَدْ رَأَيْتُ مِثْلَهُ فِي سَنَةٍ مِنَ السِّنِينَ ، وَكَانَ أَبُو الْعَبَّاسِ خَالِدٌ — يَعْنِي أَبَاهُ —

وَجَّهَنِي فِيهَا إِلَى عِمَارَةَ بْنِ حَمْزَةَ فِي أَمْرِ رَجُلٍ كَانَ يُعْنَى بِهِ مِنْ أَهْلِ جُرْجَانَ، وَكَانَتْ لَهُ ضِيَاعٌ بِالرَّيِّ، فَوَرَدَ عَلَيْهِ كِتَابُهُ يُعْلِمُهُ أَنَّ ضِيَاعَهُ تُحِيِّفَتْ[١] نَخَرِبَتْ، وَأَنَّ نِعْمَتَهُ قَدْ نَقَصَتْ، وَحَالَهُ قَدْ تَغَيَّرَتْ، وَأَنَّ صَلَاحَ أَمْرِهِ فِي تَأْخِيرِهِ بِخَرَاجِهِ سَنَةً، وَكَانَ مَبْلَغُهُ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ، لِيَتَقَوَّى بِهِ عَلَى عِمَارَةِ ضَيْعَتِهِ، وَيُؤَدِّيَهُ فِي السَّنَةِ الْمُسْتَقْبَلَةِ، فَلَمَّا قَرَأَ أَبِي كِتَابَهُ غَمَّهُ وَبَلَغَ مِنْهُ، وَكَانَ بِعَقِبِ مَا أَلْزَمَهُ إِيَّاهُ أَبُو جَعْفَرٍ مِنَ الْمَالِ الَّذِي خَرَجَ عَلَيْهِ، فَخَرَجَ بِهِ عَنْ مِلْكِهِ وَاسْتَعَانَ بِجَمِيعِ إِخْوَانِهِ فِيهِ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّ: مَنْ هٰهُنَا نَفْزَعُ إِلَيْهِ فِي أَمْرِ هٰذَا الرَّجُلِ؟ فَقُلْتُ: لَا أَدْرِي. فَقَالَ: بَلَى عِمَارَةُ ابْنُ حَمْزَةَ، فَصِرْ إِلَيْهِ وَعَرِّفْهُ حَالَ الرَّجُلِ، فَصِرْتُ إِلَيْهِ وَقَدْ أَمَدَّتْ[٢] دِجْلَةُ، وَكَانَ يَنْزِلُ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ، فَدَخَلْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى فِرَاشِهِ فَأَعْلَمْتُهُ ذٰلِكَ، فَقَالَ: قِفْ لِي غَدًا بِبَابِ الْجِسْرِ وَلَمْ يَزِدْ عَلَى ذٰلِكَ، فَنَهَضْتُ ثَقِيلَ الرِّجْلَيْنِ، وَعُدْتُ إِلَى أَبِي الْعَبَّاسِ وَالِدِي بِالْخَبَرِ، فَقَالَ لِي: يَا بُنَيَّ، تِلْكَ سَجِيَّتُهُ،

(١) تحيفت: أى تنقصت من حيفها، أى نواحيها (٢) أمدت الخ: من الامداد: وهو سيلان مائها، وكثرة فيضانه، والمد مقابل الجزر

فَإِذَا أَصْبَحْتَ فَاغْدُ لِوَعْدِهِ ، فَغَدَوْتُ إِلَى بَابِ الْجِسْرِ ، وَقَدْ جَادَتْ دِجْلَةُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ بِمَدٍّ عَظِيمٍ قَطَعَ الْجُسُورَ ، وَانْتَظَمَ النَّاسُ مِنَ الْجَانِبَيْنِ جَمِيعاً يَنْظُرُونَ إِلَى زِيَادَةِ الْمَاءِ ، فَبَيْنَا أَنَا وَاقِفٌ إِذَا بِزَوْرَقٍ قَدْ أَقْبَلَ وَالْمَوْجُ يُخْفِيهِ مَرَّةً وَيُظْهِرُهُ أُخْرَى ، وَالنَّاسُ يَقُولُونَ : غَرِقَ ، غَرِقَ ، نَجَا ، نَجَا ، حَتَّى دَنَا مِنَ الْجُرْفِ ، فَإِذَا عُمَارَةُ بْنُ حَمْزَةَ فِي الزَّوْرَقِ بِلَا شَيْءٍ مَعَهُ ، وَقَدْ خَلَّفَ دَوَابَّهُ وَغِلْمَانَهُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي رَكِبَ مِنْهُ ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ نَبُلَ فِي عَيْنِي وَمَلَأَ صَدْرِي ، فَنَزَلْتُ وَغَدَوْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ : — جُعِلْتُ فِدَاكَ — فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ ؟ فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ فَقَالَ : كُنْتُ أَعِدُكَ وَأُخْلِفُ يَابْنَ أَخِي ؟ اُطْلُبْ لِي بِرْذَوْنَ كِرَاءٍ ، قَالَ : فَقُلْتُ : بِرْذَوْنِي ، فَقَالَ : هَاتِ ، فَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ بِرْذَوْنِي فَرَكِبَ ، وَرَكِبْتُ بِرْذَوْنَ غُلَامِي ، وَتَوَجَّهَ يُرِيدُ أَبَا عُبَيْدِ اللهِ وَهُوَ إِذْ ذَاكَ عَلَى الْخَرَاجِ ، وَالْمَهْدِيُّ بِبَغْدَادَ خَلِيفَةٌ لِلْمَنْصُورِ ، وَالْمَنْصُورُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ .

قَالَ : فَلَمَّا طَلَعَ عَلَى حَاجِبِ أَبِي عُبَيْدِ اللهِ ، دَخَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَى نِصْفِ الدَّارِ وَدَخَلْتُ مَعَهُ ، فَلَمَّا رَآهُ أَبُو عُبَيْدِ اللهِ قَامَ عَنْ مَجْلِسِهِ وَأَجْلَسَهُ فِيهِ وَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَأَعْلَمَهُ عُمَارَةُ حَالَ الرَّجُلِ

وَسَأَلَهُ إِسْقَاطَ خَرَاجِهِ ، وَهُوَ مِائَتَا أَلْفِ دِينَارٍ ، وَإِسْلَافَهُ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ مِائَتَىْ أَلْفٍ يَرُدُّهَا فِى الْعَامِ الْمُقْبِلِ فَقَالَ لَهُ أَبُو عُبَيْدِ اللهِ : هَذَا لَا يُمْكِنُنِى ، وَلٰكِنِّى أُؤَخِّرُهُ بِخَرَاجِهِ إِلَى الْعَامِ الْمُقْبِلِ . فَقَالَ لَهُ : لَسْتُ أَقْبَلُ غَيْرَ مَا سَأَلْتُكَ ، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدِ اللهِ فَاقْنَعْ بِدُونِ ذَلِكَ لِتُوجِدَ[(١)] لِىَ السَّبِيلَ إِلَى قَضَاءِ حَاجَةِ الرَّجُلِ . فَأَبَى عِمَارَةُ وَتَلَوَّمَ[(٢)] عُبَيْدُ اللهِ قَلِيلًا ، فَنَهَضَ عِمَارَةُ فَأَخَذَ أَبُو عُبَيْدِ اللهِ بِكُمِّهِ وَقَالَ : أَنَا أَحْتَمِلُ ذَلِكَ فِى مَالِى ، فَعَادَ إِلَى مَجْلِسِهِ . وَكَتَبَ أَبُو عُبَيْدِ اللهِ إِلَى عَامِلِ الْخَرَاجِ بِإِسْقَاطِ خَرَاجِ الرَّجُلِ لِسَنَتِهِ ، وَالِاحْتِسَابِ بِهِ عَلَى أَبِى عُبَيْدِ اللهِ وَإِسْلَافِهِ مِائَتَىْ أَلْفِ دِرْهَمٍ تُرْتَجَعُ مِنْهُ فِى الْعَامِ الْمُقْبِلِ ، فَأَخَذْتُ الْكِتَابَ وَخَرَجْنَا فَقُلْتُ لَهُ : لَوْ أَقَمْتَ عِنْدَ أَخِيكَ وَلَمْ تَعْبُرْ فِى هَذَا الْمَدِّ ؟ قَالَ : لَسْتُ أَجِدُ بُدًّا مِنَ الْعُبُورِ ، فَصِرْتُ مَعَهُ إِلَى الْمَوْضِعِ وَوَقَفْتُ حَتَّى عَبَرَ .

هَذِى الْمَكَارِمُ لَا قَعْبَانِ[(٣)] مِنْ لَبَنٍ
شِيبَا بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالَا

(١) كانت هذه الكلمة فى الأصل : « لتوجدنى » (٢) تلوم : فى الأمر تلوما : تمكث فيه وانتظر (٣) قعبان : مثنى قعب : وهو قدح يروى الرجل ، والجمع أقعب وقعاب . وقوله : شيبا مجهول شاب الشىء يشوبه ، أى خلطه ، وألفه للتثنية نائب فاعل

وَدَخَلَ عِمَارَةُ يَوْمًا عَلَى الْمَهْدِيِّ فَأَعْظَمَهُ ، فَلَمَّا قَامَ قَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مِنَ الْقُرَشِيِّينَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَنْ هَذَا الَّذِي أَعْظَمْتَهُ هَذَا الْإِعْظَامَ كُلَّهُ ؟ فَقَالَ : هَذَا عِمَارَةُ ابْنُ حَمْزَةَ مَوْلَايَ ، فَسَمِعَ عِمَارَةُ كَلَامَهُ ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، جَعَلْتَنِي كَبَعْضِ خَبَّازِيكَ وَفَرَّاشِيكَ ، أَلَا قُلْتَ : عِمَارَةُ بْنُ حَمْزَةَ بْنِ مَيْمُونٍ ، مَوْلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ لِيَعْرِفَ النَّاسُ مَكَانِي ؟ .

﴿ ٣٨ – عُمَرُ بْنُ إِبْرَهِيمَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ * ﴾

عمر بن ابراهيم زين العابدين

ابْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ حَمْزَةَ بْنِ يَحْيَى بْنِ الْحُسَيْنِ ذِي الدَّمْعَةِ بْنِ زَيْدٍ الْإِمَامِ الشَّهِيدِ بْنِ عَلِيٍّ زَيْنِ الْعَابِدِينَ بْنِ الْحُسَيْنِ السِّبْطِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، يُكْنَى أَبَا الْبَرَكَاتِ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ ، إِمَامٌ مِنْ أَئِمَّةِ النَّحْوِ وَاللُّغَةِ وَالْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ ، مَاتَ فِيمَا ذَكَرَهُ السَّمْعَانِيُّ فِي شَعْبَانَ سَنَةَ تِسْعٍ وَثَلَاثِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ فِي أَيَّامِ الْمُقْتَفِي ، وَدُفِنَ فِي الْمَسْبَلَةِ (١) الَّتِي لِلْعَلَوِيِّينَ ، وَقُدِّرَ مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ بِثَلَاثِينَ أَلْفًا ، وَكَانَ مَوْلِدُهُ فِي

(١) موضع تدفن فيه الموتى

(*) راجع بغية الوعاة

سَنَةَ اُثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ، أَخَذَ النَّحْوَ عَنْ أَبِي الْقَاسِمِ زَيْدِبْنِ عَلِيٍّ الْفَارِسِيِّ ، عَنْ أَبِي الْحُسَيْنِ عَبْدِ الْوَارِثِ ، عَنْ خَالِهِ أَبِي عَلِيٍّ الْفَارِسِيِّ ، وَأَخَذَ عَنْهُ أَبُو السَّعَادَاتِ بْنُ الشَّجَرِيِّ ، وَأَبُو مُحَمَّدِ بْنُ بِنْتِ الشَّيْخِ .

قَالَ السَّمْعَانِيُّ : وَكَانَ خَشِنَ الْعَيْشِ صَابِراً عَلَى الْفَقْرِ ، قَانِعاً بِالْيَسِيرِ ، سَمِعْتُهُ يَقُولُ : أَنَا زَيْدِيُّ الْمَذْهَبِ ، وَلَكِنِّي أُفْتِي عَلَى مَذْهَبِ السُّلْطَانِ — يَعْنِي أَبَا حَنِيفَةَ — . سَمِعَ بِبَغْدَادَ أَبَا بَكْرٍ الْخَطِيبَ ، وَأَبَا الْحُسَيْنِ بْنَ النَّاقُورِ ، وَبِالْكُوفَةِ أَبَا الْفَرَجِ مُحَمَّدَ ابْنَ عَلَاءٍ الْخَازِنَ وَغَيْرَهُ ، وَرَحَلَ إِلَى الشَّامِ وَسَمِعَ مِنْ جَمَاعَةٍ ، وَأَقَامَ بِدِمَشْقَ وَحَلَبَ مُدَّةً قَالَ : وَحَضَرْتُ عِنْدَهُ وَسَمِعْتُ مِنْهُ ، وَكَانَ حَسَنَ الْإِصْغَاءِ سَلِيمَ الْحَوَاسِّ ، وَيَكْتُبُ خَطًّا مَلِيحاً سَرِيعاً عَلَى كِبَرِ سِنٍّ ، وَكُنْتُ أُلَازِمُهُ طُولَ مُقَامِي بِالْكُوفَةِ فِي الْكُوَرِ الْخَمْسِ ، مَا سَمِعْتُ مِنْهُ فِي طُولِ مُلَازَمَتِي لَهُ شَيْئاً فِي الِاعْتِقَادِ أَنْكَرْتُهُ ، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ يَوْماً قَاعِداً فِي بَابِ دَارِهِ وَأَخْرَجَ لِي شَذْرَةً مِنْ مَسْمُوعَاتِهِ ، وَجَعَلْتُ أَفْتَقِدُ فِيهَا حَدِيثَ الْكُوفِيِّينَ ، فَوَجَدْتُ فِيهَا جُزْءاً

مُتَرْجَماً (١) بِتَصْحِيحِ الْأَذَانِ بِحَيَّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ ، فَأَخَذْتُهُ لِأُطَالِعَهُ فَأَخَذَهُ مِنْ يَدِي وَقَالَ : هَذَا لَا يَصْلُحُ لَكَ ، لَهُ طَالِبٌ غَيْرُكَ ، ثُمَّ قَالَ : يَنْبَغِي لِلعَالِمِ أَنْ يَكُونَ عِنْدَهُ كُلُّ شَيْءٍ ، فَإِنَّ لِكُلِّ نَوْعٍ طَالِباً .

وَسَمِعْتُ يُوسُفَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ مِقْلَدٍ يَقُولُ : كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَى الشَّرِيفِ عُمَرَ جُزْءاً فَمَرَّ بِي حَدِيثٌ فِيهِ ذِكْرُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ : — رَضِيَ اللهُ عَنْهَا — فَقَالَ لِي الشَّرِيفُ : تَدْعُو لِعَدُوَّةِ عَلِيٍّ ؟ أَوْ تَتَرَضَّى عَلَى عَدُوَّةِ عَلِيٍّ ؟! فَقُلْتُ : حَاشَا وَكَلَّا ، مَا كَانَتْ عَدُوَّةَ عَلِيٍّ . وَسَمِعْتُ أَبَا الْغَنَائِمِ ابْنَ النَّرْسِيِّ يَقُولُ : كَانَ الشَّرِيفُ عُمَرُ جَارُودِيَّ الْمَذْهَبِ لَا يَرَى الْغُسْلَ مِنَ الْجَنَابَةِ، وَسَمِعْتُهُ (٢) يَقُولُ : دَخَلَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الصُّورِيُّ الْكُوفَةَ فَكَتَبَ بِهَا عَنْ أَرْبَعِمِائَةِ شَيْخٍ ، وَقَدِمَ عَلَيْنَا هِبَةُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ السَّقَطِيُّ ، فَأَفَدْتُهُ عَنْ سَبْعِينَ شَيْخاً مِنَ الْكُوفِيِّينَ ، وَمَا بِالْكُوفَةِ الْيَوْمَ أَحَدٌ يَرْوِي الْحَدِيثَ غَيْرِي ، ثُمَّ يُنْشِدُ :

إِنِّي دَخَلْتُ الْيَمَنَا … لَمْ أَرَ فِيهَا حَسَنَا

(١) عنوانه تصحيح الأذان (٢) أي سمعت الشريف عمر ، والتاء فاعل ضمير يعود على أبي الغنائم بن النرسي

فَفِي حَرَامٍ بَلْدَةٌ أَحْسَنُ مَنْ فِيهَا أَنَا

قَالَ الْمُؤَلِّفُ : وَحُكِيَ أَنَّ أَعْرَابِيَّيْنِ مَرَّا بِالشَّرِيفِ عُمَرَ وَهُوَ يَغْرِسُ فَسِيلًا[1] ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلآخَرِ : أَيَطْمَعُ هَذَا الشَّيْخُ مَعَ كِبَرِهِ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ جَنَى هَذَا الفَسِيلِ ؟! فَقَالَ الشَّرِيفُ : يَا بُنَيَّ ، كَمْ مِنْ كَبْشٍ فِي الْمَرْعَى وَخَرُوفٍ فِي التَّنُّورِ ، فَفَهِمَ أَحَدُهُمَا وَلَمْ يَفْهَمِ الآخَرُ ، فَقَالَ الَّذِي لَمْ يَفْهَمْ لِصَاحِبِهِ : « إِيشْ » قَالَ ؟ قَالَ : إِنَّهُ يَقُولُ : كَمْ مِنْ نَابٍ يُسْقَى فِي جِلْدِ حُوَارٍ[2] ، فَعَاشَ حَتَّى أَكَلَ مِنْ ثَمَرِ ذَلِكَ الْفَسِيلِ . وَلِلشَّرِيفِ تَصَانِيفُ ، مِنْهَا : كِتَابُ شَرْحِ اللُّمَعِ .

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ أَبُو الشَّيْخِ أَبِي الْبَرَكَاتِ أَيْضًا شَاعِرًا أَدِيبًا ذَا حَظٍّ مِنَ النَّحْوِ وَاللُّغَةِ ، وَهُوَ مَذْكُورٌ فِي بَابِهِ . قَالَ تَاجُ الإِسْلامِ : سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ الزَّيْدِيَّ يَقُولُ : لَمَّا خَرَجْنَا مِنْ طَرَابُلُسَ الشَّامِ مُتَوَجِّهِينَ إِلَى الْعِرَاقِ ، خَرَجَ لِوَدَاعِنَا الشَّرِيفُ أَبُو الْبَرَكَاتِ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ الْعَلَوِيُّ الْحُسَيْنِيُّ ، وَوَدَّعَ صَدِيقًا لَنَا يَرْكَبُ الْبَحْرَ إِلَى الإِسْكَنْدَرِيَّةِ ،

(١) الفسيل واحده فسيلة : وهي النخلة الصغيرة ، تقلع من الأرض أو تقطع من الأم فتغرس (٢) الحوار : بالضم وقد يكسر ، ولد الناقة ساعة تضعه ، أو إلى أن يفصل عن أمه .

فرأيتُ خالكَ يتفكرُ فقلتُ لهُ : أقبِلْ على صديقِك ، فقالَ لي: قدْ عملتُ أبياتاً أسمعُها ، فأنشدَني في الحالِ :

قرَّبوا للنَّوى القوارِبَ كيْما يقتُلوني ببَيْنِهِمْ والفِراقِ
شرَعُوا في دمي بتشْديدِ شُرْعٍ (١) تركُوني من شدِّها في وثاقِ
قلعُوا حينَ أقلعُوا لفؤادي ثُمَّ لمْ يلبثُوا لقدْرِ الفُواقِ (٢)
ليتهُمْ حينَ ودَّعوني وساروا رحِمُوا عبْرَتي وطُولَ اشتياقي
هذهِ وقفةُ الفِراقِ فهلْ أحْـيا ليوْمٍ يكونُ فيهِ التَّلاقي؟

قالَ في تاريخِ الشَّامِ : حكى أبُو طالِبِ بْنُ الهرَّاسِ الدِّمشقيُّ ـ وكانَ حجَّ معَ أبي البركاتِ ـ : أنَّهُ صرَّحَ لهُ بالقوْلِ بالقدَرِ وخلقِ القرْآنِ ، فاستعْظمَ أبُو طالبٍ ذلكَ منْهُ وقالَ : إنَّ الأئمَّةَ على غيرِ ذلكَ ، فقالَ لهُ : إنَّ أهلَ الحقِّ يعرِفُونَ بالحقِّ ، ولا يُعرَفُ الحقُّ بأهْلِهِ ، قالَ: هذا معْنى حِكايةِ أبي طالبٍ .

(١) جمع شراع ككتاب ، وأصله بضمتين خففت بتسكين الراء (٢) الفواق : ما بين الحلبتين من الوقت ، أو ما بين فتح يد الحالب وقبضها على الضرع .

٣٩ – عُمَرُ بْنُ بُكَيْرٍ (١) *

عمر بن بكير

كَانَ صَاحِبَ الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ خَصِيصاً بِهِ وَمَكِيناً عِنْدَهُ يُسَائِلُهُ عَنْ مُشْكِلَاتِ الْأَدَبِ، وَكَانَ رَاوِيَةً نَاسِباً أَخْبَارِيًّا نَحْوِيًّا، وَلَهُ عَمِلَ الْفَرَّاءُ كِتَابَ مَعَانِي الْقُرْآنِ، وَذُكِرَ ذَلِكَ فِي أَخْبَارِ الْفَرَّاءِ.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: وَلَهُ مِنَ الْكُتُبِ: كِتَابُ الْأَيَّامِ يَتَضَمَّنُ يَوْمَ الْغُولِ، يَوْمَ الظَّهْرِ، يَوْمَ أَزْمَامٍ، يَوْمَ الْكُوفَةِ، غَزْوَةَ بَنِي سَعْدِ بْنِ زَيْدِ مَنَاةَ، يَوْمَ مُبَايِضَ.

حَدَّثَ مَيْمُونُ بْنُ هَارُونَ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو الْحَسَنِ مُحَمَّدُ ابْنُ عُمَرَ بْنِ بُكَيْرٍ قَالَ: كَانَ أَبِي بَيْنَ يَدَيِ الْمُنْتَصِرِ وَهُوَ أَمِيرٌ، وَأَحْمَدُ بْنُ الْخَصِيبِ كَاتِبُ الْمُنْتَصِرِ فَقَالَ: دَعْنَا مِنَ الرُّسُومِ الدَّاثِرَةِ وَالْعِظَامِ الْبَالِيَةِ، فَوَثَبَ عُمَرُ بْنُ بُكَيْرٍ فَقَالَ: أَيُّهَا الْأَمِيرُ: إِنَّ لِلْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ عَلَيَّ نِعَماً عِظَاماً، وَلَهُ فِي عُنُقِي مِنَنٌ جَمَّةٌ، فَقَالَ: مَاهِيَ يَا عُمَرُ؟ قَالَ: مَلَأَ يَا أَيُّهَا الْأَمِيرُ مَنْزِلِي ذَهَباً وَفِضَّةً، وَأَدْنَى مَجْلِسِي حَتَّى زَالَ عَنْ مَجْلِسِهِ، وَخَلَعَ عَلَيَّ فَأَلْحَقَنِي

(١) فى القاموس وسموا بكيرا كزبير ومن هنا ضبطته «عبد الخالق»

(*) ترجم له فى كتاب فهرست ابن النديم، وترجم له أيضاً فى بغية الوعاة

بِرُؤَسَاء أَهْلِ الْعِلْمِ ، كَأَبِي عُبَيْدَةَ وَالْأَصْمَعِيِّ ، وَوَهْبِ بْنِ جَرِيرٍ وَغَيْرِهِمْ ، وَقَدْ أَقْدَرَنِي اللهُ بِالْأَمِيرِ عَلَى مُكَافَأَتِهِ ، وَهَذَا مِنْ أَوْقَاتِهِ ، فَإِنْ رَأَى الْأَمِيرُ أَنْ يُسَهِّلَ إِذْنَهُ ، وَيَجْعَلَ ذَلِكَ عَلَى يَدَيَّ وَحَبْوَةً لِي وَذَرِيعَةً إِلَى مُكَافَأَةِ الْحَسَنِ فَعَلَ ، فَقَالَ : يَا أَبَا حَفْصٍ ، بَارَكَ اللهُ عَلَيْكَ ، فَمِثْلُكَ يُسْتَوْدَعُ الْمَعْرُوفَ ، وَعِنْدَكَ يَتِمُّ الْبِرُّ ، وَمِثْلُكَ يُرَغِّبُ الْأَشْرَافَ فِي اتِّخَاذِ الصَّنَائِعِ ، وَقَدْ جَعَلْتُ إِذْنَ الْحَسَنِ إِلَيْكَ ، فَأَدْخِلْهُ فِي أَيِّ وَقْتٍ حَضَرَ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ ، وَلَا سَبِيلَ لِأَحَدٍ مِنَ الْحُجَّابِ عَلَيْهِ ، فَقَبَّلَ أَبِي الْبِسَاطَ وَوَثَبَ إِلَى الْبَابِ ، فَأَدْخَلَ الْحَسَنَ وَأَتْكَأَهُ عَلَى يَدِهِ ، فَلَمَّا سَلَّمَ عَلَى الْمُنْتَصِرِ أَمَرَهُ بِالْجُلُوسِ فَجَلَسَ وَقَالَ لَهُ : قَدْ صَيَّرْتُ إِذْنَكَ إِلَى أَبِي حَفْصٍ ، وَرَفَعْتُ يَدَ الْحَاجِبِ عَنْكَ ، فَاحْضُرْ إِذَا شِئْتَ مِنْ غُدُوٍّ أَوْ رَوَاحٍ ، وَارْفَعْ حَوَائِجَكَ ، وَتَكَلَّمْ بِكُلِّ مَا فِي صَدْرِكَ ، فَقَالَ الْحَسَنُ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، وَاللهِ مَا أَحْضُرُ طَلَبًا لِلدُّنْيَا ، وَلَا رَغْبَةً فِيهَا وَلَا حِرْصًا عَلَيْهَا ، وَلَكِنْ عَبْدٌ يَشْتَاقُ إِلَى سَادَتِهِ ، وَبِلِقَائِهِمْ يَشْتَدُّ ظَهْرُهُ ، وَيَنْبَسِطُ أَمَلُهُ ، وَتَتَجَدَّدُ نِعَمُ اللهِ عِنْدَهُ ، وَمَا أَحْضُرُ لِغَيْرِ ذَلِكَ ، وَأَحْمَدُ بْنُ الْخَطِيبِ يَتَقَدُ غَيْظًا ، فَقَالَ لَهُ الْمُنْتَصِرُ :

فَاحضرِ الآنَ أيَّ وقتٍ شِئتَ ، فَأَكبَّ الحسنُ على البِساطِ فقبَّلهُ شكراً ونهضَ .

قالَ أبي : ونهضتُ معهُ ، فلمَّا بعُدْنا عن عينِ المنتصِرِ بلغني أنَّ المنتصِرَ قالَ : هكذا فليكنِ الشَّاكرونَ ، وعلى أمثالِ هذا فلينعمِ المنعمونَ . وقالَ الحسنُ لعمرَ يا أبا حفصٍ : واللهِ ما أدرى بأىِّ لِسانٍ أُثنى عليكَ ؟ فقالَ : سبحانَ اللهِ ، أنا أولى بالشُّكرِ والثَّناءِ عليكَ والدُّعاءِ لكَ ، خوَّلتنى الغِنى وألبستنى النُّعمى فى الزَّمانِ الصَّعبِ ، وفى الحالِ التى كانَ يجفونى فيها الحميمُ ، فجزاكَ اللهُ عنِّى وعن ولدى أفضلَ الجزاءِ . فقالَ الحسنُ : والهفتا ، ألا يكونُ ذلكَ المعروفُ أضعافَ ما كانَ . لا درَّ درُّ الفوتِ ، وتعساً للندمِ وأحوالِهِ ، وللهِ درُّ الخزيمىِّ حيثُ يقولُ :

وَدُونَ النَّوَى فى كلِّ قلبٍ ثَنِيَّةٌ[1]
لَهَا مَصعدٌ حزنٌ ومُنحدرٌ سهلُ
وَوَدَّ الفتى فى كلِّ نيلٍ يُنيلُهُ
إذا ما انقضى لو أنَّ نائلَهُ جزلُ

(١) الثنى من الوادى والجبل منعطفه ، والثنية : طريق العقبة ، وجمعها ثنايا

ثُمَّ قالَ لِي أبِي: يا مُحَمَّدُ أخرُجْ مَعَهُ ـ أعزّهُ اللهُ ـ حَتَّى تُؤَدِّيَهُ إلَى مَنْزِلِهِ. قالَ أبو الحَسَنِ: فَخَرَجْتُ مَعَهُ فَلَمْ أزَلْ أُحادِثُهُ حَتَّى جَرَى ذِكْرُ رَزِينٍ العَرُوضِيِّ الشَّاعِرِ، وكانَ قَدِ امْتَدَحَهُ بِقَصِيدَةٍ، فَماتَ رَزِينٌ قَبْلَ أنْ يُوصِلَها إلَى الحَسَنِ، فَقُلْتُ: أيَّدَ اللهُ الأميرَ، كانَ شاعِرٌ مِنْ أهْلِ العِلْمِ والأدَبِ مَدَحَ الأميرَ بِقَصِيدَةٍ وَهِيَ فِي العَسْكَرِ مَثَلٌ، وَماتَ قَبْلَ أنْ يُسْمِعَها الأميرَ، قالَ: فَأسْمِعْنِيها، فَأنْشَدْتُهُ إيَّاها وَأوَّلُها[1]:

قَرَّبُوا جِمالَهُمْ لِلرَّحِيلْ غُدْوَةً أَحِبَّتُكَ الأَقْرَبُوكْ
خَلَّفُوكَ ثُمَّ مَضَوْا مُدْلِجِينْ مُنْفَرِداً بِهَمِّكَ ما وَدَّعُوكْ

وَفِيها:

مَنْ مُبْلِغُ الأمِيرِ أخِي المَكْرُماتِ
مِدْحَةً مُحَبَّرَةً فِي أَلُوكْ[2]؟

تَزْدَهِي كَواسِطَةٍ فِي النِّظامِ فَوْقَ نَحْرِ جارِيَةٍ تَسْتَبِيكْ
يابْنَ سادَةٍ زُهُرٍ كَالنُّجُومِ أفْلَحَ الَّذِينَ هُمُ أنْجَبُوكْ
إذْ نَعَشْتَ مَدْحَهُمْ بِالفَعالِ مُحْيِياً سِيادَةَ ما أَوْلَوكْ

(١) قد ذكر أبو العلاء المعرى هذه القصيدة الغريبة العروض فى رسالته التى نشرناها
(٢) الألوك: الرسالة

ذُو الرِّيَاسَتَيْنِ أَخُوكَ النَّجِيبُ

فِيــهِ كُلُّ مَكْرُمَةٍ وَفِيكْ

ذو الرِّيَاسَتَيْنِ وَأَنتَ اللَّذَانِ يُحْيِيَانِ سُنَّةَ غَازِى تَبُوكْ

لَمْ تَزَالَا حَياً لِلْبِلَادِ وَالْعِبَادِ مَا لَكُمَا مِنْ شَرِيكْ

أَنْتُمَا إِنْ أَقْحَطَ الْعَالَمُونَ

مُنْتَهَى الْغِيَاثِ وَمَأْوَى الضَّرِيكْ[1]

يَابْنَ سَهْلٍ الْحَسَنَ الْمُسْتَغَاثَ

وَفِى الْوَغَى إِذَا اضْطَرَبَ الْفَكِيكْ[2]

مَا لِمَنْ أَلَحَّ عَلَيْهِ الزَّمَانُ مفْزَعٌ لِغَيْرِكَ يَابْنَ الْمُلُوكْ

لَا وَلَا وَرَاءَكَ لِلرَّاغِبِينَ

مُطَّلَبٌ سِوَاكَ حَاشَا أَخِيكْ

وَالْقَصِيدَةُ غَرِيبَةُ الْعَرُوضِ ، قَالَ أَبُو الْحَسَنِ : وَأَنَا وَاللهِ أُنْشِدُهُ وَعَيْنَاهُ تَهْمِى عَلَى خَدِّهِ فَتَقْطُرُ عَلَى نَحْرِهِ ، ثُمَّ قَالَ : وَاللهِ مَا أَبْكِى إِلَّا لِقُصُورِ الْأَيَّامِ عَمَّا أُرِيدُهُ لِقَاصِدِى ، ثُمَّ جَعَلَ يَتَلَهَّفُ وَيَقُولُ : مَا الَّذِى مَنَعَهُ مِنَ اللِّقَاءِ ، تَعَذُّرُ[3] الْحُجَّابِ أَمْ قُعُودُ الْأَسْبَابِ ؟ فَقُلْتُ : أُعْتَلَّ ـ جَعَلَنِى اللهُ فِدَاءَكَ ـ عِلَّةً تُوُفِّىَ

(١) الضريك : الفقير السيء الحال (٢) الفكيك : الذى يفك من الضيق

(٣) تعذر الحجاب : مصدر تعذر عن الأمر : أى تأخر

فِيهَا، فَجَعَلَ يَتَرَحَّمُ عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: وَاللهِ لَا أَكُونُ أَعْجَزَ مِنْ عَلْقَمَةَ بْنِ عُلَاثَةَ حَيْثُ مَاتَ قَبْلَ وُصُولِ النَّابِغَةِ إِلَيْهِ بِالْقَصِيدَةِ الَّتِي رَحَلَ بِهَا إِلَيْهِ حَيْثُ يَقُولُ:

فَمَا كَانَ بَيْنِي لَوْ لَقِيتُكَ سَالِمًا وَبَيْنَ الْغِنَى إِلَّا لَيَالٍ قَلَائِلُ

الْأَبْيَاتَ، فَبَلَغَتِ الْأَبْيَاتُ عَلْقَمَةَ فَأَوْصَى لَهُ بِمِثْلِ نَصِيبِ ابْنٍ لَهُ، وَلَكِنْ هَلْ لِهَذَا الشَّاعِرِ وَارِثٌ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، بُنَيَّةٌ، قَالَ: تَعْرِفُ مَكَانَهَا؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: وَاللهِ مَا يَتَّسِعُ وَقْتِي هَذَا لِمَا أَنْوِيهِ وَلَكِنَّ الْقَلِيلَ وَالْعُذْرَ يَسَعُنَا، ثُمَّ دَعَا غُلَامًا وَقَالَ: هَاتِ، مَا بَقِيَ مِنْ نَفَقَةِ شَهْرِنَا. فَأَتَى بِأَلْفَيْ دِرْهَمٍ فِي صُرَّةٍ فَدَفَعَهَا إِلَيَّ وَقَالَ: يَا أَبَا الْحَسَنِ، خُذْ أَلْفًا وَأَعْطِ الصَّبِيَّةَ أَلْفًا، فَأَخَذْتُ الْأَلْفَيْنِ وَانْصَرَفْتُ وَعَمِلْتُ بِمَا أَمَرَنِي بِهِ. وَمَاتَ الْحَسَنُ بْنُ سَهْلٍ بِسُرَّ مَنْ رَأَى فِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةَ سِتٍّ وَثَلَاثِينَ وَمِائَتَيْنِ فِي أَيَّامِ الْمُتَوَكِّلِ.

قَالَ الْمُؤَلِّفُ: مَا نُسِبَ إِلَى عَلْقَمَةَ فِي هَذِهِ الْحِكَايَةِ غَلَطٌ. لِأَنَّ الْوَارِدَ عَلَيْهِ هُوَ الْحُطَيْئَةُ، وَكَانَ عَلْقَمَةُ وَالِيًا عَلَى حُورَانَ، فَلَمَّا قَارَبَهُ مَاتَ عَلْقَمَةُ. فَقَالَ الْحُطَيْئَةُ الْأَبْيَاتَ. لَكِنْ هَكَذَا هَذِهِ الْحِكَايَةُ، وَلَا أَدْرِي كَيْفَ حَالُهَا؟.

انتهى الجزء الخامس عشر

من كتاب معجم الأدباء

﴿ ويليه الجزء السادس عشر ﴾

وأوله ترجمة

﴿ عمر بن أحمد بن أبي جرادة « المعروف بابن العديم » ﴾

الدكتور أحمد فريد رفاعى بك

فهرس

الجزء الخامس عشر

« من كتاب معجم الأدباء »

لياقوت الرومى